DATE ISSUED	DATE DUE	DATE ISSUED	DATE DUE

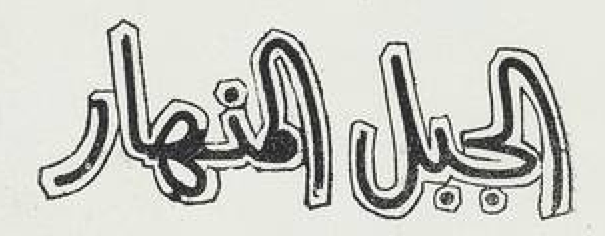
نايف ابو فرح

الجبل المنهار

دار لبنان
بيروت - لبنان

Abū Faraḥ, Nāyif

نايف أبو فرج



منشورات
دار البيان – بيروت – لبنان

الإهـداء

الى جبل الخيال والجمال .. جبل القوة والمعرفة .

الى طود شامخ هامه في السحاب .. يغـــازل الشمس في النهار .. ويسامر القمر والنجوم في الليل .

الى الذي اصوله في أعماق الارض، متصلة بحدود اللانهاية . في أرض شهدت مولد ابطال .. ونهاية جبـــابرة . في أرض جبلت بدماء أجدادنا البواسل .. الدماء التي ضحوهـــا في سبيل العزة .. في طريق الشهامة .. أجدادنا الذين سجلوا تاريخ بطولاتهم باحرف من نور على جبـين الدهر .

أجدادنا الذين حملوا منارة الحضارة الى أقصى حــدود المعمور . فـكانوا مثالا صالحاً وقدوة خير لسكان العالم أجمع .

الى صنين .. الجبل الاله .

نايف ابو فرح

عروس صنين

هناك .. على أكتاف الروابي .. بين أشجار الخوخ والكرز والتفاح تغفو قرية هانئة بين أحضان صنين .. فتحلم وتحلم بماض مجيد كله بطولات وتضحيات .. وتلقي برأسها على مرفق الزمن فيهمس بأذنها سر الحياة ومعنى البقاء . ويلقنها دروساً عديدة في التضحية .. في الشهامة .. في عزة ورفعة النفس .

نحن الآن في منتصف شهر كانون الثاني ، وقد لبست الأرض حلة بيضاء ، رصعت بدموع الطبيعة بعد أن حولها الزمهرير الى كرات وأشكال بلورية مختلفة القياسات والاحجام .

– الحالة هادئة ، والجو ساكن لا يعكرهما سوى وقع أقدام شيخ هرم يتوكأ على عصاه ، ويجر وراءه ثقل سنين شاقة أمضاها بالكد والعمل المتواصل . وقد شابه ببياض لمته نصاعة الثلوج المفروشة أمامه على امتداد البصر .

يعتمر لبادة غبراء اللون ، هرمية الشكل يسورها بكوفية صوفية سوداء . تتدلى أطرافها على كتفه الايسر ، وتلامس بعض شراريبها رأس شاربه الاشيب المعكوف الذي بقي محافظاً على رونقه منذ أيام شبابه .

ويلتف بعباءة بنية ذات دروب بيضاء صنعت من صوف الغنم الخالص ، خصيصاً لاتقاء الصقيع .

انه الآن صاعد بتمهل نحو داره العامرة ، وبصره يرافق جميع الاشياء التي يقع عليها . فيستوعبها مشهداً مشهداً وكأنه يتزود منها الزاد الاخير . ويقف بين الحين والحين ليستجمع بقايا قواه التي استنزفتها كثرة الثلوج وصعوبة الطريق .

وبعد جهد مضن وصل الى باحة منزله ، فتنفس الصعداء ، وهم بولوج الدار . لكن صوت غندور في المراح أوقفه قليلا وتساءل ضمناً :

هل هو عطشان يا ترى ؟.. وهل وسام اطعم الطرشات وسقاهم ؟..

ونزل الى المراح ليتأكد من ذلك بنفسه .

ان غندور لم يأكل سوى نصف علفه .. وأعطر بقي أمامه قليل من التبن .. والدابة السوداء بقي أمامها قليل أيضاً والبقرة واقفة ترنو الى فلوها المربوط بعيداً عنها دون أن تمد فمها الى معلفها . وهذا دليل على عطشهم جميعاً .

ان وسام لم يسقيهم بعد .. يجب ان يشربوا .. هل اناديه ؟.. لا .. فالأدعه قابعاً قرب الموقد في هذا الطقس المصقع .. سأسقيهم بنفسي .

وفك غندور واعطر ..

اف .. ما هذا الوهن في قدمي ؟.. انني تعب .. تشدد

يا أبا وسام .. هل قصرت الى هذه الدرجة ؟.

وحاول ثانية .. وشعر بان قدمـــاه سوف لا تقويان على حمله اذا بقي في المراح مدة أكثر .. انها الشيخوخة .. انه تعب السنين الماضية .. اذا لا نادى وسام .

وتحامل على نفسه .. ووقف في باب المراح مسنداً كتفه على احدى عوارضه .. وبصوت ضعيف يقطعه بعض السعال نادى .

وسام .. وســام .

وأجابه صوت قوي النبرات .. يدل على حيوية وشباب .

نعم يا أبي .. ماذا تريد ؟..

تعال الى هنا .. لقد فككت أعطر وغندور بقصــد آراؤهم من العين . لكنني تعب لا استطيـع أخذهم .

ووصل وسام الى قرب والده .. وشاهد اعيائـــه .. وهاله الامر . ابي.. ابي لماذا ترهق جسدك ؟.. لماذا تتعب نفسك ؟.. هل هذه الامور بعدها من شأنك ؟..لا .. لا . أرجوك بأن لا تعود اليها ثانية .

تكلم وسام وقلبه على لسانه .. واللهفة ملء عينيـه .. ان والده على قاب قوسين من القبر .. يجب أن لا يقوم بأي مجهود يضنيه .. وكاتفه معاوناً اياه على صعود الدرج الحجري الموصل الى البيت .

ودق قلبه خوفاً وهلعاً على الوالد .. ووجف قلب الوالد من التعب والاعياء .. وامتزجت الدقات .. انهـــا دقات

قلب واحد .. قلب اب ذاب في الآخر ليعطيه قوة التجدد الدائم ، والمناعة على البقـاء .. وتآلف الجسدان .. انهما جسد واحد .. جسد يذوب في الآخر رويداً رويـداً .. ليفنى الاول ويبقى الآخر انها سنة التجدد في الطبيعـة .. طريقها .. انها ارادة الله في خلقه .

ودخل ابو وسام الى البيت .. وذهب وســام ليسقي ابقاره ..

امـال ..

من .. ؟ ابي ؟. نعم ماذا تريد ؟ .

ان وسام قد ذهب ليسقي الابقار من العين والطقس بارد في الخارج .. زيدى بعض الاخشاب للنار ، وضعي عليهـا قدر الماء .. ربما أراد غسل رجليـه .

ان النار موقودة يا ابي ، وقدر الماء عليها .. اتريـد شيئاً غير ذلك ؟ لا .. اين والدتك ؟..

انها في الداخل .. أأناديها لك ؟..

لا ...

وسمعت ام وسام صوت زوجها .. وسعلت ، ثم نهضت واستقبلته باعوامها السبعين .. ببسمتها التي رافقتهـا طوال مدة زواجها .. وبادرته .

اتسأل عني ..؟ اتريد شيئاً ..؟

واقتربت منه .. وأخذت العباءة .. ونفضتها من بقايا التبن العالقة عليها .. ووضعتها على كرسي قرب النار .

لماذا تأخرت الى هذا الوقت ..؟ لقد انشغل فكرنا عليك في هذا الطقس البـــارد .

لا عليك يا رفقة .. ان الله يساعدنا ويحرسنـا من كل الشرور .

اين كنت ؟..

وجلس السيد نديم قرب الموقد.. وقرب يديه من النار.. وجلست زوجته بقربه وقلبها عليـه .

كنت عند جارنا ابو جميل اساعده على تـــدعيم جسر المربع الشرقي .

وظهرت اللهفة على قسمات وجه ام وسام .. وفي عينيها. ماذا ..؟ اكسر الجسر !.

لا .. هدئي من روعك .. انه حاطت بعض الشيء .. وقد خاف ان يحدث له أي امر من جراء كثرة الثلوج .

ان شـاء الله لم يكن حادث خطر !.

كان الخطر واقعاً ولا مفر منه .. لكن قـــدرة الله عظيمة .. ولو تأخر عنه ساعتين فقط لهبط السقف على من فيه .. وكان ..

الحمد لك .. الحمد لك يا ربي .. اين كانت عياله ستذهب في مثل هذا الطقس المثلج ؟.. اترى يا نديم ؟.. هذه الشتوية لم يمر علينا مثلها من مدة بعيدة .. ان الثلج في المنطقـــة منذ اربعين يوماً تقريبـاً .. اليس كذلك ؟..

وسرّح فكره يستجلي خبايا السنين الماضية .. حقاً إنه شتاء قارص .

ماذا تسألين ؟ .. كانت اهالي القرية بكاملها تقريباً ..

وكيف عرف جميع أهالي القرية ؟

كان الجار يخبر جاره .. ووفود المنجدين لا تزال تتوافد اليهم حتى الآن على ما أظن .

يا الله .. ونحن كيف لم يصلنا الخبر ؟ .. ماذا ستقول عنا ام جميل .

لا عليك .. لقد سددت غيبتك وأخبرتها بعدم معرفتك بالحادث .. لكن يجب أن تذهبي اليها غداً .

قوّاك الله وساعدك على عمل الخير .. فلا زلت معين الملهوف عند الحاجة .. ومثال الخير والصلاح في قريتنا الوادعة .

سامحك الله يا ام وسام .. إن هذا واجبي وواجب كل فرد .. واجب كل إنسان تجاه أخيه الإنسان .. أأنا الشيخ الهرم أتقاعس عن نصرة جاري ؟ .. وماذا ستقول عني الناس آنئذ ؟ .. أتريدين الحق .. الله يديم هذه النخوة والغيرة في قلوب الأهالي .. فكل فرد من الحضور كان يريد الأولية ويضع نفسه في مواضع الخطر .

وأي معروف لهم في ذلك ؟ .. إن أبا جميل مفضل على الجميع .. وفي كل حادث له الباع الطويل والرأي السديد .

وأنت ؟ .. أتسمح لك صحتك بالقيام بهــذه الأشغال الشاقة ؟ هوني عليك الأمر .. إن كانت صحــتي لا تسمح لي بالقيام بذلك . فأين رأيي ..؟ أين نظريتي ..؟

ونظر اليها بعتب .

هل نسيتيني يا ترى ؟..

لا .. لكن فاتني هذا الشيء . لأن صحتك كانت نصب عينيّ ..

تكلمت السيدة رفقة بفرحة مكبوتة ولسان حالها يقول. انه ذات الاعتداد بالنفس ، يوم كان في عز شبابه .. لكنه اعتداد في محله .. وطفت فرحتها على فؤادها .. وصعّدت على لسانها ثناء ومديحاً .

الله يساعدك على عمل الخير ، لأنك سند الملهوف ومعــين المحتاج .. أنت مثل صالح لجميع اهالي قريتنا .

الله يسامحك على هذا الكلام .. هذا واجب يا رفقة .. واجب كل فرد .. واجب كل إنسان تجاه أخيه الانسان .. بماذا استر وجهي عن الله في يوم الحساب إن قال لي جارك في ضيق وأنت تستطيع مساعدته ، لكنك تقاعست ..أخبريني بماذا أجيب ؟ أأقول كنت في جلسة هانئــة قرب الموقد ؟ . أم في جلسة سمر مع الأصدقاء ؟.

لا .. لا سمح الله أن تتأخر عن إغاثة المنكوب .. لكن صحتك .. صحتك الضعيفة .. يجب أن تداري صحتــك ، وخصوصاً في مثل هذا الطقس البارد .

نعم .. صدقت .. ان صحتي ضعيفة .. لكن بقي لي بعض من القوة .. وقوتي هذه ليست ملكي، بل ملك كل فرد كل إنسان من اخواني البؤساء .

على رسلك يا نديم .. فلتكن ارادتك .

أنهى أبو وسام حديثه مع زوجته واتجه نحو أمـال ، وبشائر الغبطة ملء اعطافه .. وجاوب ضميره ..

نعم ان عمل الخير واجب ومدعاة للفخر والاعتزاز ...

وقطعت عليه أمال حبل تفكيره .

أبي .. أأنادي وسام ..ان الشمس قد اشرفت على المغيب والصقيع اشتد في الخارج .

هوه .. هوه .. هاه هاه .. ها .

ودخل وسام وهو يحوحي ولهاثه يسبقه .. وينفخ في يديه ليبعث بهما الدفء ..ويفركهما بعضهما ببعض .. ويضعهما تحت ابطه..وشاربه الأشقر الجميل أخذ قسطه من الجليد .. وتجمد..وعلت ثغره البسمة عندما شاهد أمال .. وكلمها .. اصحيح تحبينني لهذه الدرجة..؟وتخافين عليّ من البرد ايضاً ؟ قالها وسام بغنج ودلع ، والمزح المرح يلف ابتسامته المشرقة رغم ما اصابه من الصقيع .

لا .. لا .. انا لا أحبك يا قاسي القلب .

وبرطمت .. وانعكس حنان قلبها على محياها .. وافسد عليها حيلتها .

لقد قبضت عليك يا ..

يا .. ماذا ؟ .. هه .. انا ذاهبة .

لا .. تذهبي .. لماذا الغضب ؟

واقترب منها .. وقبلها فوق جبينها .. وأردف :

لا تغضبي يا أحسن شقيقة في العالم .

عدت وقلتها اخيراً .

وردت له القبلة قبلات .. وساعدته على خلـــع ملابسه المرشوشة بنتف الثلج .

وكان إناء الماء الساخن في انتظارهما .. واحضرته مع منشفة وصـابونة وجلست قرب وسام في عتبـــة المربع .. واخذت تسكب الماء فوق يديه .

ومع نظرات الأم التي تطفح بالسرور . ومع فرحتهـــا بولديها همست باذن زوجها الممدد قربها في زاوية المربع فوق جلد من صوف الغنم الأبيض الوثير .

نديم .. انظر .. انظر الى جـو السعادة الذي يرفرف فوق رأس ولديك الحبيبين .

وناجت ربها .

يا الله .. يا من عليك اتكالي .. احفظهما لنا معافيين .. وأنت على كل شيء قدير .

حول الموقد

اجتمعت العائلة قرب الموقد لتتقي لفحات البرد ،ولسعات الزمهرير المتسربة من شقوق البـــاب والشبابيك .. وبدأ السكون شاملاً في منزل نديم جابر .. وهال هذا السكون صاحب الدار .. وتنحنـــح .. وكسر جدار الصمت الذي يلفهم وقال .. ما رأيك في صحة البقرة العتراء يا وسام ... اني قد شاهدتها على غير عادتها .. انها قليلة الأكل .. أليس كذلك ؟.

نعم يا ابي .. لكنها الآن احسن من البارحة .. لقـــد تركتها منذ برهة وهي تأكل بشهية .

اعتن بها جيداً ، وانتبه للفدان ..ان هذه الشتوية قارصة الصقيع كما ترى .

اطمئن يا ابي ولا تحمل اي هم .. انني بفضـل توجيهك سأعتني بها ، وسيكون كل شيء سائراً حسب إرادتك .

الله يوفقك يا ولدي ويقر عيني بك .. يا ترى هل اعيش لأراك ؟. وصمت .. يا ريت .. لكن .

ماذا يا ابي ؟ .. خير إن شاء الله ؟.

لا شيء .. لا شيء .. خاطر عابر راودني ..

وسحب من نرجيلته نفساً طويلاً .. وكرر السحب .)
ولم يتلق اية نتيجة .. ونظر اليها ان نارها مطفأة .

واتجه نحو آمال .

اين الملقط ؟ احضريه وضعي جمرة على النفس .

حاضر يا ابي .. اتريد اي شيء آخر ؟ .

هل غليتِ القهوة ؟..

لا .. سأغليها الآن .

اعطيني الابريق .. اريد ان اشرب .

وكان الابريق قرب ام وسام .. وناولته اياه .. وعادت الى مغزلها تحدب عليه وتغذيه بخصلات من الصوف البني الناعم (مور) .

واحضرت آمال القهوة .. وقدمتها الى افراد العائلة .
وبعد انتهائها من عملها جلست قرب والدتها وانهمكت بإتمام حياكة جوارب والدها .

اما وسام فقد كان خالي العمل . فتضجر واخذ ينكت الرماد المكوّم امامه في الموقد برأس عود صغير .. تارة يجمعه وطوراً يمدده .. ويكتب حروفا وحروفاً .. ويرسم اشكالاً واشكالاً .. وتجول في رأسه افكار وافكار .. ومن وقت لآخر كان يغذي النار ببعض قطع الحطب اليابس فتندلع ألسنتها .. وتتشابك .. وتحكي حكاية شتاء .. حكاية عمر .

جو روتيني .. نفس الحديث .. ونفس الأسئلة .. وذات الأشياء في مواضعها .. نرجيلة .. جوارب .. ومغزل ..

ونار مشبوبة .. اشياء اعتادتها النفس وألفها النظر .. لكن اشياء اخرى كانت تجول في افكار الجميع.. نقص .. فراغ.. ملل .. كان يلفهم ، انهم يتوقون الى التجديد .. الى جو غير جوهم .. ان هذا الفراغ يجب ان يملأه آخرون..جيرانهم .. اصحابهم .. وقويت الفكرة في رؤوسهم .

وقلب ابو سام من جنب الى جنب .. واعطى جسده وضعاً مريحاً..ودغدغ مؤخرةرأسه بيده المعروقة..وتنحنح.. وقال : وسام .

ورد عليه وسام وكأنه قادم من حلم بعيد .. وانتفض كمن ضُبط متلبساً بجرم ما .

نعم .. ماذا تريد ؟

واستهجن والده من بادرته .

من اين انت آت ..؟ ماذا دهـاك ؟ ..

انا ؟. آه .. لا شيء .. لكن .

لكن ماذا ؟ .. انني اراك على غير حالتك .. اترسم خطة بعض المشاريع ، في رأسك ؟ .

مشروع ..مشاريع .. نعـم .

ورقصت الفرحة في قلب الوالد .. يا ليته يوافق .. يجب ان يتزوج ..يجب .. لقد اصبحت على حافة قبري .. هل يا ترى سيحالفني الحظ وابقى على قيد الحياة لأشاهد له طفلاً يحبو ..

يا رب يا رب.. حقق لي أملي .. وكلم وسام ثانية ..

مشاريع ..؟ الظاهر انك كبرت البيكار .. إشرح لنا لنرى ما هي مشاريعك للمستقبل ؟ .

لا يوجد شيء يستحق الذكر يا ابي ،، جل ما هنالك ان افكاراً كثيرة تراودني .. منها يتعلق بالعمل .. ومنها ..

افصح .. افصح ومنها ماذا ؟

ومنها ما يتعلق بك وبوالدتي .

فيّ وبوالدتك ..؟ لقد اذهلتني .. فماذا تخبىء لنا للمستقبل ..؟

ابي ،. لقد بلغتما من العمر عتياً .. وكافحتما في هذه الحياة كفاحاً عظيماً ، جاوزتما به ذروة التضحية والتفاني في سبيلي وسبيل شقيقتي آمال ،, وها اننا قد اصبحنا شابين .. وبلغنا اشدنا .. وذلك بفضل عنايتكما وتربيتكما الصالحتين.. وأملي الأخير نحوكما هو ان تستعد لزيارة بيت المقدس مع وفود الحجاج الذاهبين الى هنالك في عيد الفصح المجيد .

وسام .. وجالت دمعة حنونة في مقلتي الأب... أخفاها عن ولده مخافة ان يجرح احساسه .

ولدي .. بورك فيك من فتى صالح يسير على طريق الخير والإيمان بالخالق الديان .. ان طلبك ليس بالبعيد عني .. وقد تداولنا بخصوصه انا ووالدتك .. لكن بعد اتمام امر مهم يشغل بالنا .

ما هو هذا الأمر ؟وهل هو مهم الى هذه الدرجة عندكما، ليمنعكما عن زيارة قبر مخلصنا يسوع المسيح ؟

نعم انه مهم جداً .. واكثر مما تتصور .. وهو يتعلق ،
وتوقف السيد نديم عن الكلام .
اكمل .. اكمل يا ابي .. يتعلق بماذا ؟
نعم سأكمل .. بعد ان تقول لي ما هي مشاريعك انت الخاصة منها والعامة
وكانت غاية الأب ان يعرف ما يجول في خاطر ولده دون ان يكون له شأن في توجيهه
انا ..!! لا توجد عندي مشاريع خاصة .. وكل ما هنالك انني ابحث في امر اشغالنا الربيعية .. ان الوقت طويل امامنا .. اننا في نصف الشتاء كما ترى ..
معك حق .. لكن الذي لا يبيت لا يصطاد ،
انني معك ..ما هي هذه المشاريع ؟ .. وما تفاصيلها ؟
وكان في داخله يجل اهتمام ولده بأمور بساتينه وكرومه وارزاقه ، ويكن له كل محبة وتقدير
ابي .. ان الدوارة الكبيرة في الشحار تأخذ جل اهتمامي ، لأن معظم اغراسها قد يبست ولم تعد تعطي انتاجاً كافياً .. لذا يجب علينا ان ننقبها على البلدوزر ونغرسها مطاعيم كرز بنتي لماع طلياني وقوس قدح .
وسرح ابو وسام مع خياله .. وحط رحاله عند حلم ولده. وراى هذا الحلم في بداية تطوره .. ها هي الجرافة تقلب الارض بسهولة ما بعدها سهولة . انها تجعل قاعها وجهاً ووجهها قاعاً ، وتخرج اصول الاشجار القديمة من الاعماق ..

وتبصقها الى اعلى ، وها الصخرة الكبيرة التي عصت عليه عندما نقب الارض على زنوده اول مرة ولم يقوَ على قلعها ، انها الآن تتخلخل تحت وطأة دفع هذا الغول الجبار الذي يدعونه بلدوزر .. انه يستجمع قواه .. ويتقهقر الى الوراء.. ويهجم .. وينطح الجلمود بقرنه الفولاذي.. ان الصخر يرضخ للقوة .. والارض تصبح كراحة الكف .. ان ولده يعمل بهمة ونشاط .. يغرس .. يسقي ، يشذب ، أما الاشجار فتنمو وتنمو ، وتزهر ، وتثمر ، ان الحلم قد اصبح حقيقة .

وحلم آخر راوده..حلم كان يعيشه في روحاته وغدواته.. في صحوه ورقاده .. وسام .. وابن وسام ، وسام يجب ان يتزوج ، ونطقت رغبته في لهفة وضراعة .

الله يعطيك القوة يا ولدي .. ويأخذ بيدك ، ويحقق كل آمالك .. ويشفق عليّ فيك ، وسقطت دمعة حانية على خد الشيخ .. ولم يستطع إخفاءها هذه المرة .. وضاعت بين أخاديد وجهه .. ولاحظها وسام ، وهاله الامر .

أبي .. أبي .. لما تفعل هكذا ؟ ان دمعتك قد حرقت قلبي .

واحتضن الاب ولده . . ومسح دمعته بشعره الأشقر الجميل .

وقبّله فوق جبينه .. وكلّمه بضراعة :

يجب ان تتزوج يا وسام .. يجب وشاركه قلب الأم والابنة .. شاركاه في رغبته ، ونابت عيونهما عن لسانها في

استعطاف وسام •• وكان في اعماقهما نداء •• يجب ان تتزوج يا وسام • يجب •

وارادتا النطق •• لكنهما تهيبتا الموقف . . واحترمتا امارات الحنان الابوي المتدفق من عيني الاب •

واحتار وسام في امره •• ان مشروع الزواج هو آخر شيء يفكر به .. الارض ، الاشجار ، الطبيعة ، الصيد ، اجزاء من كيانه •• بعض نفسه • آماله كلها .. وكل امر من بعدها هباء ، لكن رغبة والده ، ووالدته ، انهما يريدان تزويجه ليشاهدا له ولداً على حياتهما • (لا يوجد احب من الولد إلا ولد الولد) هذه امنية الآباء والامهات لفلذات اكبادهم . يجب ان يحقق رغبتهما ، يجب ان يتزوج ، لكن ليس الآن . سيستمهلهما والوقت كفيل بتحضير الاشياء . ان جميع الاعمال مرهونة بأوقاتها .. ورد على والده :

ابي .. انني رهن اشارتك • والثوب الذي ستفصلونه سألبسه .. لكن امهلني هذه الصيفية فقط ، من بعدها لكل حادث حديث •

وشعر السيد نديم بثقل الجو الذي اوجدوا نفوسهم به ، وبأنهم سوف يتضجرون . فغير مجرى الحديث ، وراودته فكره •

وسام •

نعم •

اذهب الى عند عمك ابو عفيف وعمك ابو مخول وادعوهما ليسهروا معنا .

حاضر .

والتحف وسام بشاله الصوفي ليتقي زهمة الثلج والزمهرير، وخرج .

وقرع الباب عند السيد عبدو تامر .. وتجاوب مع صوت من الداخل ..

من الطارق ؟..

انا .. وسام ..

وسام ؟ .. تفضل .. ادخـل .

وفتح الباب..ودخل وسام الى حدود العتبة .. ووقف ..

لماذا وقفت عندك ؟ ..

لا .. شكراً .. عمي ابو عفيف تفضلوا اسهروا عنـدنا الليلة .

لماذا ازعجت نفسك يا ولدي ؟ انحتاج نحن لدعوة كي نسهر عندكم ؟..

لا يوجد اي انزعاج .. انا لم آت لادعـوكم ، بل لاعطيكم علم فقط .

على رسلك . . اجلس يا ولدي .. اجلس .. سنذهب بصحبتك بعد قليل .

لا .. أنا ذاهب إلى عند بيت عمي أبو مخول لأدعوهم ايضـا .

رافقتك السلامة .. الله يسهل أمرك .

وذهب إلى بيت ابو مخول ..وكان عندهم بعض الأصحاب والاقارب .. ودعاهم جميعا .

×××

سهرة في الضيعة

اكتمل شمل الاصحاب ، وتبدل جو المنزل عند السيد نديم جابر من سكوت ممل إلى حركة دائمة كلها حيوية ونشاط .

ابو مخول يدخن النرجيلة ويلقي بنكاته تلقائياً فيقهقه لها الحضور ويصفقون ابتهاجاً لفكاهتها المحببة الى القلوب .

وابو وسام في مكانه المعهود ، يجلس فوق جلد الغنم الوثير ويدخن نرجيلته . وبجانبه هرة جمعت بعض الوان الربيع وحاكتها ثوباً لها .. جميلة .. جذابة .. وديعة ، نصفها غارق بين الصوف الابيض والنصف الآخر بعضه تحت يد ابو وسام يمسده باسترخاء ودعابة . وهي تموء غبطة وتمرر رأسها تحت يده من وقت لآخر . ووسام يتأهل بهذا ، ويرحب بذاك .. ويفسح مكاناً لآخر . وآمال تدور بصحون الجوز والزبيب على الحاضرين ، وتوزع محتوياتها مع ابتسامتها اللطيفة .

وتشعبت الاحاديث ، تعالج امور الضيعة ، لتقرر ما هو سيء وما هو صالح . وبدت الالسن كمشراط الجراح ،

تقر بصحة هذا وتنقح غيره وتندد بما هو غير صالح .

وأخيراً مل القوم كثرة الجدل بعد تطرقهم لكل شاردة وواردة . وشعر رب البيت بتبلبل الجو وبتكاسل بعض الحضور وبدبيب النعاس يراود الأجفان . فتزحزح في جلسته قليلاً ، وسعل سعلة خفيفة ثم قال :

أتريدون التسلية بلعب الورق ؟

مثلما تريدون .

اجاب بعض الحضور .

وبحث عن وسام .. وكان مع شلة من رفاقه في زاوية المربع .. وناداه .

وسام .. اين الورق .. احضره لنرى من سيفوز هذه الليلة .

ونهض وسام وأحضر الورق .

تفضلوا .. تفضلوا .. شرّف عمي ابو مخول .. عمي ابو عفيف .. لا .. إلعبوا أنتم الشباب في البداية .

هذا لا يجوز .. العبوا أنتم اولاً ونحن الشباب سنلعب بعدكم .. إن السهرة طويلة ونحن في بدايتها .. بماذا تريدون أن تلعبوا ؟ .. طرنيب أم بحري .

وضحك ابو عفيف .

بحري يا ابني بحري .. نحن الشيوخ نحب لعبة البحري . وانتم الشباب ستلعبون في الطرنيب إذا أحببتم .

مثلما تريدون .. تفضلوا .. ووضع الورق أمامهم على طراحة مخملية الوجه خضراء اللون .

وتحلق الحاضرون حول اللعب ..وعلا الضجيج .. وكثر اللغط .. احتدم الجدال بين ابو عفيف وابو مخول عندما ظن أحد الشريكين أن شريكه قد غلط في لعبه ..وقال غاضباً :

انا مضانج بستوني . لماذا رددت لي سباتي ؟ ..

ولم يكن غضب ابو مخول أقل احتداماً من غضب شريكه، ورد له الكيل كيلين .

سباتي .. سباتي .. وأنا من اين سأجد لك سباتي .. إنني ألعب على ورقي.

ألا يوجد معك سباتي ؟ ..

لا .. لا يوجد معي سباتي .

حسناً .. انتبه إلى اللعب .

ونكس لبادته إلى الأمام .. ومسح شاربه بيده.. وفتلهما قليلاً ..

إنني شديد الانتباه .. انتبه أنت ولا تهتم بي .

أثار هذا الشجار بين الشريكين حفيظة الخصوم .. وشعروا بنشوة النصر .. وشمتوا بالفريق الآخر التي تحزب لأبي مخول وقال أحدهم :

إنكم لمتشاجرون كثيراً .. أنتم الآن في بداية اللعب .. حسناً .. سنرى لمن ستكون الغلبة .

وسام .. النار قد خمدت .. إن سل الحطب قربك .. ضع منه بعض الأخشاب في الموقد ..

آمال .. نرجيلة عمك ابو مخول انتهى نفسها .. ادعكي غيره وجددي القهوة .

القى ابو وسام بأوامره لأفراد العائلة وتابع الإشراف على سير اللعب لأنه كان الحكم فيما بينهم .. ران الصمت فوق الجميع ، لأن الخصمين كانا يلعبان بثقة وروية ، وتعلقت الأفئدة بكل شاردة وواردة تصدر عنهما .

وأخيراً ربح فريق ابو عفيف عندما حالفه الحظ . وانهى الشوط ببندا كانت مسك الختام .. وكثر الجدل .. وعلا الضجيج ثانية .. وبدأ التزريك .. وكان ابو عفيف مجلياً في هذا المضمار .

قوم لبش عالبيت غارا لعب الورق بدو شطارا
قوم لبش عالبيت سرقا مثل الشرشوح ورا القرقا

ولعب فريق آخر .. وتجلى الطرنيب بأبهى مظاهره ...

وكان حماس الشباب شديداً .. وانهمك كل من الحضور بعمله .

ام مخول وام عفيف مع مغزليهما تتكلمن حول مستقبل أولادهن ومستقبل المواسم القادمة .

والشباب منهم من كان يستمع لحديث يرويه أحدهم ،يدور حول رحلة صيد أصاب بها حظاً وفيراً .. ومنهم من كان يتابع سير اللعب .

كان لكل من الحضور شاغلاً يحصر اهتمامه به ما عدا أربعة مقل كانت تتبادل النظرات خلسة .

فتظهر للعين البصيرة ما أخفته الأفئدة .

إن عفيف تامر يقيم على هوى عارم من جارته الحسناء آمال . وهي تبادله حباً بحب .. ودليل ذلك نظراتها العاطفية الرانية إلى من تهوى .

إنها نظرات بريئة في ظاهرها ، لكنها تدل على أشياء وأشياء ، بحسب قول الشاعر :

إذا اختفى ما في القلوب من الهوى

(انظر إلى عين من تحب تنبيك) ؟.

إنها تدرج في نهاية العقد الثاني من عمرها .. هيفاء ، بعمر الورود .. قمحية البشرة .. أقرب إلى البياض منها إلى السواد .. عيناها سوداوان تظللهما أهداب سحرية .. انفها صغير جميل .. وفمها كرزي فاتن .. جذاب كياقوتة حمراء أو كجمرات كانون الوهاجة .. شعرها أسود فاحم كقطعة من الليل يجلل منكبيها ويزيدها سحراً على سحر .. وكل عضو من أعضائها كان دليلاً قاطعاً على جلوسها فوق مربع الجمال عن جدارة واستحقاق .

وعفيف قد جاوز العشرين ربيعاً .. معتدل القامة .. أسمر البشرة .. تظهر على محياه سيماء النجابة والذكاء .

وكان التفاهم واضحاً بينهما ، وقد علمت بحبهما أخيراً جميع أهالي القرية..وبورك هذا الحب من الشيوخ والعجائز..

أما الصبايا والشباب فكان في قلب كل منهن حرقة وغصة .. لأن كل فتاة كانت تتمنى أن يكون عفيف من نصيبها ، وكل شاب يتمنى ان تكون آمال عروسته ..

لكن سلم الجميع بالأمر الواقع .وبدأت الاستعدادات لبناء منزل جديد يشاد على سواعد أشبال أشداء .

بدء الربيع

انهزمت فلول جيوش الشتاء ، أمـــام جحافل جيوش الربيع الجرارة . ولبست الطبيعة حلة فاتنة زاهية حاكتها يد الخالق .وقد دبت الحياة في القرية بعد ركود دام طيلة فصل الشتاء . وقد انتشر فوح الأريج فوق الروابي .ومادت الأزهار بقدودها طرباً على أنغام المياه المتراقصـــة في الأنهر والغدران والمنحـــدرات .. وسرحت أسراب النحل تسابق الفراشات على جناء الرحيق . والربيع في بسكنتنا له رونق مميز ، لا يشابهه سوى ربيع القرى المشابهة لها .

إنها تربض في أعالي الجرد على علو الف وأربع مائة متر عن سطح البحر . هذا في وسطها ، أما من الجهـة الشمالية فيزيد عن الألف وخمس مائة متر تقريباً.حيث يتصل منظران جميلان تعشقهما العين .. الثلج في أعالي صنين ، والاشجـار المزهوهرة في بساتينها وضواحيها .ثم شال أخضر منالصنوبر مشلوح على أكتافها دون عناية ولا إتقان .. وتحت اقدامها يرقد وادي الجماجم حارسها الأمين .

ومع كل صباح تضج الدروب بقطعان الغنم والماعز والأبقار .. وتتألف قطع من الموسيقى الشجية من ثغاء الحملان وحداء الرعاة ، وغناء الصبايا الذاهبات إلى الحقول بقصد العمل او النزهة .

وبين هذا الضجيج ، ومع الحداء والغناء يندفع سيل من الفلاحين كل يسوق أبقاره امامه ، وعدة فلاحته محملة على دابته ، وفي رأسه أفكار وأفكار .

وفي المساء تعاد نفس المشاهد ، لكن بفارق الجوهر ، فقطعان الماشية تجتر راحتها وتندفع نحو زرائبها ، والصبايا الحسان يحملن صرر السليق (اعشاب برية مختلفة) ودلائل الصحة والنشاط تتفجر وروداً حمراء من وجناتهن. والفلاحون يجرون في أقدامهم ثقل سلاسل جهودهم وأتعابهم ، وعلائم البشر تطفح فوق ثغورهم لاستبشارهم بفيض موسم عميم .

ابتدأ الليل يرخي سدوله ووسام لم يحضر إلى منزله مع بقية الفلاحين .. وكان في خلد والدته تساؤل .

لماذا تأخر يا ترى ؟ .. لماذا تأخر لهذا الوقت ؟

ووقفت على سطح المراح الممتد أمام المنزل .. وبصرها شاخص نحو الطريق المتعرج بين الأشجار المنشورة هنا وهناك .

يا إلهي .. لماذا انا خائفة عليه ؟ .. إنه شجاع ...

وقوي .. وفي أغلب الأحيان يتأخر اكثر من هذا الموعد .. لكن .. فكري مشغول عليه .. إنني أشعر وكأن قلبي يعصر تحت حجر الرحا .. يا ربي .. آه .

ووضعت يدها على رأسها .

ما هذه السويداء التي تنتابني ؟

ولفتها موجة من دوار محموم .. وبدأت تهذي..

وحيدي .. وحيدي .. ولدي .. إنني خائفة .. إحفظ وحيدي يا رب .

وعادت إلى نفسها .. وتساءلت ضمنـا .

لما هذا القلق ؟ .. وهذا الخوف ؟ .. أهو قلب الأم الذي يجسم الأمور ويحولها إلى أوهام .. ويتخوف منهـا وكأنها حقائق ؟ .. أم هي محطة خفية في العقل الباطن تلتقط رموز الأحداث قبل وقوعها .. ؟

ولم يدم قلقها طويلاً .. ها هو وسام يطل عليها بطلعتـه البهية ، ووجهه المشرق ، ممتطياً دابته القوية السوداء ومن أمامه ثوريه يقتحمان الدرب بهمة ونشاط ، وكأنهما لم يرافقا المحراث من طلوع الفجر حتى الغروب .. ولاقته إلى باحـة الدار . وكانت آمال قد سبقتها إلى هناك . وبدأت بمساعدته . وربطت أعطر وغقدور على معلفيهما .. وهو ربط الدابة بعد ان أنزل أغراضه عنها .

دنيا الفلاح

بدأ الدار يعج بموجوداته ، فيألف أجمل لوحة في صدر الطبيعة دنيا الفلاح .. فكر الله في إبداع هندسته ، وإبنها البار الذي يعطيها من قوته .. من زنده . . ويسقيها من عرق جبينه .. ويجمل وجهها بشامات حسان . . غابات وارفات الظلال ، وبساتين مزهرة .. ومروج واسعة خضراء .. وهي تبادله العطاء .

مواسم عامرة تملأ أهراءه بالغلال ..وتغمر قلبه بالطمأنينة والأمل .. هنا بقرتان سمراوتان ترنوان بانظارهما إلى فلويهما وفي أعينهما نداء الأمومة دفء من حنان .. وفي أضرعهما عطاء وعطاء . خيط دقيق من الحليب يسيل على الأرض ، فيجذب أنظار الفلوين نحوهما ، ومعدتيهما تردد نداء صامت ، يخرج من فمهما عجيج رتيب .

وهناك زريبة للغنم تجاورها زريبة أخرى للحملان .. هنا الأم .. وهناك الإبن .. هنا ثغاء .. وهناك نداء . وفي الجهة الاخرى خم للدجاج تتسابق اليه الحمراء والبيضاء والسوداء في صياح وقوقأة وشجار ، وبينهما ديك رزي أزرق يختال كملك متوج .

وبعد انتهاء وسام من تحضير العلف للجميع .

انشلح فوق المصطبة بجسده المكدود من عمل النهــار الطويل المضني . فاستقبلته الأرض بوجهها المدلوك الناعم .. ببرودتها القليلة المحببة التي سرت في أوصاله سريان الكهرباء في الأسلاك . ولطفت من غلواء دمه المتدفق في شرايينه حاراً كحرارة إيمانه بحبه لأرضه وندت عن صدره آهة خافتة تشوبها مسحة من الهدوء والاطمئنان .

خي .. الله يرحم الموتى ..

واقتربت والدته من المصطبة ودلو الحليب في يدها تعلوه بقايا رغوة تغيب حبيباتها رويداً رويداً مع الأبخرة المتصاعدة من السائل الطــازج ..

وسام .. وسام .. إنهــض عن الأرض يا ولدي .. إنك متعب .. سوف تأخذ برد وتمرض .

لا .. لا تخافي علي .. الجو حار .. أريد أن أبورد .

آمال ..

ماذا تريد ؟

خذي هذا الدلو وضعيه في مكان أمين بعيداً عن القطة ، واحضري البساط القديم من المربع ، ومديه تحت أخاك كي لا يأخذ برد .

ورددت في سرهــا .. إن الجاهل عدو نفسه . يا إلهي

أحرسه .. أحرسه .

وسام . إجلس يا روحي .. شقيقتك أحضرت لك البساط .

أف .. ما أتعبكن .. هكذا أنا مرتاح .. إزعاج .. دائماً إزعاج .. ونهض بنزق .

هه . قد جلسنا على البساط .. تفضلي .

كن هادئاً يا ولدي . إنني أريد صالحك .

وجلست بقربه .. ومررت أصابع يدها المعروقة بين خصلات شعره الخرنوبي بعطف وحنان .

*

ملحمة الحيـاة

أطل قمر نيسان بمسائه الرابع عشر ، متكئاً على أكتاف صنين ، وانشلح نوره متهالكاً على صفائح الثلج المتجمـدة في الأعالي . وانعكس لمعاناً بلورياً صافياً .. وتوهج الجبل الإله. وتلألأ نوراً مشعاً .

وانزلق النور رويداً رويداً نحو المنعطفات والوديان وطرد وحشة المساء .. ولف بسكنتنا بشال فضفاض من لهاث حار .. لهاث شوق أصعده قلب صب مشتاق للقاء حبيبته ..

ومن بين أغصان صنوبرة هرمة انسل متخفياً وراء أشجار التفاح والكرز ، ليرصد ملحمة الحياة .. ابنة الطبيعة البكر ، متجسدة بالسيدة رفقه ووحيدها وسام .

لماذا تأخرت إلى الآن يا ولدي . . لقـد شغل فكري عليك .

هه . هه . ها . تأخرت ؟ إنه العمل . وهل تنتظرين مني أن آتي إلى البيت قبل هذا الوقت ؟..

إن هيأتك تدل على جدية واهتمام ... خير إن شاء الله ؟.

خير ؟ .. لا يوجد إلا الخير .

وعدل جلسته قليلاً ..

إن العمل كثير يا أماه .. ونريد ألا يسبقنا الوقت .

قالها بثقة وروية ..

جاوبت نفسها ام وسام .

لكن ولدي .. صحة ولدي قبل العمل والرزق .. إذا مرض أو حدث له أي حادث . فماذا ينفعني الرزق والعمل .

وأمسكت دمعة صعدت من قلبها . . وكادت تنحدر من عينيها .

نعم إن العمل كثير .. لكن عمل اليوم لليوم وعمل الغد للغد .. وصحتك قبل كل شيء .

الحق معك يا اماه .. إن صحتي قبل كل شيء .. لكن أي خوف على صحتي من العمل .. إن الرب قد أعطاني القوة لأعمل .. وهذه إرادته (ستأكل خبزك بعرق جبينك أيها الإنسان) .

هذه حجة قليل الخواص الذي لا يحب العمل .. وأنا على قدر ما سيهبني ربي من قوة سأعمل .

اشتغل .. أنا لا اقول لك لا تشتغل .. لكن ساعة لك وساعة لربك .

لماذا لا تقولين اسبوع للكرم .. واسبوع للدوارة . . واسبوع للشعبي .. واسبوع للبستان .. واسبوع لله .

يا أماه .. إن الكرم يحتاج إلى الفلاحة والتقليم وكذلك البستان .. ونريد تحضير أرض المزروعات الصيفية .. ونريد .

قلت لك الحق بجانبك .. لكن يد واحدة لا تصفق ..

استأجر معك عامل .. عاملين ليساعداك .

استأجر ؟ .. وهل العطلة في أن استأجر .. ؟ وإذا استأجرت الفاعل فهل سأعطيه قلبي وفكري ورعايتي كي يهتم إلى الدالية والتفاحة والخوخة .. لا . قلب العامل ليس كقلب صاحب الزرع على زرعه .

حسناً .. حسناً يا روحي .. لكن اشفق على نفسك قليلاً .. وهل يكون العمل من الفجر الى النجر .

نحن اليوم في أوج عجقة العمل .. اذا لم نغدو باكراً مع الفجر . ونتأخر حتى المساء ، يذهب تعبنا سدى .. وتبور الأرض .

أف من الأرض .. أهي كل شيء في الحياة ؟ ..

وسرح وسام مع خياله .. وحلق في ارجاء البعيد .. وردد ضمناً :

الأرض .. الأرض .. نعم هي كل شيء في حياة الفلاح المزارع .. وانطلقت أفكاره على لسانه آيات وحكماً .

ان هذه الارض قد سقاها والدي من عرق جبينه ورواها من قطرات دماء قلبه الطاهر .. ان ابي قد أفنى جسده بها فأحياها ، وقدمها لي لقمة سائغة .. انها كانت قاحلة .. صخور جرداء .. وحولها من جرود وعرة المسالك الى جنات ذات زرع وضرع .

فبعد كل هذه التضحيات ، ايحق لي أن أدع تلك الحبات

اللؤلؤية من عرقه، تجف وتغـدو فحماً ؟ .. او أدع جسده الطاهر يفنى ويذبل بعـد ان قدمه لي قرباناً ومحرقات على مذبح نفسه الطاهرة؟.ابي الذي افنى نفسه بنفسي وأحياني.. ابي الذي ضحى بصحته .. بقوته .. وجعل مني فتى شديد العضل ..قوي البنية ..

وقطعت عليه والدته حبل افكاره .. لكنها كانت معجبة في سرها .. ولسان حالها يقول (ان هـذا الشبل من ذاك الأسد) .

الله يبقيك لي يا سندي .. نعم هذه طريقـة والدك في العمل .. ولكن ..

لكن ماذا ؟ .. دعيـني اكمل .

ان أبي قد سلمني رسالة حياة .. رسالة خلود .. رسالة استلمها من والده .ووالده استلمها من الآخرين ..والآخرون استلموها من اسلافهـم . ابي سلمني رسالة .. وانا هي تلك الرسالة .. وعلي ان اسلمهـا كما استلمتها صحيحـة من العيب ، سليمة من الشوائب .. علي ان اسلمهـا الى ابنائي الذين سيأتون من بعدي .

وضحكت رفقة ضحكة عميقة صدرت عن قلبها .

يا ايها الخبيث .. اتتكلم عن الاولاد ؟ .. ماذا ؟ ايوجد عندك مشروع زواج وتخفيه عني ؟

يا الله .. يا والدتي انت اين وانا اين ..

لا تقل اين ولا ما اين .. بما انك تتكلم بخصوص الأولاد

ستكون قد فكرت وحضرت العروس .. فمن هي هـــذه السعيدة الحظ يا ترى ؟ ..

معك حق..عندما يوجد تفكير في الأولاد توجد عروس أيضاً .. لكنني أتكلم عن المستقبل .. وفي المستقبل سيكون لكل حادث حديث .

حسناً .. أكمل فلسفتك .. ماذا يوجد عندك أيضاً ؟

هذه ليست فلسفة يا أمي .. هذا واقع .. فكل فلاح أو مزارع يحب أرضه يتكلم هكذا .

حسناً .. قلت لك حسناً .. كنا عند الأولاد .. فماذا يوجد بعدهم ؟

لقد عدنا الى المزاح.

ألانا أمزح ؟

وتبسمت .

انني لا أمزح .. أنا أتكلم جد .. أكمل يا سندي .

نعم ..انني سأكمل ولو استهزأت بي.

ان أبي قد علمني كيف سأحافظ على الأرض .. وعلي ان أعلم أولادي كيف سيحافظون عليها أيضاً .. ان الطريق امامي طويل .. صعب المسالك .. علي ان اجتازه بسلام.. علي ان لا أتهاون ولا أتخاذل .. علي ان لا أكبو ولا أعثر.. لأنني أخاف أن تحل علي اللعنة .. أخاف أن يقال هذا ابن الذل .. هذا ابن الهوان .. أخاف أن يقال انه وصمة عار في جبين الدهر .. أخاف ان يقال انه جبـــل العثار ..

ابتعدوا عنه .

لا سمح الله.. لا سمح الله أن يقال عنك هكذا يا حبيبي.. يا وحيدي الذي حملته في أحشائي تسعة أشهر .. يا من أرضعتك من ثديي .. وحنيت عليك .. وهززت سريرك وأنت طفل .. ودللتك وأنت فتى طري العودة.. ورعيتك وأنت شاب .. يا ريحانة قلب والدتك .

انني قد زرعت فيك بذور الصلاح والايمان بالله .. وأنت بهجة آمالي يا رجل المستقبل ويا درع الوطن ..

وأحس وسام بقشعريرة ناعمة تسري في أوصاله.. وبموجة من حنان تغمر كيانه .. كيف لا ودفق في فيض المحبة الأمومي ينزل عليه برداً وسلاماً .

نعم كان جسد والدته ملتصقاً به. لكنه لم يكتف بذلك، بل أحب أن يغرف من عبير عاطفتها ما استطاع .. ودفن رأسه في صدرها .. وتمنى لو يتوقف الكون عن حركته .. وان تسجد الطبيعة في محراب الزمن .. وتنصت صاغية إلى إيقاع السمفونية الخالدة .. الأبدية .. الأزلية .. على ناي الشعلة الالهية .. قلب الأم .

ولم تكن والدته أقل منه نشوة .. وغمرته بحضنها .. وأعطته من فؤادها الى آخر حدود العطاء .. وأكملت كلامها وكأنه وحي ملهم .

سندي وسام .. بكلامك الموزون قد أدخلت السلام الى قلبي .. وأرحت ضميري .. الآن اذا رقدت رقدتي الأخيرة

أكون مطمئنة النفس .. مرتاحة البال .. أغفو وفي خلدي أمل .. وأصحو وفي عيني نور .. أطبق جفـــني على رسم تجلت فيه دلائل القوة .. دلائل العزم والنشاط .. وافتحها لأجد أملي في هذه الحياة .. رجائي في الآخرة .. لاجدك يا ولدي .. أنت الابن البار وقد تكلل جبينك بأكليــل المجد..أكليل حبكته يد الانسانية بخيوط من نور المعرفة.. وأضاءت خلايا نفسك المظلمة .. وجعلت منك رجلاحصيفاً . شديد الانتباه..يدخل الى الحياة وقد تسلح بسلاح التفكير.. والتصميم .. والعمل ..

أمي .. أمي ..

وأراد وسام أن يقاطع هذا الوحي المنزل..ولم يستطع.. وكانت قوة هائـــلة غير منظورة تضغط على شيء مجهول في نفسه .. وأراد البكاء .. وحاول مراراً .. لكنه لم يجد اليه سبيلا .

لا .. لا تقاطعني .

ووضعت يدها على فمه برفق وحنان .

وسام .. سر في طريق النجاح والتقدم .. وابتعـــد عن كل مسببات الرسوب في هذه الحياة التي ما ان تعطيك باقلال حتى تأخذ منك بشراهة ونهـم .

– ابتعد عن النساء الشريرات .. لأنهن علة العلل .

– ابتعد عن معاقرة الخمرة .. لأنها تبلبـــل أفكارك ، فتكبو عندما لا تريد .

– ابتعد عن المقامرة .. لانها تنحـــدر بك إلى الدرك الأسفل .. إلى الانحطاط .. إلى الرذيلة .. وإذا انحـدرت الى تلك المهاوي هناك الطامة الكبرى .. لأنك تفقد كل شيء يدعونه قيم اخلاقية ..فتسير الى مطامحك على أنقاض نفسك.. وتحقق آمالك على حطام قلبك .. تشعر باللذة والارتيـــاح مغذياً جسدك بفتات نفسك المريضة .. لكنك تكون قد هدمت حياتك بمعول النقائص والرذائل .. فتسير وتسير إلى القبر بخطى حثيثة .. ساعتئذ ستندم عندما لا تجديك ساعة ندم .. وتعي حقيقتك المرة .. لكن بعـد فوات الأوان .

إنك الآن كأشجار الربيع باثقا كالدوح .. فالأشجار ان لم تتعهدها بالتقليم والرش الدائم .. تحصل في نهاية الموسم على إنتاج فاسد..الاثمار ينخرها الدود والأشجار تمرض جذورها، وتؤكل جذوعها ، وتيبس فروعها .

هكذا حياتك يا بني .. فان لم تتعدها بالأعمال الصالحـة ، وتجعل عقلك رادعاً لشهواتك وتغذي جسدك الغذاء الجيد .. فانك تسير الى النهاية المحتمة . ألا وهي الموت العاجل .

استوى وسام في جلسته .. واستقبلت نفسه الوادعـــة نصائح والدته كما تستقبل الأرض العطشى وابل المطر . وردد كلماتها في سره مراراً .. وفاض نور المعرفة على لسانه تمائم شكر ومديح .

امي ..

وأخذ نفساً طويلاً .

إن كلامك وحي إلهي ..نور رباني أضاء أمامي السبيل . ونصائحك تمائم تقيني مصائب الدهر وحدثانه .. كنت أعمى فأبصرت .. وضالاً فاهتديت .. كنت تائهاً في مهامه الحياة وفلواتها خلو من أي سلاح ادافع به عن نفسي ..

أما الآن فقد وجدتك يا اماه .. وبوجودك قد وجدت ذاتي ايضاً .. وجدت نفسي الضالة .. نفسي الشريدة .. إنني أقول وجدتك وأنت معي منذ البداية .. لأن غشاوة الجهل وعماء البصيرة قد وضعتا بيني وبينك سداً منيعاً .. وحجبتا عني الحقيقة .. وأنت هي الحقيقة . لأن من عرف الحقيقة كان الحقيقة نفسها .

إنك ينبوع المعرفة .. تسيرين في جدول السعادة بين حقول الامل ، فتروي بمائك العذب صحارى عقول جففها الجهل .. وتعيدين البهجة والسرور إلى قلوب عضها الدهر بناب الأسى .. وتحيي الرجاء بنفوس فقدت الثقة برحمة باريها .. وتعيدين الخراف التائهة في مغاور الحياة ومجاهلها إلى حظيرة الامان ..

اماه .. انت المنارة الساطعة فوق قمة الجبل .. ونورك ينقذ الذين تاهوا في اوقيانس المخاطر ويهديهم الى بر الطمأنينة والسلام .

أنت ..

وكانت آمال قد حضرت صينية العشاء . ونادت والدتها . ونادت وسام .

ونهضت رفقه ..

كفى .. كفى .. يا سندي .. لا فض فوك . إنهض لنأكل ، واتكل على ربك في جميع أعمالك .. وهو يهديك البركة .. ويحفظك ..

معارك .. ومملكة

لبست القرية حلة سوداء داكنة ، حاكها الليل من تنهداته الطويلة ، وصبغها بدم فؤاده الجريح الذي طعنه النهار بحربة من نور نفذت منه الى الصميم .

ان الليل في حرب دائمة مع النهار والنصر بينهما سجال ، لأنهما ملكان جباران .. مملكتهما الطبيعة الخالدة ..وعرشهما القدر .. وجيشهما الزمن .

نعم ان عروسهما الطبيعة .. وعندما يستأثر بها أحدهما بعد معركة طاحنة تستنفد جميع قواه ، يعود الآخر ويجمع شتات جيشه المهزوم .. وينقض على خصمه على حين غفلة منه . وتنشب بينهما من جديد معركة دامية تكتب فيها الغلبة للمتفوق الواثب .

ويبقيا هكذا دواليك حتى انقضاء الزمن .. إذا كان للزمن انقضاء ونهاية ..

ومع تطاحن هاتين القوتين الهائلتين . ومع انسلال خيوط الفجر الاولى ، مشت القرية زاحفة إلى الحقول والبساتين ، ورائدها العمل .. ومبتغاها الإنتاج الوفير .

وبين هذه الجموع المتدفقة كان وسام جابر في الطليعة ،

يستقبل نسيم الصبح العليل بصدره الرحب .

وبوصوله إلى الكرم في محلة (المحروقة) أطلت الشمس من وراء صنين .. فكانت وإياه ، وكأنهما على موعـد ، ولامست بنورها الوهاج شعره الخرنوبي الأجعد . فبدأ كأنه تاج من الذهب مركب على هام جميلة صنعتهـا يد الخالق وأبدعت في صنها .

الجبهة عريضة واسعة .. والحاجبان. كأنهما سيفان محنيان، تفصل بينهما فرجة صغيرة يبتدىء منها أنف مستقيم الأرنبة ، معتدل الحجم .. تحيط به عينـان عسليتان تشع منهما قوة الذكاء والمعرفة . له شارب أعكف . قاني الشفتين . جميل الذقن . مربوع القامة .

وكان بجسده المتناسق التركيب مثالاً للقوة والجمال .. وكانت نفسه البكر لا تقل جمالاً عن جسده .. جمال استمده من محيط القرية العامرة بالتقوى والفضيـلة ، العابق بشذى أعمال والديه الدالة على الخير والصلاح .واظب على العمـل بهمة ونشاط .. وأعمل مقصـه في الدوالي مشذباً ومقلماً ، قاطعاً الفروع الفاسدة والقديمة ليحصل في المستقبل على دالية سليمة من كل عيب ..لأن الفرع الفاسد تمتد عدواه الى الفروع السليمة فتصاب بالمرض ، ويتوقف نموها .. وهناك الطامة الكبرى عندما يستفحل الفساد ويتعذر تلافيه .

وداوم على عمله هذا حتى انتصاب الغزالة في قبة الفضاء.

وكان الجوع قد فعل فعله في معدته الخاوية .. والحر والتعب قد أخذا منه كل مأخذ . فجلس على صخرة عجوز .. ومسح بكلتا يديه ما تصبب على جبينه من عرق .

وبينا هو كذلك ، إذا بصوت يناديه كأنه نغمة القيثار .

وسام .. أخي وسام .

واتجه نحو الصوت متخطياً الجلول المعلقة فوق بعضهـــا كأنها درج يوصل إلى السماء .

وشاهدته أمال .. وقالت له .

وسام .. سلة الأكل هنا على المصطبة .. قرب القبو تحت الشبوق الكبير .. أنا ذاهبة إلى العين لأملأ الأبريق .

حسناً .. اذهبي .. لكن لا تتأخري كثيراً .. إنني جائع .

واتجهت أمال نحو عين سين القريبة التي تقـــع شرقي القبو (كوخ صغير) على طريق ضيقة تغفو بين شجيرات الدفران .. وتبدو من البعيد وكأنها شريان يخترق قلب التلة التي ترقد على أقدامها العين .

ووصل وسام إلى المصطبة .. وجال بنظره باحثاً عن سلة الأكل .. ووجدها . . وأفرغ محتوياتها على بساط سندسي من العشب الأخضر الموشى بأزهار البابونج الزكية الرائحـــة ، وأزهار الاقحوان .. وشقائق النعمان .

وكان بقربه حوض للأزهار الصيفية ، فيه عدة نبتاب من الأنطريون .. وبعض أزهار برية أخرى .. يظلله شبوق كبير

متفرع الأغصان (شجرة سنديان) ترقص على أفنانه أجواق الحساسين .

وعادت أمال تميس بقدها تيهاً ، حاملة بيدهـــا ضمة من حشائش الحقل المتنوعة .. نخو بعبو .. قرص عني .. حبلبوب. وفي اليد الأخرى إبريق ماء عذب.. وفي رأسها آلاف الآمال والأحلام . وجلسا يأكلان بشهية وإقبال .. وجرى حديث شيق قبل ذلك .

ماذا أحضرت لنا اليوم في هذه الزوادة يا أمال ؟

أحضرت لك ؟ افتح الصرة وانظر .

حسناً .. سأفتحها .. لكنني سأعرف ما يوجد بداخلهـــا قبل ذلك .

وقرّب أنفه من صرة الأكل .

حزرت . نعم حزرت .. تين مطبوخ .

نعم .

وعجي .. ولبني .. وزيتون .. أليس كذلك ؟

نعم . حزرت .. ولكن كيف عرفت . . هل أنت مبصر ؟

طبعاً ..

لا .. إنك لا تقول الحق .. لقـــد فتحت الصرة في غيابي .

لا .. أبداً .

على كل حال حزرت .. وهل يوجد اليـــوم أطيب من حشائش الحقل مع الزيتون ؟

لا ..

وضحك متهكماً .

هذه زوادة الفلاحين القليلي الحظ مثلنا .. لكنها ..

وضحك ثانية .

ما هي قيمة زوادتنا إذا قارناها مع زاد المحظوظين الذين يأتون بقصد الترويح عن النفس . فراريج .. كاتو .. معمول. جدي مذبوح . عرق . وسكي .

لا يا وسام .. لا تغلط.. إن أكلنا صحي أكثر من أكلهم بكثير . هؤلاء يأتون إلى ربوعنا مرة أو مرتين في العام بقصد النزهة وشم الهواء . بينما نحن نرافق طبيعتنـــا الحلوة في كل صباح ومساء .. هم يهربون من شغل المدينة وضجيجها .. من الجلوس الدائم على الكراسي والأرائك .

لا تغلطي يا أمال ..وهل الجلوس على الكراسي والأرائك يهرب منه ؟.. أهو دق بالمعول ؟ .. أم صراع مع الصخور والمهدة في يدك طول النهار ..

إن كلامك صحيح .. لكن كثرة الرياحـــة تعوّد على الكسل .. والخمول .. وتضعف الجسم .. بينما العمل يجوهره.

أكملي أكلك وكفى فلسفة وهزاراً .

لقد رأيت منك العجب .. انك تدعي عدم صلاحيـــة

طعامنا .. وأراك قد أكلت ثلاثة أرغفة ،وأتيت على محتويات الزوادة بأكملها .. وشربت ابريق الماء شربتين .

أظنك قد تمثلته قلة عرق .. أليس كذلك ؟

وضحكت .

حقاً أنت عفريتة .. أتحسدينني على الأكل والشرب أيضاً؟

لا .. أنا لا أحسدك .. أحمل مدني أفضل .

يجوز .. من يدري .

وقلب شفتيه بتهكم وسخرية .. ونهض .. وقال .

انهضي .. إن العمل أفضل من الجدل الفارغ .

حسناً .. سأنهض .

وقامت .. ولملمت حوائجها .. وكسرت بقايا الخبز .. وذرتها في الهواء .. ونادت العصافير بصوتها الشجي ..ودعتها إلى الوليمة .. وكلمت وسام .

أنا ذاهبة أتريد أن أبقى معك .

إلى أين ؟

أريد أن أسلق .

الآن ليس وقت السليق .. تعالي واجمعي ما أقطعه من أغصان الكرمة .. ودعي السليق إلى المساء .

حسناً .. مثلما تريد .. أين أصبحت في تقليم الكرم ؟

إنني الآن في جل الشعبي .. وأظنني أحتاج إلى يومين أو أكثر لأنتهي .

وانطلق الاثنان نحـو العمل وثامرا الدوالي .. وأنشدا مواويل العتابا وأبو الزلف .

وكان في كرم قريب منهما شاب قوي نشيط ، يشاركهما العمل والغناء .

إنه عفيف تامر .

ومع الغروب عادا إلى البيت . . واستقبلهما ابو وسام بوجهه الباش .

أهلاً وسام .. أهلاً أمال . عافاكما الله يا ولدي .

الله يعافيك ، ويبقيك سنداً لنا أبد الدهر .

وسام كيف الكرم ؟ كيف حفافيه ؟

إنه جيد يا أبي .. وحفافيه يوجد بهـا بعض الانهيار .. لكن ليس كبقية السنين .. حائط الدوارة انهار قسم قليـل منه .. وغيره حائطان أو ثلاثة وقعت منهم بعض الأحجار . وأظنها بحاجة إلى يومي عمل على ما أظن .

حسناً .. قبلما تجلس ، اسأل والدتك إذا كانت تحتاج إلى أي شيء من السوق .. وأحضر لي علبة تنباك معك .. بيت عمك أبو عفيف قادمين ليسهروا عندنا الليلة . ونادى زوجته .

رفقه .. رفقه .. أين أنت ؟..

وردت عليه زوجته من المربع الآخر .

إنني هنا .. ماذا تريد ؟ ..

وكانت ام وسام برفقة مغزلها تجدل على عرناسه خيـوط آمال وأحلام لا يعلم باطنها إلا الله .

تعالي .. إنني هنا في انتظارك .

نعم ها أنا آتية .. خير إنشاء الله ؟

لا يوجد إلا الخير ..

وابتسم ابتسامة ذات معنى .. وعاد بذاكرته إلى الماضي البعيد .. إلى يوم ذهب والده ليخطبها له .

إنك تبدو شديد الاهتمام .. خير ؟ .. أيوجد شيء يزعجك ؟

نعم يوجد .

وصمت هنيهة مفكراً .

يوجد .. يوجد ..

كررتها بلهفة .

وماذا يوجد ؟.. لقد شوشت أفكاري .

سأقول لك .. لما الاستعجال ؟ ..

يوجد .. وملبوك .. ولما الاستعجال . . قل .. قل . . لقد حطمت أعصابي .

حك السيد نديم برأسه وأردف .

إنني لا أدري .. الأمر هين وصعب .

وضح .. وضح يا نديم .. إن عملك وتصرفك يذهلان العقل . كيف الأمر هين وصعب ؟ .. ماذا دهاك ؟ .أتتكتم علي ؟ ..

أتكتم عليك ؟ .. ولماذا ؟ .. لقد ناديتك لأستشيرك بالأمر .

اف .. ما أطول بالك .. أفصح .. وضـــح ..

هدئي روعك .. إجلسي هنا .

وأفسح لها مكاناً بقربه .

ها أنا قد جلست .. الظاهر ان الأمر جلل .

مثلما قلت .. إن الأمر مهم جداً .. يتعلق بنا جميعاً .

قل .. عجل ..

وظهرت اللهفة على وجه ام وسام ..

إن السبب جميل تامر قد فاتحني بخصوص خطبـــة أمال لعفيف.

فما رأيك في الموضوع ؟

وارتبكت السيدة رفقة .. وثبتت نظرها في زوجهـــا وكأنها فوجئت .. لكن هذا ما كانت تنتظره ..وهذا أملها منذ سنوات .. وقالت على فرحة مكبوتة .

في وجودك أنحن لنا رأي ؟ .. إن الأمر الذي تلاقيـه صواب أعمل به .

أتعنين انك موافقة .. أليس كذلك ؟ .. وما هو رأي أمال يا ترى ؟ ..

أمال ؟ .. لست أدري .. لكن ..

وكبتت كلاماً أرادت أن تفصح عنه ، لكنهـــا فضلت الصمت .

لكن ماذا ؟ .. أيوجد أي أمر تخفيه عني ؟

لا سمح الله أن أخفي عنك أي شيء .. في طوال هـذه المدة التي قضيتها معك ، هل لاحظت انني أخفيت عنك أمراً ما ؟ .. لكن .. لاحظت .. وسكتت أيضاً .

وماذا لاحظت .. إفصحي .. تكلمي ..

لقد لاحظت ان أمال وعفيف يحبان بعضهما منـــذ مدة بعيدة ،وكلما تسنح لهما الفرصة يتبادلان نظرات هوى وكلمات ود .. لكن ضمن الآداب طبعاً .. ومثلما تعلم ، ان هـــذه الأمور لا تخفى على ام مجربة .

على ام مجربة ؟ أم على..

وغمز بعينه وأكمل ..

أم على حبيبة ؟ ..

تنور وجه ام وسام .. وصعد الدم قانياً إلى وجنتيها .. وشعرت بنشوة ابنة العشرين تسري في أوصالها .. وقلبهـــا يرتعش رعشات الهوى والغرام .. لكنهـــا عادت وألبست وجهها قناع الجد وقالت .

إن هذا الوقت ليس وقت مزاح .

حسناً .. الآن وقت ماذا إذن ؟ ..

وقهقه ضاحكاً ..

إن هذا لكفاية .. كفى ضحكاً وهزاراً ..

وعبست . وبرطمت ..

حسناً .. حسناً لا تغضبي .. نادي أمال لنأخذ رأيها ..

ناديها أنت .. أنا لا أعرف .
ماذا ؟.. هل أخذت القصة من جد ؟.. الآن ليس وقتها.
وضحك ثانية .
إنني أعرفك .. أنت كل عمرك تأخذ القضايا بالمزح .
اضحك .. اضحك..الدنيا بسمة .. ماذا سنأخذ معنا ؟.
لست أدري .. لست أدري ..
قالتها بنزق وصمتت هنيهة .. وفكرت .. ثم أردفت ..
ووسام .. هل علم بالموضوع ؟.
الحمد لله على رضاك .. نعم قد علم .. ووافق أيضاً ..
نادي أمال .
أمال .. أمال .. أين أنت .. تعالي إلى هنا . إن والدك بحاجة إليك .
نعم ها أنا .. ماذا تريدان ؟ ..
أتيت ؟ تعالي .. إجلسي هنا .
وأفسحت لها مكاناً بقربها .
خير إن شاء الله ؟ .. ماذا في الأمر ؟ .
اجلسي .. اجلسي .. يوجد قضية هامة نريد أن نأخذ رأيك بها .
ها قد جلست .. خير ؟ ..
وغمز أبو وسام زوجته ..اسأليها .. وردت عليه بعينيه أيضاً .. اسألها أنت .
أنت .. أنت .. أنت .. أنت .

وتحيرت أمال .

ما بالهما يا ترى ؟

ووقعت القرعة على الوالدة لأنها تعرف عقلية الابنة بالسليقة .

أمال .. وكانت أمال بكليتها آذان صاغية .

يا بنيتي .. لقد فاتح عمك جميل تامر والدك بخصوص خطبتك لولده عفيف.. واحببنا أن نأخذ رأيك في الموضوع قبل أن نرد عليه خبر .

وجمت آمال وزغردت الفرحة في فؤادها .. وسكتت خفراً وحياء .

ماذا دهاك ؟.. لماذا لا تردي ؟ ..

ونطقت عروس المستقبل بتأتأة وتردد .

الرأي رأيكما .. والثوب الذي ستفصلانه ألبسه ..

أتعنين إنك موافقة .. أليس كذلك ؟..

لقد قلت مثلما تريدان .

مثلما نريد ؟ حسناً .. لكن لسنا نحن من نبغي الزواج .

إننا سنبدي لك رأينا في الموضوع ، ونرشدك إلى طريق الخير .. والشر . وعليك أن تختاري بين الطرفين .. إن هذا شيء يتعلق بحياتك الخاصة .. ونحن لا دخل لنا بها ..

أتوافق على ما قلت يا أبا وسام ؟ ..

واتجهت نحو زوجها تستشهده على صحة قولها .

نعم ..حقاً ما نطقت .. إننا قد قمنا بواجبنا نحوك على قدر المستطاع .. وربيناك إلى أن أصبحت صبية . وعلمناك . وهذبناك ..

هذه هي حال الدنيا يا بنيتي .

وربت على كتفها .. واستطرد ..

إن الزواج سر إلهي اوجد لتجدد الطبيعة نفسها بنفسها .

أنا في وجودك يا أبي ليس لي قول .. لأنك نور أضاء ظلام حياتي ليهـديني سواء السبيل .. وامي .. امي الحبيبة التي أرضعتني سر الإخلاص والمحبة .. ورافقتني بنصائحها إلى إن أصبحت في هذا العمر .. هل يعقل أن تقدما على أي عمل قد يضر في مصلحـتي ، ويعكر صفو عيشكما الهني ؟ .. لا .. أعملا الذي تريا فيه الخير .

أمال ..

نطقت ام وسام والوقار يجلل كلمتها .

أنت اليوم صبية ، وعن قريب ستنتقلين من حياة البنوة في بيت أهلك ،إلى حياة الزوجية في بيت غريب عن جوك.. غريب عن حياة بيتية يرعاها حنـان الأم وعطف الأب .. إنك ستستعيضين عنا بأهل زوجك ، لأنهما سيصبحا والديك . لذا يجب ان تعامليها بنفس معاملتك لنا .. ويجب أن تعيشي مع زوجك عيشة الزوجة الوفية التي ترافق شريك حياتها في السراء والضراء .. وتتعاون وإياه على الدهر ..

نعم يا اماه ..

دعيني أكمل .. لا يجوز أن تندفعي مع تيار الزواج مثل كل الفتيـــات الجاهلات ..لأن الزواج ليس لعبة نتلهى بها. انني اوضح لك هذه الأشياء ، ومصلحتك نصب عيـــني .. الزواج يا ابنتي طريق طويلة مملوءة بأشواك الحيـاة ومشاكل المجتمع .. الزواج شركة .. شركة أبدية ، لا يفصم عراهـا إلا الموت ، قبـل أن يكون نزوات عابرة .. وإذا لم يكن طرفا الشركة متفاهمين ، هناك المصيبة الكبرى .. لأن كل مشكلة يكون سلاحها الأنانية وحب الذات تكون نتيجتهـا الحقد الدائم ، وحب السيطرة من أحد الطرفين ..

يا أماه .. ان كلامك حكم سأحفظها ما حييت . . وأنت وابي ستكونان مثلي الأعلى بكل أعمالي .

لا تقاطعينني .. دعيني اكمل .. إن الذي يعرفه الكبير لا يعرفه الصغير .. يجب على كل فتاة تدخل إلى محراب الحياة الزوجية أن تتحلى بسلاح الصبر والتروي ..يجب أن لا تقاوم بعلها إذا أبدى أي نفور أو جدال .. يجب ان تظهر له دائماً العطف واللين..وأن تلاقيه إذا كان خارج البيت بوجه باش ضاحك. لأن مشاكل العمل تشوش أفكاره في بعض الأحيان.. وإذا لاقته الزوجة بوجه عابس تزيد اموره تعقيداً .. ويصبح ميالاً إلى القتال .. لكن إذا لاقته بوجه ضاحك ..وتأهيل . وترحيب .. فإنها تدخل السرور الى قلبه .. وتدفن جميع

مشاكله اليومية في أحضان عطفها وحنانها .. لأن الرجل مثل الطفل في بعض الأحيان .. إنه يحتاج الى العطف والحنان ، أكثر مما يحتاج الى الوفاء والإخلاص والمحبة .

كانت آمال تستمع الى نصائح والدتها وفي خلدها ثقة واطمئنان .. ثم شرود لتندمج مع عفيف بجوه المرح ، وسر حالها يقول .. إنني لك يا حبيبي بكل ما أملك من محبة وإخلاص . قلبي . تفكيري . عملي . شعاري . أملي الأبدي في هذه الحياة . كلمات موسيقية فعلت بقلبها الكبير فعل الخمرة المعتقة ، وقيدته بسلاسل الوفاء حتى الأزل .

وأخرجتها والدتها من شرودها .. وضمتها الى صدرها .. ومررت يدها فوق جبينها . وقبلتها .. وغلت آمال بعبها . وغرفت من بحر حنانها ما طاب لها .

أمال .. ابنتي ..

قالتها السيدة رفقة بتؤدة وسكينة .

أنت أساس يبنى على كاهلك الوطن .. يجب أن تكون جميع أعمالك محمودة .. ومزاياك حسنة .. يجب أن تقومي بجميع واجباتك بتفهم وروية نحو بيتك وزوجك .. في علاقتك مع أقاربك ومعارفك .. مع أولادك .. كي تقدمي الى الوطن رجال أعمال غايتهم التقدم والازدهار في مضمار الرقي والعمران .

إن المرأة التي تجهل ما عليها من واجبات ومسؤوليات .. المستهترة بتربية أطفالها .. التي تتشاجر دائماً مع زوجها .. تحل عليها اللعنة .. يقال عنها ليتها لم تولد .. لأنها تكون قد قدمت الى الوطن رجالاً مخنثين .. زرعت في نفوسهم بذور الشر والفساد منذ نعومة أظفارهم .. عالة على المجتمع .. يهدمون بأعمالهم المنحرفة كل ما بنته أيادي أجدادهم الصالحين. يخرجون قتلة .. سفاكين .. يشير اليهم الناس بالأصابع ويقولون ..

هؤلاء اولاد تلك المستهترة . أولاد تلك الجرثومة القذرة . ابتعدوا عنهم .

تابعت أمال بقية الحديث ، وقلبها يرقص طرباً .. ها حلمها قد تحقق .. وفارس أحلامها سيطلب يدها . . وردت على والدتها بثقة وروية . . كأن هذا الأمر لا يعنيها ..

امي .. أبي .. لقد رعيتماني الى أن أصبحت شابة .. وزودتماني زاد بركة ووفاء وزرعتما في نفسي بذور أعمالكما الصالحة .. انكما مدرسة الحياة وقد لقنتماني درساً لن أنساه ما حييت ..

علمتماني التضحية والتسامح .. ودربتماني على الوفاء والاخلاص .

.. أنتما مثال الزوجين التي خلقت الحياة لهما كي يعيشا بها

عيشة هانئة .. سعيدة .. تظللها سحابة الرفاه والطمأنينة .. لا عليكما انني سأسير على طريق رسمتها يد القدر بألوان عصارة نفسيكما الطاهرتين ..

وأجابتها والدتها .

حسناً ما قلت يا بنيتي . . انك وأخاك وديعتنا في هذه الحياة . . . ليباركِكما الله ويهديكما سواء السبيل ..

خطبة أمـــال

أمال . . إنني أسمع قرعاً على الباب .. لعل وسام قد أتى .

وأنا قد سمعت ايضاً .

انهضي يا أمال .. وانظري من الطارق . ونهضت أمـــال وفتحت الباب .

أهلا عمي جميل .. لقد شرفت الدار بقدومك . . أهلاً خالتي ام عفيف .. تفضلوا ..

اهلا بك يا بنيتي .. مساء الخير .. هل والدك هنا ؟

نعم تفضل ..

من ؟ .. ابو عفيف .. اهلا وسهلا .. شرفتوا .

ووقف ابو وسام •• وأخذ السيد جميل بالأحضان •• وأجلسه على جلد وثير قرب النار •• ودخلت ام عفيف •• واستقبلتهما السيدة رفقة بالترحاب •• وكان لوم ••وكان عتاب ••

لماذا طولتي غيبتك علينا يا ام عفيف ؟ •

وتنحنحت السيدة سامية •• وأجابت ••

حقاً لقد طالت غيبتنا •• لكنكـــم دائماً بالفكر ••

وعلى قول المثل « ان للظروف أحكام) واليوم أيام ربيع .. وأنت أدرى بكثرة العمل .

اف من العمل يا اختـــاه .. ان العمر ينتهي والشغل لا ينتهي .

مثلما قلت .. اف من هذا العمر .. ركض و كد .. وخبزنا كفاة يومنا .. لكن ما العمل .. خلقنا لنشتغل .. ان عفيفاً لا يستطيع الوقوف على قدميـــه .. ركض وركض .. من الصبح حتى المساء .. رش ، وتقليم .. وفلاحـة ..

إن المسطرة عندنا ... هكـــذا حالة وسام .. بالأمس تجادلت معـه طويلا .. وقلت له اشفق على نفسك .. إنك ستمرض .. ولكن من تكلمين .. إن غرامه بالأرض والعمل أقوى من غرام قيس بليلى .

يا ليته يتزوج .

يتزوج .. آه .. وألف آه .. عندما فاتحناه بهذا الموضوع أوجد لنا ألف عذر وعذر .. العمل الأرض .. البساتين .. الكروم ..

وابتسمت ام عفيف .. وأرادت أن تنطـق .. ووقفت الكلمة بين شفتيها .. وجاوبت نفسها .

لا .. لم يحـن الوقت . . فالأدع أبا عفيف يفاتحهـم بالأمر .

واتجهت نحو زوجها .. وتنحنحت .. ولم ينتبه لهـــا أول الأمر لأنه كان منهمكاً مع أبي وسام بحديث متنوع ..

وأعادت الكرة .. واتجه نحوها .. وكانت عيناها تقولان له .. تكلم .. ورد عليها بنفس طريقتها .. رويدك .. لم العجلة ؟

ودخل وسام بوجهه الباش .. ووضع ما كان يحمله على طاولة صغيرة كانت بقربه .. وسلم على أبي عفيف واقترب من السيدة سامية .. وأراد أن يقبل يدها .. ومانعته .. وقبلته في جبينه .. وتأهل بهما .

وأفسح له السيد جميل مكاناً قرب النار .

تعال يا وسام .. اجلس بقربي .. لعلك بردان .

لا .. إن الطقس دافىء ..

حقاً .. ان المثل يقول (برد الكوانين تلقاه ، وبرد التشارين توقاه) .

وأيضاً انت شاب .. والشاب لا يبرد .. يا حسرتي علينا أنا ووالدك ..

البركة فيك يا عمي جميل .. الله يباركك بالذهب العتيق .

جبر الخواطر على الله يا ولدي .

ولوح بيده .

إن الذي مضى قد مضى .. الدنيا لكم أنتم .. الشباب .

كان عقد الحضور مكتملا ، لا ينقصه سوى حبة واحدة ..

وكانت تلك الحبة الأبنة المدللة .. عروس المستقبل .

انها الآن في المربع الآخر ، تعيش فرحتها التي ترقبت حلولها بأناة وصبر .. دقائق رافقتها والحياء والخوف يغمرانها ..

حياء من حب يعيش في قلبها .. وخوف من أمل ترقبته منذ سنين خلت .. وكان في خلدها تساؤل .. لِمَ الرهبة؟.. لِمَ الخوف والحياء ؟ تشجعي يا أمال .. إنك من السعادة على قاب قوسين ..

ورجعت الى نفسها •• وتذكرت رفيقاتها اللواتي خطبن قبلها •• وتساءلت ثانية ألم يتصنعن الخوف والحياء تصنعاً ؟ ••

وكان جواب ••

بلى ••

وأرادت أن تظهر بمظهر الشجاعة •• وأن تخلق من ضعفها قوة •• لكن بقي الخوف قابضاً على فؤادها •• واعتصره عصراً •• كأن المجهول أراد أن لا تكتمل فرحتها •• فحرك في عقلها الباطن اموراً خفية لا يعلم نتائجها إلا الله • وحوّل سعادتها الى حزن دفين لا تعلم مصدره •• وبدأت تتلهى بأمور جانبية لتموه عن افكارها •• وكانت احداث تدور حول موضوع خطبتها •• ألم تقل لها والدتها لا تظهري أمام خاطبيك ، قبل أن تناديك مثنى وثلاث •• وذلك لتزيدي في نظرهم إجلالاً وإكباراً ؟ ••

ومهى •• ابنة جيرانهم كيف لاكت تصرفاتها الألسن

وقت خطبتها .. لم تأبه للحضـــور .. طق عرق الحياء في عينها .. لم تصدق بانها ستجد عريساً .

وكان انفراد العروس ساعة خطبتها عادة سارية في جميع القرى ، والويل للتي تحيد عن الناموس قيد انملة .

تفاعلت الافكار في رأسها الصغير .. واندمجت مع عاطفة جياشة ومع سعادة فائقة.. وظهرت على محياها حمرةمزهوهرة مشبعة بنقاوة شفافة..وبدت كماسة وهاجة يعرف ما بداخلها بمجرد النظر اليها ..

تنحنح ابو عفيف واستوى في جلسته..وعدل نربيش النرجيلة في يده .. وحوحى .. وقرب اليد الأخرى من الموقـــد .. واتجه بنظره نحو السيد نديم .. وقال .

أخي . أبا وسام . نحن اقرباء . وجيران . والجار موصى بالجار مثلما تعلم .

خير انشاء الله ؟.. كلنا تحت تصرفك يا ابا عفيف .

لا شيء إلا الخير .. هناك أمر ما اريد أناطلعك عليه.. لكن خوفي من الخذلان يمنعني عن ذلك .

لا .. لا سمح الله ان نخذلـك .. أرواحنا في متنـــاول يديك ..

لا .. لم تصل الحالة بيننا الى هذا الحد .. لكننا نريد أن نقوي أواصر القربى بيننا .. عن طريق .. وسكت .

تجاهل السيد نديم ما يرمي إليه ابو عفيف ، مع علمه بمـا

يريد مسبقاً واجاب .

وضح .. قل .. ماذا تريد ؟..

صمت ابو عفيف قليلا ، ليستشف ما بضمير محدثه .. واردف .

ان ولدنا عفيف معجب بابنتكم آمال .. ويريد التقرب منكم .. ونحن اتينا لنأخذ رأيكم في الموضوع .

بعد تفكير وجيز أيضاً اجاب السيد نديم .

الله يقدم الذي فيه الخير .. والنصيب فوق الجميع .. إذا ..

وسكت ليركز افكاره ، كي لا يأتي رده مشوشاً ، وتكلمت ام عفيف .

يا اخي .. ان كلمة «اذا» لا توضح الأمر .. اننا نريد أن نعلم .. نعم او لا .. أليس كذلك يا ام وسام .

ان شاء الله خير .. وهو يعلم ما في القلوب .

وتكلم السيد جميل .

اننا نبغي همتك يا أم وسام .

وتكلم السيد نديم .

لا تستعجل الأمر يا ابا عفيف .. دع لنا بعض الوقت ، لنشاور أمال ونأخذ رأيها في الموضوع .

حسناً .. مثلما تريدون .

وتكلمت السيدة سامية ..

انىا ننشد همتك يا ام وسام .. ورأي الأبنـــة من رأي والدتهـا ..

عفيف ابنك وأمال ابنتك..والذي تقولينه انت مقدس .

مثلما يريد الله يا اختي .. ومثلما قال شقيقك ابو وسام .. النصيب فوق الجميع .

كنيسة القديس جاورجيوس

ان كنيسة القديس جاورجيوس تربض على اكتاف حي آل علم ، قديمة العهد ، بنيت سنة ١٧٨٦ م . من الحجر الصم الرمادي اللون ، تتخللها احجار رملية بنية . منها ما هو فاتح ، ومنها ما هو غامق . تقوم في وسطها قاعدة الجرس الخالية من الزخرفة .. ثم القبة التي ترتكز على اربعة اعمدة.. احجار واجهتها الأمامية حفرت بها ثلاثة ضلوع في الوسط ، واثنان نصفيان كل نصف من جهة . وبرصفها فوق بعضها شكلت اربعة اعمدة صغيرة في عامود كبير .

والقبة ذات قنطرة واحدة من الشمال والجنوب . أما من الشرق والغرب فقنطرتين صغيرتين ترتكز عليها قاعدة الجرس النحاسي الكبير . ثم قنطرتان صغيرتان فوقها أيضاً ثم صيلب من الحجر .

وشرقي قاعدة القبة فتحت نافذة كبيرة، وأخرى شرقيها تبتدىء حيث تنتهي الاولى .. صغيرة .. وللاثنتان حاجز شبكي من الحديد .. خارجي .. وغربي القاعدة بابان .. فوق الباب الذي يليها مباشرة بلاطة رخامية ، حفر عليها تاريخ بناء الكنيسة مع بيتين من الشعر .

سنة ١٧٨٦ م.

أجدادنا قــد أسسوا وبنوا على أقوى الأساس
أثــراً يؤرخ ذكرهم وله الشفيع جاورجيوس

وفوق الباب الآخر يوجد بلاطة رخامية أيضـاً ، أرخ عليها تاريخ تجديد بناء الكنيسة .

سنة ١٩٠٥

فزنا بتحديد البناء بنعمة الروح القدس
أرخ فلخير رجالنا بشفيعـه جاورجيوس

أما الساحة ،فتشكل نصف دائرة. القسم المتصل بالكنيسة منها ما هو مبلط ، ومرتفع قليلاً عن الأرض ذو درجتين ، والقسم الآخر ترابي معشوشب في وسطه شجرة جوز كبيرة.. قديمة العهد كقدم الكنيسة . تقابلها من الجهة الغربية قبـل نهاية الساحة شجرة صنوبر سامقة لا تقل عنها قدماً .. تحتاج لأذرع اثنين من الرجال لاحاطة جذعها . وبالقرب منهـا شجرة بلوط وارفة الظلال .. أحدث من الاثنين عهداً ..

وشرقي شجرة الجوز ، في نهاية الساحة ، شجرتا اكاسيا ، احداهما كبيرة جداً والأخرى صغيرة . ويظلـل دائرة الساحة الخارجية التي تنتهي بحائط يعلو عن الأرض متران تقريباً عدة أشجار من الاكاسيا والجوز والسنديان . وفي قلب الحائط ، أقيمت مدافن ذوي العائلات الذين بنوا الكنيسة .

قرع الجرس والقبعة

في صباح عيد الفصح المجيد أفاقت بسكنتنا على قرع الأجراس تتجاوب في أرجائها وهي البلدة التي أشتهرت بكنائسها الاثنتي عشرة المنشورة في أحيائها كما الحواس في جسد الانسان.

نعم ان الحواس تساعده على ديمومة الحياة . اما الكنائس وبيوت الله فتساعده على ديمومة الأيمان والاقتراب من الله . بواسطة الصلاة .

أفاقت البلدة الوادعة وفي قلبها وقلب أهلها فرحة حدثين سعيدين .. فرحة فصح مخلص العالم ، وفرحة خطبة عفيف وأمال ، ابنائها الأبرار .. أملها في المستقبل .

والتقت الجموع في كنيسة القديس جاورجيوس ، لتقدم الى الله صلواتها ودعائها بواسطة ابنه الحبيب . وبعد الاحتفال بصلاة العيد تفرقوا في الساحة الخارجية . وتحلقوا زرافات ووحداناً ليقضوا فترة هانئة .. هي أسعد فترة في حياتهم . هنا جمهرة من الشباب النشيط تجمعوا حول قبة الجرس .. وتقدم أحدهم .. وأخذ الحبل بكلتا يديه .. وقرع الجرس بهمة وحيوية حتى جاوبت اصدائه جوانب الوادي السحيق.. وتقدم بعده آخر وآخر..وكل يبدي براعته بالتلاعب بالحبل..

هذا يضعه تحت فخذه .. وذاك على زنده .. والآخر باليـد الواحدة .. لكن ذاك المبتدىء كان أشدهم .. وكان معلمهم .. نعم انه أشدهم .. ولا غرو في ذلك .. انه عفيف تامر، صاحب الصيت المشهور بدق الجرس . أمس في الماضي القريب، دعاهم شباب القرية المجاورة للاحتفال بزفاف مخول عبدو .. وكانت الغاية من تلك الدعوة تعجيز واختبار قوة الشباب الضيوف . وعمدوا الى زيادة وزن الجرس . ووضعوا قليلا من الرمل في أصواص القبة .. وبللوا رباط الضرابة بالماء .. وكان رائدهم أن يضعوا ضيوفهم تجاه الأمر الواقع فلا يستطيع أحدهم قرع الجرس وتربيعه .. فتكون الغلبة لهم .. لأن نايف شديـد وجميل كرم قد تمرنا على قرعه في مثل هذه الحالات .

لكن عفيف تامر خيب أمالهم ، ورفع أسم بلدته عالياً .. لأنه حطم جميع العراقيل التي وضعوها دونه . وقرع الجرس بقوة ضاهى بها جميع من حضر ذاك الحفل .

وها هو الآن يتقدم ثانية نحو الحلبة، وقد تعالت الأصوات من حوله . أفسحوا الطريق للبطل .. أفسحوا الطريق أمام ملك الجرس .

وتقدم عفيف .. ومسك الحبل بيده ، وابتسامة الظفر تعلو ثغره .. وابتدأ بتقديم ألاعيبه البهلوانية .. تارة يأخـذ الحبل بيده الواحدة، وينقله الى الأخرى بحركة سريعة تفوق الوصف . وطوراً يدير ظهره الى الحائط .. ويواجه الجماهير بوجهه الباش .. كل ذلك والجرس يقرع بقوة متناهية .

كان عفيف بالأمس يعرض ألاعيبه، لينال اعجاب الفاتنات المنتشرات هنا وهناك اما الآن .. فهو وألاعيبه .. وكل ما يملك لفاتنة لبه . ومحط رحاله .. خطيبته أمال جابر . كان عفيف بالأمس أمل ورجاء .. كان بغية وقصداً .. كان فتى أحلام جميع فتيات القرية . لأنه حاو على جميـع الصفات التي ترتجيها الصبايا .

فمن رجولة عارمة .. الى وسامة فاتنة .. الى حديث طلي يخوله الرتوع في قلوب الحسان عن جدارة واستحقاق .

وها اثنتان من ضحاياه يحرقن الأرم وقد مزقت اللوعة قلبيهما آه .. آه يا ليلى .. آه من حظي العاثر .. أنا فتاة شقية .. فتاة تعيسة .. في الماضي كنت أنام وفي خلدي أمل وفي نفسي رجاء .. وأفقت اليوم لأرى جميع أحلامي وقد تبخرت مع الهواء .. كنت أعيش لحبيبي وفتى أحلامي عفيف .. انني أحبه .. أعبده .. وأثبت لك أن حبه لن يبرح فؤادي ما حييت .

هوني عليك الأمر يا أختاه .. لما هذا اليأس ؟ .. انـني مثلك أحبه .. وحبه متغلغل في كياني .. مالك روحي .. وطيفه يلازمني ملازمة الظل .. لقد بنيت عليه صرح أمالي ومستقبلي .. لكن هرب العصفور من القفص ، وما في اليد حيلة . المثل العامي يقول (فاتك تران استبشر بخيو) . ويوجد كثيرون من الشباب أمثاله .. ولا يقلون عنه جمالاً وجاذبية .

نعم يوجد كثيرون من الشباب النشيط الجميل .. لكن ليسوا كلهم عفيف .. آه .. يا لهفتي عليه .

نهى .. نهى .. انظري الى تلك المجموعـــة من الناس هناك .

أين ؟

واتجهت ببصرها نحو الجهة التي أشارت إليها ليلى .

في ظلال الصنوبرة الكبيرة .. أليس كذلك ؟

نعم .. لما هذا التجمع يا ترى ؟

لست أدري .

ما هو رأيك ؟.. أيقيمون الجرن ؟

لا أعلم .

تعالي لننظر .

انني لا أحب الازدحام .

تعالي .. ماذا سنخسر ؟..

وقادتها بيدها .. وتقدمتا نحو شجرة البلوط الكبيرة . واسندتا ظهريهما اليها .. ومر أمامهما فتى أسمر قوي العضل مفتول الساعد .. ورمى عليهما التحية .

السلام عليكما .

وعليك السلام .. الى أين ؟

الى الحلبة .. كي أجرب حظي مع هذا الجرن العنيد . اننا نراك متوهماً .. فهل ستبيّض وجهنا اليوم ؟ انتم

آل عواد مشهود لكم برفع الأثقال .

مثلما يريد الله . صليـــا لأجلي .. ان صلاتكن تورث التوفيق .

حسناً .. سنصلي .. شد حيلك .

ما هو رأيك يا ليلى .. أيستطيع رفعه يا ترى .

لست أدري .

انه جرن ثقيل كما أرى .. ولم يقو احد على رفعه حتى الآن .

تقدمي .. تقدمي لنشاهد جميل وقوته .

دعيني هنا .. قلت لك لا احب الازدحام .

انني سأتقدم .. إذا احببت ابقي هنا وحيدة .

حسناً .. سأتقدم .

وبرطمت .

لا تزعلي .. ان الفرجة عن قريب افضل من هنا .

ماذا يا ليلى .. هل صليتي لجميل مثلما وعدناه .

وضحكت ليلى دون ان تجاوب .

انظري .. انظري .. الظاهر صلاتنا ستنفعه .

واتلعت نهى جيدها من فوق الجموع المحتشدة .. وتعلقت جميع الأبصار والقلوب بجميل عواد .. وشدت معـــه الى أعلى .. وانطلقت الحناجر تشجعه ان تابع .. وتقدمت ليلى .. ووضعت رأسها على كتف نهى لأنها كانت اقصر منها .. وكان رأس أحد المشاهدين يضايقها .. وطلبت منه

برقة وأدب ان يحيد قليلا ..

وأزاح رأسه تلقائياً دون ان ينظر نحو مصدر الصوت .
لأن جميل عواد كان في عراك مستميت مع الجلمود .. انه فوق كتفه وزنده الاسمر التي لوحته شمس صنين تنتفخ عضلاته تحت وطأة الجرن الاصم .. وتضخمت عروقها .. انــه يجاهد .. نعم انه يجاهد لأن له حزبه ومؤيدوه . ويجب أن يرفع رؤوسهم عالياً .. وخصوصاً نهى وليلى . وصلاتها .. انــه .

لكن .. ها الحظ يخونه .. ويده ترضخ لسلطان الثقل .. وتلتوي .. والجرن يقع على الارض .. وهو يرتد الى الوراء خائباً ممتقع الوجه .. و ..

وتقدم بعده آخر .. وآخر .. ولم يكونوا أسعد منه حظاً .. واصابهم ما اصابه من خيبة وفشل .. وارتدت الفتاتان الى الوراء .. الى مكانيهما تحت السنديانة .. وضحكت ليلى وقالت ..

صلاتك لم تنفع يا نهى .. الظاهر انك لم تصلي من كل قلبك . وضحكت نهى .

ان صلاتي كصلاتك تماماً .. فكيف تريدينها ان تنفع ؟

واشرأبت الأعناق .. وصعد هتاف شق عنان السماء .

يعيش البطل .. يعيش وسام جابر .

من ؟ وسام ؟ تعالي لننظر .

وكان وسام قد رفع الجرن ، وأعــاده الى الارض ..

ورفعه واعاده .. وكرر ذلك مراراً .

وكان لغط .. وكان همس .

اسم الله .. اسم الله .. الله يحرسه من العين .. الله يبقيه لوالدته .

وصاحت اصوات اخرى . بعد يا وسام .. بعد .

واعاد وسام الكرة .. ورفع الجرن الى كتفه .. وبدفعة قوية من زنده الحديدي ، صلب الجرن ومشى به في الحلقة المضروبة من حوله .. وبشائر الفوز تغمر وجهه الوردي .. وقطرات من العرق اللؤلئي تتدحرج فوق جبينه .. وخفقة قلوب الحسان .. وسجدت في محراب القوة والشباب .. وكانت قلوب أخرى تذوب غيرة وحسداً .. لكن ليس في اليد حيلة .. انها القوه .. هذه عطية الله .

ورددت نهى في سرها .

هذه عطية الله .

ونادت رفيقتها ..

تعالي نسير بعض الوقت في الغابة .

لماذا ؟ هل اصابتك العبقة ؟

لست ادري . انني متعبة .

كان الجو خيالياً والنسيم يداعب رؤوس الأشجار ، ويتلاعب بضفائر ليلى الذهبية الظاهرة من تحت وربتها الوردية ذات الخرج الخرزي الملون . وينشر غرتها فوق جبينها الأبيض الوضاء . فيزيده فتنة وإغراء .

وعلى صخرة رملية صفراء .. تحت ظلال الصنوبر جلستا الصديقتان تتجـــاذبان اطراف الحديث .. وكانت نهى في شرود دائم ، ترد على أسئلة ليلى دون روية ودون ان تلتفت نحوها وهذا ما أثار حفيظة ليلى عليها .. وفاجأتها بسؤال هز اعصابها دون قصد منها .

ماذا يا نهى؟.. انه وسام .. أليس كذلك ؟

وضحكت ضحكة رقيقة ذات مغزى .

وانتفضت نهى وكأنها ضبطت بجرم مشهود .

وسام .. وسام .. لا .. لكنني افكر ب.

ب .. بـ .. بماذا ؟ لا تكذبي عـــلى نفسك .. انا صاحبتك .. وقلبي مفتوح لكل ما تقولين وكلنا في الهوى سوى .

لا .. ليس كما تفكرين .

وهل أنا غبية لأصدق ادعائك ؟

هذا ليس ادعاء .. انها الحقيقة

الحقيقة انك تحبينه .

ليلى ..

اعطني ما في قلبك .. اننا شقيقتان .

ليلى .. عندك حق .. لقد سحرني بوسامته وقوة عضله. فهل كنا عميان ولم نشاهد هذا الجمال . هذه القوة .. وهذه الجاذبية ؟ لا لم نكن عميان يا نهى .. ان الجمال لا يخفى على العين الناقدة .. لكن قلبك كان مشغولاً بغيره .

صحيح .. كان كل تفكيري محصوراً بعفيف .. لكن الآن لست أدري ..

ان «اللست ادري» ابقى لك .. لأن وسام قد وضع حصانة على نفسه .. وحالف على الأ يفتح حصن قلبه لبنات حواء ما بقي على قيد الحياة .

لماذا يا تري

واخذت نفساً طويلا .

لم هذه الحصانة ؟ اليس لانك ؟

وغمزت بعينها بحزرة .

وكانت ليلى سريعة الخاطر .. واجابتها .

لا تظني انني اريد ابعادك عنه من أجلي .. انني جاوبتك جواب من جربت حظها معه وفشلت .. وذلك قبل ان اعلق بحب عفيف .

انك تعقدين الأمور كثيراً .. لماذا ؟ أو ليس بانسان ؟ أليس له قلب ؟

ان هذا ما أردت اكتشافه .. ولم استطع .. لكن على وجه التقدير قد تحالف مع الطبيعة .

تحالف مع الطبيعة !! وعلى أي وجه ؟

لا تتعجبي .. اعني انه قد وهبها وقته وتفكيره .. فهل شاهدته ولو لمرة واحدة في سهرة أو أي عرس ؟.. من البيت للكرم .. ومن الكرم للبستان .. هذه هي حياته .

الهذه الدرجة يحب العمل ؟.

نعم .. لهذه الدرجة وأكثر .. انه يعبد الأرض .. يحبها على قدر ما يحب نفسه وازود .. واستطيع ان اثبت لك بأنه الآن لم تستطع اية فتاة أن تدخل محراب قلبه .

لست أدري .. انهضي لنذهب .. ان الدنيا سوداء في وجهي .

بدك تطولي بالك .

قالتها ليلى بسخرية مبطنة .

حفلة الخطوبة

ملأت الافراح دار السيد نديم جابر ، وخيم السرور على جميع افراد الاسرة .. وتعداهم الى الجيران والاقارب حتى شمل القرية بأكملها . وقد بدأت الوفود تتقاطر من جميع الاحياء للمشاركة بالفرح والابتهاج .

وضاق المربعان المعدان للاستقبال على رحبهما بالوافدين والزوار .

وخرجت جمهرة من الشباب والفتيات .. وتفرقن هنا وهناك على السطح الممتد أمام المنزل .. وفي الفسحة الواسعة تحت شجرة السنديان الهرمة .. وكان هرج .. وكان مرج .. وتعالت الاصوات افرحوا ايها الشبان .. دقوا .. ارقصوا . غنوا .. اليوم ولا كل يوم ..

تفضل يا مخول .. ليس لنا سوي همتك .. اين المجوز ؟

ماذا ؟ الا يوجد غير المجوز ؟ أين العتابا ؟ أين أبو الزلف ؟ أين دلعونا ؟ والغزيل ؟

كفاك دلالا .. ان الفرح بدون المجوز كالعرس بلاعريس..

انك عفريتة يا نهى .. في كل عرس لك قرص .

وتعالت الاصوات ثانية .

تفضل يا نخول .

على رسكلن هيا .

وعدل المجوز في يده .. ونفخ في القصب لحناً راقصاً طروباً ، صب في نفوس الحاضرين نغماً شجياً واسكرهم من غير راح .

وعلى ايقاع انغام الشاعر كان صوت عدلا علم يردد .

على دلعونا على دلعونا ـ بخطبة آمال دبكوا يا عيونا .

وعقدت الخناصر .. وتشابكت الاكف .. وتمايلت قدود الاشبال والحسان مع الانغام والالحان .. وترنحت قلوب الشبان مع الحضور وبلغت روعة الدبكة ذروتها .. والحماس أشده.. وكان نمر فرح لولب الدبكة وقائدها .. يوقع حركات قدميه على انغام المجوز . ويتمايل ذات اليمين وذات اليسار .. وزناره الأسود المقصب، بشراريبه الحريريه الطويلة ، يلوح مع مؤخرة سرواله الفضفاض . ولبادته الغبراء الهرمية الشكل تميل مع كوفيته البيضاء .. وبيده منديل أحد الحسان يلوح به في الفضاء .

يللا يا عدلا .. يللا .. على دلعونا ..

لقد بح صوتي يا نمر .. ردد معي .. يللا .. على غزيل.

وصاح نمر ..

يا غزيل يا بو العيبا .. يا هاوي يا معزيبا .

وردد معه الدابكون ..

يا هاوي يا معازيبا .

وشعرت نهى بضيق شل ارادتها . وهمست في اذن ليلى . .

انني تعبة .. لست أدري ما حل بي .

واجابتها ليلى ..

انت دائماً لا تعرفي ما يحل بك .

وغمزتها بعينها مع ابتسامة مغناج .

ان وسام ليس هنـا .. اليس كذلـك ؟ لقد علقت على شركه .

الآن ليس وقت هزار .. تعالي لنذهب .

الى اين ؟ ان وسام في الداخل .. وهو منهمك في ترتيب طاولة العرق .. وقد اتيت من هناك منـذ هنيهة .. اتودين الذهاب اليه ؟

لا ..

الى اين ستذهبين الآن ؟

الى البيت .

في هذا الوقت الباكر ؟ لا اننـا في اول السهرة .. ويجب ان نساعد أم وسام في دق الكبة .. اليست أمال صديقتك ؟

واحتارت نهى .. انها احبت الذهاب لانها لم تستطع الانفراد بوسام . وها هي فرصتها قد سنحت .. وعليها أن تغتنمها ورددت في سرها ..

يا رب .. يا رب لماذا وجدت لي قلباً شاعرياً حساساً يذوب في الغرام .. وعيناً ناقدة تحب الجمـال . ومررت يدها فوق جبينها .. ورددت .

آه .. انني لا أدري .

وسحبتها ليلى من يدها .. وولجتـا الى المطبخ مع زغردة الأمهات، ولغط الحاضرين.. وشاهدتهما أم وسام.. واستقبلتهما بالتأهل والترحاب .

اهلا ليلى اهلا نهى .. على قبال خطبتكما يا روحي .

تقبل عليك السعادي .. على قبال خطبة وسام.. الله يتمم افراحكم بالخير .

قالتها نهى وسر حالها يقول :

وعلى قبالي معه يا رب .

وأجابت السيدة رفقه :

الله يبقي لك اخوتك يا ابنتي .. ان أمال شقيقتكن .. وفرحتها فرحتكن .

وكاد قلب ليلى يصرخ نقمة ..

لقد حطمتنا .

لكنها ضمدت جرحها بحرقة نفسها ولوعتها .. وقالت ان أمال جوهرة نادرة .. وعفيف أيضاً .. الله يوفقهما واردفت:

بأي شيء نستطيع أن نساعدك يا خالتي .

الله يسعدك يا عيني .. ويقدرني على الخدمة في فرحكما .. أننا قد أشرفنا على نهاية عملنا .

لا .. لا يجوز . يجب ان نخدم في فرح أمال. أين الجرار لنذهب ونملأها من العين .

الله يكثر من المحبين أمثالكما .. عبلة وزيني ومريم ذهبن

الآن ولست أدري من بصحبتهن أيضـــا . انهن الآن على العين ..و..

وبينما هن في الحديث ، دخل عليهن وسام .. وخفق قلب نهى .. وعـــلا الاحمرار وجنتيها .. وارتكبت .. وقالت بتلجج .. على قبال فرحتك يا وسام متى ستقدم على هـــذه المهمـــة ؟.. وتدخلت ليلى قبل أن تترك له مجـالاً للرد .. وزلغطت .. واستمع اليها باذن صاغية.. وقلبه يرقص طربا.. وجبينه الوضاء يشع نوراً .. واقترب منها .. وامسك يدهـا بكلتا يديه .. وشد عليها بحرارة .. وقال :

الله يكون بعون الاعمى القلب الذي سيعلق في شراكك.. انك ستضيعين عقله .

وابتسمت ليلى .. ومع بسمتها خرج الكلام من فمها دلعاً وإغراء .

لماذا يا وسام ؟ الهذه الدرجة انا اخوّف ؟

وعضت الغيرة قلب نهى .. وظهرت على محياهـــا تجهماً وعبوساً .. وقالت في سرها :

انها تزهدني بوسام لأجل غايتها .. لكن هـــذا الأمر لن يحدث وانا على قيد الحياة . انني ..؟

وكان وسام كريماً معها أيضاً حيث أتجه نحوها وقال :

وانت يا نهى ؟ أين اصبحت . (كل الجمـــال بتعارك إلا جمالك بارك) .

أنا ؟؟

قالتها بدهشة .. وفقعتها ضحكة رنانة خرجت من اعماق قلبها .. ورمت يدها على كتف وسام دون ان تتكلم.. وكان في عينيها نداء افصح من الكلام .. وقررت المهاجمة.. وجهل وسام نداءها أو تجاهله .. لا أحد يدري .. وكلمها :

نعم أنت .. لقد علمت بأن مخاول يحاورك كثيراً . اليس كذلك ؟

مخول ؟؟ لا .. ان هذا افتراء .. انني ..

انك ماذا ؟.. انه شاب جميل .. ونشيط .. ويحبك حباً شديداً حسب التقارير .

تقارير؟..وأية تقارير؟انك تكلمني بالمعميات والأحاجي.. ما ذا دهاك ؟ هل ؟

وفكرت .. لا ..

وأرادت أن تقول له هل تغـــار من مخول .. واعتمدت التسويف .. لا .. فالادع هذا الأمر لوقت آخر .

ماذا دهاك ؟ لم الارتباك ؟

انا مرتبكة ؟ لا .. لكن .

لكن ماذا ؟

وانقذتها أم وسام من ورطتها ..

ما هذا يا وسام ؟ الظاهر أن ليلى ونهى قد سلبتا عقلك .

قالتها السيدة رفقه بمزاح وتنكيت .. وسر حالها يقول : يا ليتهما تستطيعان تبديل عقله ، عله يفكر بالزواج .

الدنيا ملأى بالبهجة والحبور يا أماه .. والشاطر هو الذي

يستطيع تحويل جميع افكاره واتجاهاتــه نحو الفرح وعمــل الخير .. لأن عمل الخير طريق للسعادة والانشراح .

واتجه نحو ليلى ونهى وكلمهما :

هيا معي .. يوجد حفلة رقص بلدى في المربــع الآخر .. هيا لنفرح شبابنا قليلاً .

تفضل أمامنا .. من أي وقت هــذه الزهوة يا وسام .. انني اعهدك عاقلاً ومترويا ً .

ومن قال لك انني لست عاقلاً ومترويا ً .. لكن التي في نفسها خلة لا تستطيع تبديلها .. انت من صغرك عفريتــة كبيرة .. كل كلامك عقص وقرص .

اسمعي .. اسمعي يا نهى . انـــه يقول كل كلامي عقص وقرص .. هه .. يا لهفي علي .. انا العاقلة .

اتريدين الصدق ؟ وسام معــه حق .. معه حق .. أنت فيك الكفاية .

وأنت معه أيضا ً .

انا ؟ لا .. انني لست معه .. لكنني مع الحق .

يسلم فمك يا نهى .. قولي لها انني مع الحق .

الله يقطع الحق الذي تعرفانــه .. لكن يجوز ان يكون بينكما سر ما وتخفيانه علي .

وغمزت بعينها .

يجوز .

وتمهلت بكلامها .. وتمهلت بمشيتها .. لانهن او شكن ان

يصلن الى مكان الرقص . وكلمت وسام .

انني لا احب الرقص .. سر معنا لنحضر كـــنزتي من البيت .. انني اشعر بلفحة صقيع .

وردت الغمزة الى ليلى . يجب ان نحكم وضع الشرك .

لكن وساماً خيب ظنهما .. ودخل بين الجموع الراقصة .. وقـــال :

اسمحا لي الآن .. علي واجبات يجب ان اقوم بها .

وبقيت السهرة عامرة الى ما بعد انتصاف الليل . والرقص والمرح في اوجهما .. وبعد ذلك بدأ النعاس يغزو الاجفان .. والوهن يسيطر على الاجساد .. وتفرقت الجموع والفرح يمـلأ قلوبها .. وبدأ التكهن بمستقبل زاهر للخطيبين العزيزين .

الحب العذري

تحت ظلال سنديانة هرمة ، ماشت الزمن وعايشته على مرور السنين . تعانق قلبان هدهدهما الحب باهازيجه الشجية . وكتب على صفحات نفسيهما النقيتان، اسطورة الهوى الخالد.. اسطورة الحب العذري .. اسطورة موادها الاخلاق ، وقلمها العفة والشهامة . فكانت بجمال الفاظها وسحر نغماتها سمفونية خالدة وقعتها شفاه الألهة على قيثارة استعارتهـــا من راعي القرية .

وكان يسمع مع ثغاء الحملان المنتشرة بين الروابي الوارفة الظلال . ومع تغريد العصافير الكامنة بين افنان الاشجار ، اصواتاً شجية أصلها الأمل الأبدي ، ومنبعها الحب الازلي .. اصلها الأمل الذي يتغلغل بين حنايا النفوس البائسة ..ويهديها سواء السبيـل .. ومبعها الحب .. ذاك الشعور المرهف الذي يصهرك في بوتقة العطف والحنان..فتصبح وكأنك كتلة ملتهبة من الاحاسيس الغامضة التي تملك على النفوس قيادها..وتسيرها حسب ناموسها حتى الازل .

انها اصوات حفظتها السنديانـــة بين فروعها التي استوفى منها الدهر ضريبته كي تهمس بهـــا في آذان العشاق معنى

الاخلاص والوفاء والعفة .

ومع آهات صدر اضناه الشوق ليوم الزفاف، ومع خفقات قلب ضاق ذرعـــا بحبه ، كانت تصعد من فم عفيف كلمات حلوة .

أمــال .. انني لا أدري لم هذه الدنيــا لا تسعني .. انني اشعر و كأنني اكبر من الكون .. وقلبي مغمور بفرح لا يوصف .. انني ..

وسرح بنظره مـــع القمر الذي يتلصلص عليهما من وراء غصون السنديانة .

انا خائف على حبنا يا حلوتي .. خائف من مجهول يخطفك مني .

وابتسمت أمال .. وقالت :

ولنفترض ان هذا المجهول خطفني .. فماذا ستفعل ياترى؟ ..

قالتها أمال وعيناها تشعان بمعاني التفاني والوفاء .

اعمل به ؟ .. هذا سؤال غريب .. كنت ..

ووقفت الكلمه على شفتيها .

لكن .. لا .. لن أقول لك .. يجب ان تعرفي أنت ماذا سأفعل .

فكرت أمال برهة وقالت .

حزرت ماذا ستفعل .

حسناً .. ماذا ؟

مثلما عمل غيرك .

وماذا عمل غيري ؟

هه .. هه .. ها ماذا فعل غيرك ؟ قنع من حبه بالخيبة والحرمان .

لا .. هذا كثير .. انا لا اسمح لك بأن تهيني حبي بهذا الشكل .

وبان العتب الغاضب في عينيه . وملك نفسه كي لا يجرح شعور معبودته .. واكمل .

اسحبي كلامك وإلا ..

وشعرت آمال بالحرج .. وفضلت ان يلتقيا في منتصف الطريق .. أي لا غالب ولا مغلوب وابتسمت عن عقد لؤلؤي نضيد .

وقالت :

وإلا ماذا ؟ اتهددني أيضاً .

وبرطمت على حرد .

وابتسم عفيف .. وقال .

لو ما ابتسامك يسبق كلامك لكنت ...

وانبثق في داخل أمال قبس من نور حب الذات .. يجب ان تعاكس من تحت .

انها تجد في معاكسته لذة عفيفة ترضي انوثتها المتسربلة بثوب الوداعة المنطوية على ترفع وانانية كجميع بنات جنسها .. لكن .

ووقفت لكن حاجزاً بين المعاكسة والاستكانة للحبيب الواله .. وتراكمت في رأسها الاسئلة والافكار المترادفة المتناقضة .. ولم ينقذها من ورطتها سوى وقوع نظرها على زهرات الاقحوان بين اخواتها شقائق النعمان .. وقطفت احداها .. وتلهت بنزع وريقاتها .. وعمل فكرها .

اعاكسه .. لا اعاكسه .. اعاكسه .. لا اعاكسه .

وعندما نزعت الثلثين تقريباً ، توقفت تلقائياً تجاوباً مع عقلها الباطن ، لانها خافت النتيجة .. وغارت على حبها من كبريائها .

وكلمها عفيف وكأنه قرأ افكارها .

اكملي .. لماذا توقفت .

ولم يترك لها فرصة لتقرر . اتكمل أم لا وخطف الزهرة من يدها .. واكمل ما ابتدأت به .

احبه .. لا احبه .. احبه .. لا احبه .

وكانت النتيجة احبه .. وضحك قلبه طرباً .. وخرجت فرحته على لسانه لحناً سماوياً .

أرأيت .. حتى الزهرة أخبرتني عن حبك .

عفيف .

واخذت نفساً طويلاً لتستجمع شتات افكارها .

احبك .. نعم احبك .. وحبي قطرات ندى سكبتها عينا الفجر على زهور البرية .

احبك حب التلال والاشجار والوديان ، لنسمات صنين

الصباحية .

احبك حب النحلة لرحيق الوزال والزنبق والمضعف والبنفسج .

احبك حب اوفى خطيبة لاجمل خطيب .

الى اين ؟ الى اين أنت ذاهبة ؟.. وانا احبك ايضاً .. ابقي لي بعض الكلمات الناعمة بعض الخفقات الملائكية .. لاستطيع أن اعبر لك عن مكنونات فؤادي.. حقاً انك اطمع من عرفة .

اتنعتني بالطمع ؟ مثلما يخطر على بالك قل.. لكنني اشكر ربي على ان طمعي بحبك وليس ببديله .

أمال .. كلما غردت الكلمة على فمك اشعر وكأنني محمول على اجنحة السعادة .. انني ملك جالس على عرش الكون .. وقلبي عرش آخر انت جالسة عليه .

وفي اثناء الحديث كانت ايديهما متشابكتين على عفة .. وروحيهما متعانقتين على نقاوة ووداد .

عفيف .. املي .. انظر الى اعلى .. الى القمر وهو يغمر بسكنتنا بنوره الأخاذ . وهي ساجدة في معبد الوفاء ، لتقدم له آيات الخضوع . انني مثلها يا حبيبي . انت قمر حياتي ، إذا غبت عنها تأكد بأنها ستغيب معك .. انك جوهرها يا عفيف .. وإذا فقد الجوهر فأي معنى يبقى للحياة .

أمال .. يا معبودتي الحلوة .. إذا قلت لك بانني احبك لا استطيع ان اصف ما يختلج في فؤادى من شوق وحنين .

ان حبي موجات عاتية تدفع بعضها بعضاً فوق سطح بحر الوجود .. زوابع هوجاء تضرب الاشجار بسوط لاسع .. والشجر يولول ، وتتقصف اغصانه من قوة العاصفة .

ان حبي كتلة شعاع مزروعة في قلب الفضاء . حبي الدنيا بأكملها .

حبيبي .. يا حلمي السعيد الذي عشته من اليوم الذي تفتحت عيناي على النور .. واصبحت اتفهم معنى الحياة .. انني اشكر الله الذي حقق لي هذا الحلم .. واصبح الخيال واقعاً .

والتفت نحو عفيف ، رانية إليه بطرف لاهف كسير ، فيه من التعابير والمعاني ما يعجز عن توضيح مدلولهما وفحواهما ابرع الكتاب وادقهم ملاحظة .

وكان قلبها بدقاته السريعة المتلاحقة يتساءل معها .. وخرج تساؤلها على لسانها .

صحيح أنت معي يا عفيف ؟ يا ربي ابقيه لي .

وقهقه عفيف عالياً .. واردف .

يا ربي ابقها لي .

سرت في كيانه قوة غريبة .. ورغبة جامحة تدفعه لاحتضان الخوف والاستعطاف والجمال والالوهية المتجسدة بأمال . ليشعرها بأنه لها بكل جارحة تخفق بجسده .. ليحميها من نفسها . من خوفها .. من شكها الذي لا مبرر له .

وكانت ثمة قوى أخرى تردعه عن ذلك .. الكرامة ..

الرجولة . الشرف . حرمة العفاف .

صراع جبار في شباب متوثب نشيط ، انتصرت فيه عادات الاجداد على النزوات الطائشة .. وملك العاشق الحائر قياد نفسه واكمل .

ومن سيأخذني منك ؟.. هل انا ولد صغير لا سرق ؟

لست أدري .. لست ادري .. كلما شعرت بأنني قريبة منك والسعادة تغمرني ، اتخيل فتاة اخرى في حياتك ، وانت تكلمها نفس الحديث .. وتبثها ذات العواطف التي تقدمها لي . عندئذ يقطر قلبي دما .. دما يا حياتي .

وتفجرت اللوعة في قلبها دموعاً انسكبت من مآقيها .. وغطت عينيها بكلتا يديها .. واجهشت بالبكاء .. وتمتمت شفتاها .. الهي اني خائفة .

أمال .. لم هذه الحركات التي لا مبرر لها ؟ هل انت مجنونة ؟

اتظنين انه لو قدمت لي جميلات العالم اجمع ، افضل منهن واحدة عليك ؟ لا وحق حبنا .. وحق عينيك .

ومسح قطرات اللؤلؤ المتدحرجة فوق وجنتيها بمنديل ابيض مطرز الأطراف ، كانت قد اهدته اياه .. وجاشت في صدره عاطفة قوية ، استحالت على لسانه شعراً .

كفكي الدمعات حاجي بكي
مكتوب ع جبين القمر قلبي لك

وكل ما بـــآه قلب النسيم المجرح

ببعت رسالي لغنـــد ربي وبشتكي

وانفرجت اسارير أمال .. وقالت :

من أي يوم ابتدأت تنظم شعراً ؟.

ابتدأت انظم الشعر من اليوم الذي تعرفت فيه على هذه الوداعة الكامنة في سحر الفاظك . على هذه الروعة المتـألقة في بحر عينيك . من الوقت الذي ابتدأ به قلبي يخفق بهواك .

يا رب .. آه لو تدوم سعادتنا طوال الأيام.. لنجني نتيجة سعادتنا .. لكن ..

وسرحت مع البعيد البعيد ، تستشف الغيب عما يخبئه لها المجهول .

لكن .. وصمتت ..

لكن ماذا ؟ لماذا هذا التشاؤم يا حيـــاتي .. المست أي تبديل في معاملتي لك .. كنت في الماضي عفيفـاً الذي سعى بكل امكانياته ، ليحصل على اجمل خطيبة في العالم . واليوم لا ازال عفيفاً الذي نذر نفسه ليسعداجمل زوجة في المستقبل.

رنت كلمة زوجة في أذن أمال ، رنين لحن شجي على وتر مبحوح .. وارتعشت أوصالها ورجف فؤادهـــا .. وتلونت وجنتاها بلون وربتها الوردية.. واصبح منظرها يأخذ بمجامع القلوب .. وحدق فيها عفيف طويلا .. واحتضنها بمقلتيه .. وشعر بلذه عارمة تملك عليه كيانة . وكانت في ضميره اشياء

واشياء .. وبانت على محياه كبت وكتمان .. وتورد كمحياها تمامـــاً .

وبقيا على هذه الحالة ردحـــاً من الزمن .. وسكرا بنشوة غير منظورة .. ولم يفيقا على نفسيهما إلا على صوت أم وسام وهي تنادي أمال .

لعبة القدر

مرت الايام ؟ وتينك البرعمان الندیان تتشقق اكمامهما على امل في الحياة ، وسعادة في المستقبل .. لكن القـدر الغاشم هاله حبهما البريء .. وخاف على تقويض اركان مملكته بايادي السعادة والأمل .. وجند جيوشه .. وشحذ سلاحه لكسب معركة هي في نظره معركة حياة او موت .. وتحالف مع الشيطان .. واتفقا على زرع بـذور الشر في نفس عفيف .. الخطيب الشهم الوفي .. وكان سلاحهما في المعركة فتيات من المدينة .. جرفهم تيار الحر اللاهب الى الجبل ، بعد ان مللن الشاطىء بامواجه ورماله .. وانتشرن في جوانبــه يطلبن المتعة والراحة . وكنـا كوباء فتاك حل في اجساد سليمة ، يسلبها الصحة والعافية .

واصاب كل قرية من تلك القرى الراقـدة في احضان الشرف شرذمة من اقوام ، رائـدهم بضعة اشهر يقضونها على عنجهيتهم .. وكان نصيب بسكنتنا كاخواتها .. وامها اقـوام يختلفون عن سكانهـا بتفكيرهم .. باعمالهم .. بكل شيء .. اقوام كل همهم التسلية ، يبغونها بجميع الوسائل ، المشروعة

منها وغير المشروعة . فالشباب المصطاف يمج حياة القريـة الوادعة ، لأن حياتـه في المدينة واسعة الآفاق .. حركة وضجيج .. صخب وعربدة .. والفتاة المصطافة ترفض العيش في حرية محدودة . لأن حياتها في المدينـة تنطلق من حريتها المطلقة .. فتكيف اوقاتها حسبما تريد .

ومع كل هذه الفوارق بين حياة القرية وعادات المدينة ، لعب القدر لعبته على حساب ابناء القريـة .. وتغيرت طرق معيشتهم تغيراً كلياً .. وقلدوا ابناء الدخلاء ، بكل شيء .. وشر البلية ما كان منها مقلداً ..

نداء الطبيعة

مالت الشمس نحو المغيب ، وتخضبت الطبيعة بدمـاء الشفق .. وتبدلت حالة الطقس من حر لاهب الى برودة معتدلة ، يخالطها نسيم منعش ، يهمس في آذان ساكني الجبـال انشودة الطبيعة الحالمة . ويحثهم على الاسراع نحو المتنزهات ، ليتمتعوا بسحر ما صنعته يد الخالق .

وفعل هذا الهمس فعله في النفوس التواقة الى الانطلاق .. واستجابت لنداء خفي وخرجت من منازلها زاحفة الى الضواحي والمتنزهات .. وكل يبغي قتل الوقت على طريقته الخاصة ..

المردات

المردات بقعة جميلة من الأرض ، تقع في الجـــانب الشمالي الشرقي من بسكنتنا ، وقد حباها الله جمالاً فريداً وفتنة خلابة. فأول دخولك اليها من جهة البلدة، تطالعك جوزة هرمة اكل الدهر عليها وشرب . ومن امامها تمتد جلول متفاوتة الاحجام والهندسة. وقد غرست ارضها بأشجار الكرز والتفاح والاجاص وغيرها . وبالقرب من تلك الجـلول كروم قديمـة من العنب والتين .

وان دلتنا هذه الكروم على شيء فانها تدلنـــا على عظمة اجدادنا ، وقوة صبرهم على العمل المضني . لأنهـا تقع في بقعة صخرية ، تتطلب لنقبها وإصلاحها ، مجهوداً جباراً نعجز عن القيام به اليوم ، لأننا اعتدنا على حياة الرفاه والرخاء .

ويمتد بعد ذلك منحدر متشعب الفروع، صعب المسالك .. وفي وسط المنحدر صخرة عاتية ، تشمخ برأسها تيهاً لأرتفاعها عن بقية رفيقاتها . فكان من يجلس عليها يرى أمامه مشاهد عجيبة ، تلقي في النفس رهبة وخشوعاً .. فمن الأمـام واد سحيق يغسل اقدامه في اديم الأرض يدعى وادي الجماجم . وقد احيطت جوانبه بصخور مرتفعة تبدو لناظرها من الاسفل وكأنها معلقة في السحاب. وكانت بشكلها وبستراتيجية موقعها الطبيعي حصاراً لا يؤخذ . لذا اتخذها الملوك الاقدمون ملجأ

يأوون اليه عندما يغلبون على امرهم . وقد بقيت آثار احدهم حتى الآن . وهي كناية عن مغارة كبيرة ، متعددة الغرف ، حفرت في قلب الصخر ، تدعى مغـــارة سيف الدولة .. نسبة للملك الذي حفرت على عهده .

وعلى بعد قليل في الجانب الآخر من الوادي ، حرش من السنديان والملول ، ينتهي على علو شاهق بمنبسطات خصبة .. حولتها يد الفلاح اللبناني المجتهد النشيط الى جنائن للفاكهة ، وحقول للحنطة . وكان يساعد على استعمالها للزراعة مياه عذبة تنفجر ينابيعها في سفح جبل الزعرور . ذلك الطود الشامخ الذي غسلت اعلامه بدماء الغروب ، فكانت مثالاً للروعـــة التي تتجسد بجمال الطبيعة اللبنانية .

وتفرقت تلك الجموع الزاحفة الى اللهو بين صخور المردات ومنعطفاتها ، لتشارك الطيور فرحتها وتغريدها فبـــدا ذاك المكان كقطعة من الجنـــان هبطت من السماء ، لتظهر لأبناء البشر قدرة الخالق وعظمته .

وعلى صخرة كبيرة ، مسطحة ، فيها بعض النتوء والنخاريب التي نبتت بينها زهور القلاد والاعشاب جلس سرب من الفتيات تحت ظلال شجرة متفرعة الأغصان . وقد اخذن بروعة المناظر وجلالها . وسكرن بخمرة الوجود اللامتناهي .. وسرحن مع الخيال .. وسر حالهن يمدح ويسبح القوة الكامنـة .. وراء المجهول .. المسيرة المسيطرة على مقدرات الغيب .

هذه بطمة ترسل شذاها بخوريا عابقـــا .. وتلك زهرة

تضوع الجو بعطرها الفواح . هنا زهرة تعانق اكليلا من شوك .. وهناك اخرى تغفو بين احضان بقعة سندية من العشب الأخضر . وخرجن من ذهولهن على صوت احداهن ، وكان فيه رنة من تهكم .

ماذا دهاكن ؟ هل تكبدتن مشاق الطريق ووعورتها لتتمتعن بجمال المناظر فقط ؟ انني جائعة .. ومعدتي تكاد تلتصق بظهري .

ما بالك يا سلمى ؟ اما زلت اكولة كالماضي ؟ لا تفكرين إلا بمعدتك ..

ان الوقت معنا .. لم الاستعجال ؟ هل سيهرب الطعام يا ترى ؟ . متعي ناظريك بجمال الكون .. عبي من معين الطبيعة الصافي .. تغلغلي مع السكون العميق علك تسبرين أغوار ما وراء المحدود والمعلوم .

دعينا من السفسطات والفلسفة يا امية .. وهبي الى الطعام .. ان الفلسفة لا تشبع بطناً جائعاً .

ورددت امية في سرها .

صدقت .. لانك انت في واد وانا في واد آخر .

وكانت منبطحة على صدرها ، ساندة رأسها بكفيها ، وقدماها ينقران على الصخرة نقرة رتيبة . ونظرها مسمر على القمم الشاهقة .. وفكرها وخيالها كانا مع الاديب الكبير مخائيل نعيمة ناسك الشخروب ، في خلواته مع الطبيعة .. وفي نزوعه الى الهدوء .. في صوفيته .

كانت في الماضي تعايشه في ادبه على مقاعـد الدراسة ، وتنجذب نحو كوخه الصخري بخيالها .

كانت تحبه في ادبه .. في فلسفته . وتتمنى ان تلمس الصخر الذي يجلس عليه .. ان تعيش الجو الذي يساعده على صفاء ذهنه .. ان تشاهد مواد مواضيعه الخـام .. البيدر .. البقرة الحلوب .. الفلاح .. الى آخره. قبل ادخالها الى مصنع فكره النير ، وصقلها بواسطة قلمه السيال . لتخرج الى العالم منائر اهداء تنهل منها الأجيال الصاعدة جيلا فجيلا .

اما الآن فهي تعيش نفس الجو ، وتتنشق ذات الهواء .. وكان في نفسها شوق الى رؤية الناسك والكوخ الصخري عن كثب .

وبينما امية ساردة في شرودها كانت سلمى مع رفيقاتها يفرغن الطعام من حقائبهن ويمددونه على الطاولة الصخرية .

وبدأ الاكل وبدأ الهرج والمرج .

ولاحت من كلير التفاتة نحو التلة الصغيرة القريبة منهن.. واسترعى انتباهها شاب يخرج من بين الصخور هنيهة ثم يعود الى مكانـــه الأول .. ثم يخرج ويعود .. وفي كل مرة كان يثير فضولها . وتساءلت ضمنا .

ماذا يعمل يا ترى ؟.. ماذا يقصد .. هـــل يتلصص عليهن ... وكلمت سلمى .

سلمى .. انظري الى تلك التلة الصخرية .. انـه سيخرج بعد قليل .

ودهشت سلمى .. وسألت كلير . باستغراب

من سيخرج ؟.

ذاك الشاب القروي .. ألم تشاهديه ..؟

كلا .. ماذا تريدين منه ؟.. ما لنا وله .

ودست في فمها قطعة من اللحم المشوي منعتها عن الكلام .

لا شيء .. لا شيء ..

واجتاحتها رغبة جامحة لمعرفة سر الشاب ..

على التنور

نفضت أمال طرف المقرصة فتجمع دقيق الذرة الصفراء أمامها ، قرب اللوح الخشبي الذي ترق عليه العجين . واخذت قروصة من لكن نحاسي كبير قريب منها . وكان نظرها يعد ما تبقى من قراريص .

اثنتان .. خمسة .. تسعة .. اربعة عشر ، عشرون ثلاثون .. وغمست القروصة التي بيدها في كومة الدقيق ، ووضعتها على اللوح .. وبدأت ترقها في عصبية ظاهرة .

استعجلي يا اماه .. لقد اشرفت الشمس على المغيب ، ونحن ما زلنا نعمل في هذه الكمية القليلة من العجين .

ولزقت أم وسام الرغيف في التنور .. ووضعت الكارة فوق ركبتها .. وبدأت تهل الرغيف الآخر .

لم العجلة يا بنيتي ؟.. تمهلي علي .. اتظنيني مثلك ؟

ومسحت العرق المتصبب فوق جبينها ، بطرف كمها الممزوج بالدقيق .. واختلط مع ذراته .. وترك وجنتيها اللتين بقيتا محافظتين على لونهما الوردي رغم دخولها في العقد السابع من عمرها ، بقعاً مغبرة سمراء .. كان طرف منديلها الأسود بشراريبه متدلياً فوق جبهتها وخصلات شعرها الأبيض تظهر

من تحته ، حاملة فوقها قساس الحطب وغبار الدقيق .. وكان بادياً على محياها التعب والارهاق .

ونظرت أمال الى والدتها نظرة اشفاق .. وودت من صميم قلبها لو تستطيع ان تنهي الخبزة عنها .. لكن ما حيلتها ان كانت لم تتعلم هل الرغيب ، ولزقه في التنور .. أو ليس الحق على والدتها التي لم تعلمها ؟.. ان صدى كلماتها سابقاً لا يزال يرن في اذنها حتى الآن .

انك في أول عمرك يا بنيتي ستتعلمين في المستقل .. التعب والشقاء لن يفوتاك .

وتمهلت السيدة رفقة في عملها عن غير قصيد . لأن الوهن قد سيطر على جسدها الهرم .. بدأ يشل حركاتها رويداً رويداً .. وكان تمهلها يدب في جسد أمال دبيب النمل .. ويأكل من اعصابها .

ولملمت الشمس آخر انفاسها عن اعلام التلال كما تلملم العروس بقايا حوائجها من بيت ذويها .. وكان القمر يرقب رحيلها من على فم صنين لينا وبها احتضان العشاق اصدقائه المخلصين .

وغمرت اشعته التنور الترابي القابع تحت التوته الكبيرة . وانسلت الى داخله كما انسل السأم الى نفس الخطيبة .. وكادت ان تتفوه بما يختلج في قلبها .. لكن الحياء منعها عن ذلك .. اما عين الوالدة الساهرة لم تغفل عن حالتها ، لأنها تغلغلت بثاقب بصيرتها الى سريرة ابنتها الولهى .. واحبت ان تخفف عنها بعض ما بها .. وقالت :

انني قد عرفت لما انت مستعجلة .
وغمزت بعينها و .. وابتسمت .
ونظرت إليها أمال بدهشة مصطنعة .
ماذا ؛ خير ان شاء الله ؟
وابتسمت أم وسام ثانية .
وصرخ قلبها .. نعم عفيف.. انه عفيف.. أليس كذلك.
لكن صرخته لم تتعدى نطاق قفصه الصغير .
لا .. لكن ..
لكن ماذا ؟ ان الوقت لا يزال باكراً .. والموعد بعد ربع ساعة على ما اظن .
موعد ماذا يا أماه .. لم تكلميني بالألغاز اليوم .
الأم أدرى بحالة ابنتها من نفسها .. أتظنينني لا اعلم بما يختلج في قلبك ؟..
السنديانة .. والموعد .. وضوء القمر .. وزهرات المضعف . ان جميع هذه الاشياء قد مرت علي قبلك .
ورجعت أم وسام بذاكرتها الى يوم كانت بعمر أمال .. يوم خفق فؤادها بالهوى لأول مرة . لذة الحب وحلاوته .. وعذابه .. ايام حرب الاربتعش العصيبة التي منعتها عن الاقتران سابقا بزوجها نديم جابر .. حفاظها على العهود والوداد رغم ما ذاقوه من الآلام والحرمان حتى انقضاء الحرب .. التشريد .. الجوع .. مشاهدة الموت مائة مرة في اليوم القصير . ففقدان الأمل ثم لقائها واقترانها المتأخر .
وندت عن صدرها آهة مكبوتة، احتارت أمال في تعليل اسبابها .

شكوك ... ولقاء

بينما كان عفيف بطريقه للقاء معبودته. كان فكره مشغولاً باستنباط واختلاق الاعذار. لقد تأخر عن الموعد المحدد للقائها ما يقارب النصف ساعة .. وكان يشعر بقرارة نفسه بالخطأ الفادح الذي ارتكبه بحقها .. انه شارك معها بتفكيره آخرين .. انهن قد اخذن من وقته ما هو حق لها انه معذور ان الذي بدر منه كان عن غير قصد .. نعم كان يراقبهن من بعيد .. من مخبأه بين الصخور انه لم يقترب منهن .. ولم يشترك معهن بأي حديث . وفوق كل ذلك كان مشغولاً عنهن بشلته وحساسينه .. ولم يعطيهن من وقته سوى لفتات عابرات .

وقهقه رجل في داخله .

كم انت سخيف يا عفيف ؟ لأي سبب تشغل رأسك بهذه الأفكار الصبيانية ؟ ولنفترض انك كلمتهن .. وجالستهن .. فأي ضير في الأمر .. انك شاب .. الدنيا بأجمعها ملك لك. تكلم .. اضحك .. والعب .. و .

وتكلم رجل آخر .. وكان حديثه مشبوباً .

انظر الى جمالهن .. انهن متحررات .. بنات مدنيـــة مستهترة .. ألم تشاهدن كيف كن جالسات ؟.. وثيابهن القصيرة الضيقة منحسرة الى فوق .. وافخاذهن .. ولحمهن البض .. ولعق الرجل شفتيه ..

افخاذهن البيضاء والسمراء .. وصدورهن العاريـة .. ونهودهن الممتلئة .. انهن نصف عاريات .

ولعق الرجل شفتيه مرة اخرى .

ما اروع منظرهن .. انه ..

واغمض عفيف عينيه كي يحجب عنهما تلك المشاهد المثيرة التي لم يتعودها طوال حياته . انه عايش فتيات قريته ولم ير هذه المشاهد ولو مرة واحدة من احداهن . انهن محافظات.. ولباسهن واسع وفضفاض يستر اسفل ركبهن .. وفسحات صدورهن لا يستطيع تمييزهـا النظر . انهن غفر وحياء .. عفة وآداب .

لكن عين بصيرته بقيت عالقة بمشاهد الاغراء .. وكانت توضح الأشياء أكثر فأكثر .. وتعري الاجساد الصبوة حتى من ورقة التين .. وكان عراك بين الضمير والرجل المشبوب . وتكلم الضمير .

انت رجل فاسق تدخل الى البيوت من غير ابوابها .. انك تدنس الشرف .. تهتك الاعراض . انت رجل شرير .. رسول الشيطان الى الارض .

وجاوب الرجل المشبوب .

خذني بحلمك يا حضرة الضمير المسكين .. ايام حكمك قد ولت .. ومثلما تعلم (ان لكل دولة رجالها) .. انـــك ستسمح لنا .. هذه الدورة تخصنا .

وقهقه عالياً .. وكان لقهقهته في رأس عفيف دوي هائل. وتدخل العقل طرفاً آخر .

اذا كنت شاعراً بأنك قد اخطأت تجاه خطيبتك ، وتريد اصلاح خطأك فصارحها بواقع الامر لتريح ضميرك .. واذا كنت من اعمالك على ثقة .. وعالماً بأنك تسير على طريق الصواب .. صارحها ايضاً .. وقل لها هـذا شيء يخصني . حقي .. لأنك لست مقيداً معها لا بإكليل ولا بأي رباط آخر .. انك في مرحلة الخطوبه .. وفسخ الخطبة هين .

وصرخ حبه .

لا .. لا يا عفيف .. انك قد تخطيت حـــدود المعقول بتفكيرك .. وانا لا اسمح لك بأن تهينني بهذا الشكل الفاضح.

بالأمس كنت عندك موجات عاتية تتدافع فوق سطح بحر الوجود .. كنت زوابع عاصفة .. كتل شعاع مزروعة في قلب الفضاء .. كنت الدنيا بأكملها .. أنسيت انك قدمتني هدية لقلب حبيبتك التي تعبدك بعد الله .

وولول رجل آخر في اعماق اعماقه .

انت نذل يا عفيف .. نذل وجبان .

وفوجيء بعدم وجود أمال في مكان الموعد .. واخرجته المفاجأة من الهوة التي اوقع نفسه فيها انها لم تسبقه الى المقعد

الحجري كما كان ينتظر .. اين أمال ؟.. انهـــا ليست تحت السنديانة . هل شغلت عنه برجل آخر ؟ .. وجارا الرجل المشبوب .

إنها تخونك .. أنتما في الجرم متشابهان .

وصدم بكبريائه .. وكانت كبرياءه اقوى من الصدمة .. وحاول أن يختلق لها الاعذار .

وأطلت أمال كالبسمة الجذلى تسربلهـــا مسحة الخوف والعتاب .. مسحة أضفت على أنوثتها جاذبية هادئة .

عفيف .. لقد تأخرت عليك .. أليس كذلك ؟

لكنها لم تتلق جواباً .

ماذا ؟ لمَ أنت عابس ؟.

وقوبلت بالصمت أيضاً .. وماتت الفرحة على ثغرها .. وشعرت بقدميها تغوصان في الأرض .. وأخـــذ رأسها يدور وانهمرت دموعها .. وكانت أنصع دليل على إثبات لوعتها ..

وصعق عفيف أمام منظر الدمع الهاتن .. وهل لرجل مهما تصلد قلبه .. وتحجرت عواطفه أن يصمد أمام دموع المرأة ؟ وخاصة دموع حبيبة أصيبت بأعز ما تملك .. بحبها .. بقلبها ..

أمال .. حبيبتي .. إنني لم أتعمد جرح شعورك .. لكنني غاضب لأنك تأخرت عليّ .. أنا في انتظارك منـــذ ساعة .. إن الأفكار السيئة قد اقلقتني .. أنا لست بغاضب عليك لكن حبي هو الغاضب .

وصرخ حبه ..

أنت مجرم يا عفيف .. مجرم مرتين .. مرة لأنك كذبت على حبيبتك .. لقد وصلت منذ دقيقتين وعملتهن ساعة .. ومرة لأنك ادعيت غضبي .. أنا ضحية تفكيرك المسموم ..

تفكيرك المسموم ؟

وانتصب مارد عات بألف رأس ورأس ، ومليون عين وعين .. وتكلم بعزة وجبروت .

أنا الفكر عريس الذاكرة .. وربيب العقل .. ورفيق الخيال .. القوة الخلاقة التي أقرت بفضلها الدنيا.. بفلسفتها.. باختراعاتها بهندستها .. بصناعتها .

أنا من كان ترادفني الأسماء والنعوت العظيمة ..

الفكر النير .. الفكر المبدع .. الفكر البحاث .. الفكر المستقصي أصبح صعلوكاً مثل الحب المهووس التي تقوده رياح العاطفة ، يتكلم عني بكل وقاحة وينعتني بالمسموم .

وكاد يحصل صدام بين الحب والعقل لولا تدخل أمال في الوقت المناسب .

عفيف .

وخنقت صوتها العبرات .

وشعر عفيف بالحرج .. وتقدم منها بارتباك .. وقبض على يدها .. وامتزجت رعشات الأيدي . واهتز جسداهما كمن مس بسلك كهربائي .. وجلسا على المقعد الحجري تلقائياً .. وتكلمت العيون .. وأظهرت ما في القلوب .

وانزلقت يد عفيف على فخذ أمال بدون قصد .. وأحس

بدبيب مخملي يتسرب إليها .. وبنسيم دافيء كالحلم يلف جميع رغباته المكبوتة .. وأراد أن يرفعها .. لكن شيئاً ما فوق إرادته .. ثقيل كالجبل كان يضغط عليها ليبقيها حيث هي .. وتحركت أنامله فوق فستانها الحريري لتتحسس لدونة اللحم البض . وشعرت هي نفس شعوره .. والتقط رادار غريزة المرأة أمر غير مألوف يدور في خـــلده .. ورفعت يده عن فخذها دون ان تشعره بأنه أحرجها .

ماذا دهاك يا عفيف ، لما تبدل وضعك هكذا ؟ ووجهك اعتلاه الاحمرار ؟

تبدل وضعي ؟ ووجهي اعتلاه الاحمرار ؟

وارتبك .

لا .. لا لم يحدث لي أي شيء .

قالها عفيف بدهشة وكأنه أفاق لتوه من رقاد عميق .. وردد .

لم يحدث لي أي أمر .. لا .. لكن .. كنت .

لمَ الإرتباك ؟ إنني أراك ترتعش . انظر إلى يديك .. ووجهك وردي مضرج بالدماء .

وكلم نفسه .

نعم إن يداي ترتجفان .. ووجهي تتصاعد منه النــار .. ماذا حل بي .. لمَ هذا التبــدل المفاجيء ؟

وتكلم الرجل ذو الحديث المشبوب .

انها رغبة الجسد .. إنه الجنس ؟

واحتار في تعليل هذا التبدل الذي طرأ عليه .
وكلم أمال .
حبيبتي .. انني اشعر بتعب هذه الليلة .. ضائع . لست أدري ما الذي اعتراني .
ماذا اعتراك ؟ لقد مللت المواعيد .. وحديث الحب .. وعشرة أمال .. ويجوز أن تكون إحداهن قد شغلتك عني .
وأفاق ضميره .
أخبرها يا عفيف .. حدثها عن بنات المردات .. ويحي ان خيانة الفكر قد تجر الى خيانة الجسد .
وسحب يده من يد أمال التي رفعتها عن فخذها وبقيت متمسكة بها .. ومررها فوق جسده وأفاق شيء في داخله .
حقاً .. الجسد .. الجسد .
وجاوب نفسه وكأنه اكتشف جسده لأول مرة .. خيانة الفكر .. خيانة الجسد .
وعلق نظره بقبة الفضاء .. واستشف النجوم سر وقعته .
وأخرجته أمال من شروده .
اين انت يا عفيف .. إنك لست معي هذه الليلة ؟
لست معك ؟ .. إنك غلطانة .. هذا انا بشحمي ولحمي .
وضحك ضحكة مغتصبة .. وصمم على شيء .
جسدك معي .. هذا أمر لم نختلف عليه .. لكن فكرك اين هو ؟

أمال .. يا حبيبتي .. جسمي وفكري وقلبي معــك .. لكن لو تعلمين بماذا كنت افكر .

وكان في حيرة من أمره أيصدق نفسه ام يكذب عليها .. هل كان يفكر بأمال .. وجاءه الرد نعم .. إنه يفكر كيف سيتخلص منها ليهرب من تأنيب ضميره .

بماذا تفكر ؟ لقد حيرتني في أمري .

وجاءه خاطر سريع .

إنني أعد الأيام التي تفصلني عنك .. اعــد الساعات .. الدقائق .. الثواني .. ولم أعد استطيع الاحتمال .

وردد شيئاً في داخله .

لم أعد استطيع الاحتمال .

ولفت أمال هالة نورانية ..ورقص قلبها طرباً .. وكلمت نفسها بنفسها .

إنه لي .. ولي وحدي .. لقد ظننت انني فقدته .. تباً للشك ما أظلمه .. و ..

وكتمت فرحتها .. وقالت بغنج ودلع .

إنك تهزأ بي .. أنت .

وأرادت ان تقول غشاش ..ووقفت الكلمة على شفتيها .. وخافت العاقبــة .

انت لا تحبني .

وعادا الى الجو السابق .. عواطف ومفاجأة .

لا احبك ؟ حقك علي لأنني رضيت بهذه المدة الطويلة التي

تفصلني عنك .. مدة الخطبة التي يقولون عنها انها اجمل أيام العمر .. لأنها تفصلني عن أحب مخلوقة لقلبي .

كفاك خداعاً .. أنت لا تحبني .

وشعرت بأنها قد أصبحت سلطانة زمانها . وامتلأ قلبها زهواً .

انك تسددني كلاماً بكلام .

أمال .. كفاك غنجاً ودلعاً ..

وثارت رغباته .. وتمنى لو يحتضنها بين ذراعيـه .

بماذا تصدقين ؟ بماذا تريدين ان اقسم لك ؟ انا احبك يا أمال وحبي أقوى من حب جميع العشاق الذين تدلهوا بالغرام قبلنا .. ومن سيأتون بعدنا .

وكان الكلام يخرج من صميم فؤاده .. نعم انه يحبها .. وحبه أقوى من إرادتـه .. من تفكيره .. من كل شيء في الوجود .

عفيف .. حبيبي .. لست وحدك الإنسان المعذب الذي اضنته أيام الخطوبة .. انا مثلك قد هدني الانتظار . وقرح أجفاني السهاد .. إنني قد أمضيت ليـالي طويلة وأنا اناجي طيفك .. واتخيل نفسي وقد اصبحت زوجتك .. و ..

واحمر وجهها خفراً .. انهـا باحت بشيء كانت تريد أن تحتفظ به لنفسها .. لكن ما حيلتها .. لقد سبق السيف العزل .

أحقاً عندك هذا التصور الرائع والخيـال المجنح ؟ أأنت تحبينني بهذا المقدار ؟

وأغمضت عينيها واردفت .

يا ليتنا نبقى على حالتنا هذه لحين انقضاء ايام الخطوبة .

وردد معها

أيام الخطوبة ..

وأخذ نفساً طويلاً ..

إنها صعبة جداً .. ما اطولها .

نعم يا حبيبي .. انها طويلة .. وطويلة جداً .. لكنها ستمر كيوم امس مضى . شهور قليلة ستمضي وتبكيها الطبيعة بدموع مدرارة . ويبتدىء بعدها خريف يتلوه شتاء وشتاء يرادفه ربيع .. وربيع يتبعه صيف .

بعد خمسة اشهر ستتعرى الأشجار من اوراقها ، وتيبس الأعشاب في الحقول ، لتشارك الطبيعة في حزنها على ربيع ولىّ وصيف فات .. عندئذ سنبتدىء نحن ربيع حياتنا الذي لا يتلوه صيف ولا يتبعه خريف .. إن حياتنا ستكون كلها ربيعاً بربيع .

حلوتي .. أنت الطبيعة بجميع اسرارها .. والفصول تتسكع على بابك لتسترد منك حيويتها ونشاطها .. الربيع يأتيك مستجدياً والصيف مسترحماً لتبثيها دفء انفاسك العاطرة وتهديها أزهار روحك النيرة .. ويتبعهما الخريف يتلوه الشتاء .. يأتيانك صاغرين لتلبسيهما وشاح عفافك كي يتقيا به لفحات الزمهرير ..

أمال .. إن حياتنا ستكون خمائل نرجس واحواض ياسمين والفراشات تمتص رحيق أزهارنا .. والبلابل تغرد بين

أفنان شجيراتنا.. وتغريدها يرتفع نحو السماء ليشارك الملائكة في الدعاء والتسبيح للعزة الإلهية .

نعم إن حياتنا ستكون ربيعاً بربيع .. ووهجك الدافيء يبعث الحياة في أشجار الغاب ، وأعشاب الحقل ، وازهار الخمائل ، فتصحو من رقدة طويلة ، دامت طيلة فصل الشتاء لتلبسيني انا الربيع حلة جميلة زاهية ، حاكتها يد الطبيعة الخلابة .. من خيوط انفاسك الملتهبة .

عفيف .. حبيبي .

واحتضنته بقلتيها .

وأرادت أن تكمل ..

وسبقها .. ووضع يده على فمها .'. وشعر بنشوة شاعرية حملته على أجنحة السعادة .. واوصلته إلى أجواء بعيدة مقفلة الأبواب ... لا يلجها إلا المتيمون بالحب .. المتدلهون .

وقال : أمال .. معبودتي .. يا قمر نيسان .. ويا شمس نوار .. يا عروس الربيع .. بين يديك أودع قلبي ، وعلى بساط معرفتك أمدد مستقبلي .. وأعدك بأني سأحكم في مملكتك حكماً عادلاً تردد الأجيال ذكراه على مر الدهور .

زائرة غريبة

في النصف الثاني من شهر تموز ظهرت سيارة فخمـــة في الشارع الرئيسي الذي يشطر بسكنتنــا إلى شطرين . وكانت تقل سيدة فاتنة قد تخطت العقد الثالث من عمرها .. وتركت حولها علامات استفهام ؟

من هي ؟.. من تكون .. ماذا تريد ؟

وأزالت الغموض الذي يحيق بها .. وعرّفت عن نفسها .. وأوضحت عن مقصدها .

إنني ارملة وفقدت زوجي الثري منذ سنة تقريباً .

وبدافع الفضول الذي يعايش ابناء القرى تجمع حولهـــا بعض المارة وأصحاب الدكاكين في حي السوق .

ووجهت كلامها الى رجل مهيب وخط الشيب رأسه .

انني أود قضاء ما تبقى من فصل الصيف في إحـــدى المناطق الهادئة وقد فتنتني بلدتكم بجوها الجميل. هل أستطيع أن أجد منزلاً يحتوي على وسائل الراحة كي استأجره ؟

إنك تأخرت يا سيدتي .. وأظن ان جميع المنازل التي تحوز رضاك قد أجرت .

لقد صدمتني في أول الطريق سيدي ، الظاهر انكم لا تحبون الضيوف . او لا تريدونني أنا خاصة بين ظهرانيكم .

لا .. ما عاذ الله . إنك تنزلين بيننا على الرحب والسعة .

وكان لغط بين الجماعة .

إذا تعذر علينا الأمر ولم نجد طلبك.فأنا مستعد أن أخلي لك بعضاً من منزلي .. إذا كنت تحبين السكن بيننا .

شكراً على ما أبديته من عاطفة نبيلة نحوي .. فأنا أحب المزح والتنكيت..الرجاء أن لا تحمل كلامي على محمل الجد .. لأنني أعلم علم اليقين انكم شعب مضياف وتحبون الغريب .

إنك لست غريبة بيننا . فكل الديار ديارك .

جاوبها الرجل المهيب ووجه كلامه إلى من حوله .

هل تعلمون أين نجد ضالتنا ؟

وجالت الأفكار تتحرى جميع منازل البلدة ، وتتصحفها منزلاً منزلاً .

بيت فلان ؟ .. قد تأجر ..

بيت فلان ؟ .. لا يليق بصاحبة الشأن .

وقال أحدهم بعد تفكير طويل .

لا يوجد سوى بيت نديم جابر يفي بالمرام . لكن قد سمعت بأنه لا يود تأجيره لأن العمل لم ينته به بعد .

وسألت .

أهو بيت جديد ؟ .

نعم وفي أجمل موقع .. فوق رابية غناء تحيط به غابة صغيرة من الصنوبر .

شعرت الزائرة بدافع خفي يجذبها نحو الدار . وأحست بارتياح في قرارة نفسها قبل أن تراه .

سيدي .. انني أطمع بلطفكم . هل لأحدكم أن يسمح ويرافقني الى بيت السيد نديم ؟

وكان الرجل المتهيب أقربهم إليها .

إننا رهن إشارة سيدتي .

شكراً لكم .

وأفسحت مكاناً بقربها فصعد دليلها واتجهوا نحو المنزل المقصود .

العمل في دار أبو وسام قائم على قدم وساق . هنا نجار يلقي نظرة أخيرة على المنجوز بعد ان أشرف على نهاية تركيبه . وهناك عامل البلاط منهمك في شغله . في هذه الغرفة فتى يغلف حيطانها بالباطون وفي تلك آخر منهمك بالطرش . وكان السيد نديم بسرواله الرمادي الأغبر وصدرته المزررة يشرف على الجميع . فيحتج على عمل هذا ويثني على ذاك . ويبدي بعض الملاحظات مع آخر .. وبينما الجميع منهمكين بعملهم وصل جميل عبدو مع زائرته . وسلم على السيد نديم معرفاً إياه على حضرتها .

السيدة هناء جليل من بيروت .

السيد نديم جابر صاحب الدار .

أهلا وسهلا .. تشرفنا بمعرفتك سيدة هناء .

تفضلوا .. تفضلوا ..

ومشى أمامهم إلى بيته العتيق .

رمت ام وسام المكنسة من يدها وعدلت هندامها . ووضعت أمال جرتها في المكان المعد لها . واتجهتا نحو مربع الضيوف فرحبتا بالزائرة أجمل ترحيب وتم التعارف بين الجميع . اتجهت السيدة هناء ببصرها نحو دليلها وكلمته بإشارة من رأسها ففهم مرادها .

عدل السيد جميل جلسته على المقعد الخشبي . وقدم الأريكة لخلف ظهره . ثم تنحنح .

أخي أبو وسام .. ان السيدة هناء قد اعجبت بمناظر بلدتنا وحسن موقعها . فأحبت أن تقضي بقية الصيف بين ربوعنا واستنجدت بنا لنهديها على دار هادئة فلم نجد سوى منزلك هذا يفي بالمطلوب .

فوجيء ابو وسام بطلب صديقه ، لأنه لم يفكر بتأجير داره قبل الآن . ومصمم على ألا يؤجرها لغاية في نفسه .

علت الابتسامة شفتيه وصمت قليلا ثم أردف .

انك أحرجتني بطلبك هذا .. ويعز عليّ ان لا احقق رغبتكم لأن ..

لا .. لا يا سيد نديم لا تدعنا نصدم بالخيبة لأول طلب في بلدتكم . إن لنا بحلمكم أملا كبيراً .

سيدة هناء.أهلا بك بين ظهرانينا ، وعلى الرحب والسعة ،

وأطلب منك أن لا تحملي ممانعتي بتأجيرك المنزل على محمل الرفض ، لأن لكل إنسان ظروفه الخاصة كما تعلمين .

إذاً .. تفضل سيد جميل .. وأخذت حقيبة يدهـا عن الطاولة التي بقربها ونهضت .

ووقفت ام وسام بطريقها ومنعتها عن الخروج .

لما الاستعجال سيدة هناء .. إن لك علينا حق الضيافة ..

انتهت القهوة .. اسرعي يا آمال ..

شكراً يا خالتي .. إن وقتي ضيق . ونظرت الى ساعتها .

أطلت أمال بوجهها المشرق وطبق القهوة في يدها فتأملتها هناء ملياً وشعرت برغبة قوية تدفعها للبقاء .. إنها جمـــال وجاذبية وفتوة ..

تفضلي سيدة هناء .

أخذت كوب القهوة من يدها وعينها ترقب الروعة الماثلة أمامها . وضميرها يرقب المستقبل القريب البعيد .

شكراً أمال .. ان قهوتك لذيذة وشهية .لكن ما حيلتي .. يا ليتني أتذوقها معك كل صباح .

وكانت قنبلتها في محلهـــا لأنها حركت شعور ابو وسام وأحس بارتباك . فبادرها قائلا .

سيدة هناء ، قد أحرجت موقفي .. وفكر ملياً ثم جال بصره في أرجاء داره التي عاش بها طفولته وورثها عن اجداده وكأنه يشاهدها لأول مرة وأردف .

إذا كان يروقك السكن بيننا وأحببت أن نخلي لك هذا

المربع الذي نحن به فأهلا بك وألف مرحبا .
شكراً سيد نديم .. لقد غمرتني بلطفك .
ولما شعرت بأنها قد قربت من بغيتها أحبت أن تستعمل الحيلة . ليس هذا المربع فقط يروقني .. إنني أحب السكن معكم ولو اضطررت أن استظل خيمة في العراء .
وتدخل وسام في الحديث .
أبي .. ان العمل في المنزل الجديد يكاد ينتهي . والسيدة هناء تستطيع الانتظار مدة اسبوع على ما أظن .
ونظر الى ضيفتهم نظرة استفسار .
أليس كذلك سيدتي ؟
تغلغل صوت وسام بمسامع هناء كلحن موسيقي دافيء فارتعش قلبها ولفت الرجولة الرانية اليها بنظرة ولها . وكان شيئاً آخر يشد بها لتبقى .
سيد وسام.. لا تحرج والدك إذا كان لا يرغب في تأجيري الدار . لقد غمرتموني بفضلكم.. وكفاني ما لاقيته في ضيافتكم من عطف وإكرام .
سيدة هناء ، لقد أحرجتيني ثانية . وبما أنك بلطفك ودماثة أخلاقك قد ملكت على أمري سأصارحك بواقع الحال كي تعذريني .
لا لزوم لتقديم الأعذار سيدي . إن حسن وفادتك تغني عن كل ذلك .
وهمت بالنهوض فنهض وسام تلقائياً ،وكان دافعاً خفياً..

صلة ما مع نفس حائرة .. شيء في كيانه يبكي .

لا .. لا تدعها تذهب .

رويدك سيدة هناء .. لا أظن . ونظر إلى والده مستنجداً به .. لا أظنك ستغادريننا بهذه السرعة ، إننـــا في وقت الغروب . ووداع الشمس لربوعنا منظر جميل .

هه .. إنك شاعر أيضاً .. لكن .. وصمتت ، لكن ليت هذا المنظر يدوم .

إنني شاعر ؟.. لا .. لأن ما قلته هو عين الواقع . وأما دوام المنظر فأمر طبيعي ما دام في الكون شروق وغروب .

وفيلسوف ايضاً .. هنيئاً لكم أبنـاء الطبيعة ، لأنكم تولدون والمعرفة في فمكم . وأظن ذلك لقربكم من الله .

فضحك الجميع وضحكت معهم هناء .

سيد نديم .. لقد أحسست منذ اللحظة الأولى التي قابلتكم بها بأنني فرد منكم .. ويمكن أن يكون هذا تطفلا مني .

إنك هنا بين أهلك يا ابنتي وسبب ممانعتي بتأجيرك المنزل أمر عائلي محض سأطلعك عليـه كي لا تحملي رفضي هـذا على غير محمله .

سيدي إنني لا أود ان اطلع على اسراركم العائليـــة . وكفاني ما لاقيته من عطفك الأبوي .

إن الذي سأطلعك عليه ليس بسر بل مجرد تدبير خاص وهو نذر كما سيبدو لك . لقد عزمت على تدشين المنزل بحفلة زواج وسام ولا شيء غير ذلك .

زواج وسام ؟ .. رددت في سرها ، وشعرت بانقباض في نفسها . إنها تغار عليه .. ممن ؟ ولماذا ؟ هل أحبته ؟.. ومن أول نظرة ؟

الله يتمم قصدكم بالخير سيدي . وانا أتمنى لكم التوفيق والرخاء من كل قلبي

شكراً على عاطفتك النبيلة نحونا . لقد غمرتينا بلطفك .

سيدي.. إنني سأتطفل عليكم مرة أخرى . هل تستطيع أن ترشدني إلى منزل يكون قريباً منكم ، لأنني أحببت جيرتكم بكل جوارحي .

نظر ابو وسام إلى السيد جميل الذي بقي صامتاً طوال الوقت وسأله .

هل تعلم بخلو أي منزل بقربنا .

فقلب السيد جميل شفتيه .. لا أظن .

وتدخل وسام في الحديث .

أبي إن سكن السيدة هناء في الدار لبضعة أسابيع .. لا يقدم ولا يؤخر لأنه سكن عابر ،ورجائي أن لا تخيب أملها.

راجع السيد نديم أفكاره وهم بالكلام لكنه صمت . فاحترم الجميع صمته .

شعرت أم وسام بانقباض لجهة هناء وودت لو يبقى بعلها مصمماً على الرفض . لماذا .

وسألت نفسها فلم تتلق أي جواب . لكن قلبها كان

يحذرها من أمر غامض ... يجب أن تحمي عشها من طائر غريب سيشاركها في سعادتها وهنائها . وربما قوّض هذه السعادة وهذا الهناء . وصممت على الكلام . لكن بعلها سبقها وتكلم بالإيجاب . فاحترمت إرادته وسكتت على مضض .

قلق . . .

أطل عفيف من بين الصخور ونفاذ الصبر باد على محياه . وتعلق نظره بالطريق لجهة البلدة .

انهن لم يظهرن حتى الآن .. لماذا ؟ . إن الشمس قد أشرفت على المغيب لقد انتظرهن البارحة وأول البارحة .هل كان قدومهن في تلك العصرونية عابراً ؟ ..

وجلس على صخرة صغيرة بتمهل وحذر . ململماً سرج سرواله الكحلي الجديد . كي يحافظ على نظافته . ولمس قميصه الحريرية البيضاء . ثم عدل عقاله المقصب فوق كوفيته، وكانت أسئلة ضمنية تتزاحم في رأسه .

هل هندامه على ما يرام؟. هل شكله جميل يثير إعجابهن؟ هل لباسه يروق في أعينهن ؟ ..

وأطل ثانية في عصبية ظاهرة . لم يأتين أبضاً . ثم جلس بيأس . وتسمر أمام ناظريه طيف أمال معاتباً .

اين وعودك التي اغدقتها علي ؟ .. اين عهودك ؟ .. اين هناءك ؟ ..أين الوفاء للخطيبة المطعونة في فؤادها .. رعود وبروق تضج في رأسه .. آلاف المطارق تدق أعصابه ..

ملايين المسامير تغرز في جسده .. وحمل رأسه بين يديه .

لا .. لا لم أخنك . من قال لك انني خنثت بوعدك ؟ انني أحبك .. وحناني فضاء لا حدود له يلف بحر وجودك . و.. وشاهد في يمينه خنجراً مصقولاً .. لا .. لا اريد .. وتحولت المرئيات امامه الى قلب كبير يفتر عن مبسم كالأمومة رقة .

إنك قاتلي ..إنك قاتلي .. لكنني اسامحك لإنك لا تدري ماذا تفعل .

وهوى الخنجر بغير إرادته فشطر القلب الى شطرين .

وافاق من كابوسه على ضجة قريبة منه . إنهن قادمات .. هـــذه ضحكتهن .. لكن ما لي ولهن . كفاني ما لاقيت بسببهن من عذاب وإرهاق .

رن صوت كلير في مسمعه كالوتر المبحوح .

أما قلت لك يا سلمى انه هنا .. إن قلبي كان يحدثني بذلك . وحديث القلب دائماً لا يخيب ..

أراك تتحدثين بلغة القلوب ؟ .. هل وراء الأكمة مـــا وراءها . وابتسمت في خبث ورياء .

تباً لك من شقية . الهذا الحد وصل ظنك ؟ .. وسألت نفسها هل أحبته ؟ ..

لا .. ان هذا ليس بحب . لكنه أثار فضولها . نعم لقد فكرت به وفكرت طويلا وودت أن تأتي الى حيث شاهدته أول مرة . لكن رفيقاتها لم يوافقنها على ذلك .

وقع عفيف بحيرة ممزوجة بزهو وخيلاء .. إنهن يفكرن

به .. وها بعضهن يتحدثن بخصوصه .. لماذا يا ترى ؟ . لم يشاهدهن عن قريب ، ولم يحدثهن .. هل يظهر امامهن ؟..

ووقف طيف أمال بينه وبينهن وقفة ذليلة ودنا اليه معاتباً، لا .. لن يذهب .. سيبقى وفياً لخطيبته .. انهن في تفكيره عابرات سبيل ، وصمم على الاختفاء .

بقيت كلير مع رفيقاتها ردحاً من الزمن لكن عينهـــا لم تفارق الأكمة الصغيرة القابعة بين صخورهـا عفيف وحدثت نفسها مراراً . هل تذهب اليه ؟ .. ولماذا ؟.. بماذا ستجيبه إن هو سألها ماذا تريدين ؟.. وإن قابلها بقلة اكتراث فماذا سيكون موقفها تجاه رفيقاتها ؟ .. انهن سيشمتن بها .. لا .. لن تذهب .

ما بك يا كلير . أراك شاردة الفكر مشتتة الذهن . أهو صاحبنا يا ترى ؟ .

سلمى .. دعي المزح جانباً .. أبلغت بك السخـافة الى هذا الحد لتظني ان شخصاً مجهولاً يثير اهتمامي . لا .. لقد مر علي مثله كثيرون .

وكانت تعلم انها تكذب على نفسها . إنه يعيش في احلامها .. ويثير فضولها . انه . لكن لا .

ونظرت اليها سلمى بعين شامتة .

كلير .. إنني أدرى الناس بك .. أهو صيد جديد ؟ ..

أثار حوارهما حفيظة رفيقاتهن . فاشتركن معهما بالحديث . وعلقت كل واحدة منهن على الموضوع حسب هواها . وصببنا

كل ما حوت رؤوسهن من تنكيت مستهجن على كلير وفارس احلامها فضحكن وهرجن الى ان شق ضجيجهن عنان السماء.

ثارت كلير لكرامتها ونهضت حامـــلة في رأسها اشياء وأشياء فلحقت بها اوديت لأنها اشفقت عليها .

الى اين يا كلير تمهلي .. انني ذاهبة معك .

لكنها أكملت طريقها دون ان تجيب . ولا حقتها ضحكات المجموعة .

احضراه معكما يا ..

فرت اسراب الحساسين من أمامهـــا وولت لا تلوي على شيء وكان عفيف يطالع فصول مسرحيتهن من فجـــوة بين الصخور ودقات قلبه تتسارع .. انهما تقتربان من موضعه .. هل تقصدانه .

ولماذا ؟ وشعر بانقباض وبرغبة في الفرار .. أمـــال .. لكنه بقي رغماً عنه .

انهما تقتربان ايضاً .. وود ان يتكلم .. أن يقول أي شيء أية حجة يتذرع بها ، وتكلم بديهياً دون أن يظهر لهما .

لقد نفرتما رفوف الحساسين بقدومكما . وأضعتما علي فرصة اترقبها منذ الأصيل .

شعرت كلير بانقباض لهذا الاستقبال الجاف لكنها لم تلق سلاحها لأول وهلة . وردت عليه وكأنها لم تره .

من يكلمنا ؟ أأنس هو أم جني ؟

ولم يقوَ عفيف على الاختفاء اكثر من ذلك .

لا .. انس كما ترين .

شعرت كلير بالجسد الهرقلي يطل عليها من بين الصخور وكأنه احد فوارس العصور الغابرة. وبعينيه النسريتين تحدقان بهما . فلفتها موجة من شعور غريب وحملتها الى دنيا البطلات الخياليات .

لقد اخفتنا .. اهكذا يستقبلون الغريب عندكم ؟

ارتبك عفيف كأنه يقابل فتاة لأول مرة .

اهلاً بقدومكما .. إن ما بدر مني كان عن غير قصد لأنني لم اراكما ، وقلت ذلك دون ان اعلم من القادم .

وتدخلت كلير بعد ان ملكت روعها .

لا تؤاخذنا إن كنا أزعجناك .. ان مرورنا من هنا كان عابراً .

ازعجتماني ؟.. لا .. بالعكس ، إن قدومكما قد سرني ، وتبسم ثم اردف . لقد أزحتما عني كابوس الوحدة .. هل من خدمة أستطيع ان اسديها لكما ؟

شكراً .. إننا .. واحتارت كيف تدخل معه في الموضوع . اننا ..

شعر عفيف ان برأسها شيئاً تريد الافصاح عنه .

وود لو يعرف ما هو هذا الشيء .

وتدخلت اوديت .. هل انت وحيد هنا ؟..

لا . ونعم .

حيرتني بأمرك .. كيف لا .. وكيف نعم ؟ هل يتفق الضدان ؟.

نعم في بعض الأحيان ، ولا .. لأنني عندما أكون هنا في مملكتي الصغيرة وحاشيتي من حولي تنفذ جميع رغباتي ، اعتبر نفسي اسعد خلق الله .

وجالت أفكار عابرة في رأسي كلير وأوديت .

مملكته الصغيرة .. حاشيته .. أسعد خلق الله .

أهو مجنون ؟. وأحستا بالخيبة وببعض الخوف .. وهمتا بالهرب .

قرأ عفيف ما يجول في رأسيهما .. وكانت دلائل الجزع تطل من مقلتيهما .

ما بالكما ؟ .. هل في شكلي ما يخيف ؟..

لا .. إنما خفنا من كثرة أعوانك وعظمة مملكتك فتهيبنا الموقف .

نطقت كلير بذلك ظناً منها بأنها تجاريه في جنونه كي لا يؤذيها .

بالعكس يا آنستي .. إن اعواني لا يأذون احداً .. بل يجلبون الأنس والسلوى لمضيفيهم . وعظمة مملكتي خشوع وعبادة في محراب الله .

لقد حيرتنا في أمرنا .. هل تكلمنا بالأحاجي ؟..

قهقه عفيف عالياً فتجاوبت قهقهاته مع أصداء الوادي السحيق . احاجي ؟ .

وقهقه ثانية .

حقاً ان الذي لا يعيش حياة غيره يجهل اسرارها . وأنا لا ألومكما على عدم معرفتكما وتعرفكما على جمال مملكة الله التي سميتماها احاجي .

شعرت كلير بصغارة نفسها أمام فلسفة عفيف او تفلسفه لكنها لم تلق سلاحها ، فقالت بتهكم مبطن لتثأر لذاتها .

منذ قليل تنازلت واخبرتنا عن عظمة مملكتك .. والآن تكلمنا عن جمال مملكة الله. فأي صلة بين الاثنتين يا ترى ؟.

تغلغل عفيف مع الألم الذي حز في نفس كلير .. وأحس بجرح كبريائها فتدارك الأمر .

عذراً إذا كنت قد تجاوزت حدودي بالحديث معك .

وها انا موضح ما قصدت .

ان مملكتي التي نحن في صددها هي الطبيعة الهادئة بجمالها وروعتها . برهبتها وخشوعها .. وأعواني أسراب الطيور المغردة هنا وهناك .. والرعاة بشباباتهم المبحوحة الشجية النغم .. والحملان الثاغية وراء امهاتها ، وخرير المياه الرتيب شرايين حياة الطبيعة الدائم .. نعم ان الله جمال .. والطبيعة صنع الله . لذا هي مملكته .

احست كلير بصغارة نفسها ثانية أمام هذا القروي الجبار. وارادت ان تفر من صغارتها . لكن شيئاً مجهولاً كان يشدها اليه . فتبسمت لتخفي هزيمتها واردفت .

انك بلاك قد حملتنا الى عالم الممالك والألوهية والجمال .

وهي سلبية . فكيف بنعم . هل لك ان توضح هـذه النعم الإيجابية ؟.. ولنا الله في ذلك .

عرف عفيف بثاقب بصيرته بأنه قد اصبح له دالة عليها فتجرأ وقال .

ان نعم اهون مما تظنين بكثير .. نعم لست وحيـداً لأنكما معي .

تجاوبت القهقهات ثانية وتداخلت موسيقاها . فكانت اروع مثال لسعادة آدم وحواء في ساعة لقائهما .

إن من يجاور الله في مملكته يكون فوق طبيعة البشر .. ألأنت من هذا الصنف يا ترى ؟.. وهل تسمح جلالتكم لشخصنا الضعيف بالمثول بين يديكم لنقدم لشخصكم السامي أجل فروض الطاعة ؟.

نطقت كلير بكلامها وهذا وانحنت في حركة تمثيليـة وكأنها في حضرة ملك .

انتفض عفيف في داخله كمن لسعته أفعى .. مـا معنى حركتها هذه ؟.. وكلامها الذي يدل على عنجهية وتكبر ؟ .. أي دخل لهذه الغريبة في ..وتوقف عن الاسترسال في تفكيره هنيهة ، ناظراً اليها وفي عينيه تأنيب وسؤال .أتسخرين مني؟. وكاد ان ينفجر.. ولكنه كظم غيظه وكلمها بنفس لغتها .

اكون في منتهى السعادة والسرور إذا زدت على عقـد حواريا درتان مثلكما .. آية في الجمال والعذوبة .

إنه قوي وقوي جـداً .. مـا لي وله .. أأعود إدراجي

اجرجر اذيال الخيبة وأتحمل سخرية رفيقاتي ؟ .. لا .. والف لا .. سأقهره ولو اضطررت لأن ،وخطرت في رأسها فكرة..

ان الوصول الى مملكتك صعب كما أرى .. اتسمح بارشادنا الى الطريق ؟ ..

لا اظنكما تستطيعان التسلق والصعود الى هنا . لأن الصخور عالية ومتشابكة .

ماذا ؟..هل بدأت بتصعيب الأمر علينا ؟.إننا سنصعد ، وسترى . واثبتت قولها بالفعل لكن صخرة كبيرة وقفت حائلا دونها .

هه .. ألا تود مساعدتنا ؟..

مساعدتكما ؟ .. ماذا ؟ .. نعم .

كلمها عفيف وكأنه لم يسمعها لأول وهلة ، او كأنه صحا من رقاد عميق . لأن فكره كان محلقاً في البعيد البعيد .. وفي رأسه الف سؤال وسؤال .. ونظره متنقل بين صدرها الممتلىء النهدين وبين صدر اوديت الذي يضاهيه في النفور . وكان بحكم وقوفه فوقها يشرف على المنظر من علٍ فتتوضح أمامه الأشياء اكثر فأكثر ، وكلما اقتربتا منه كلما ازدادت دهشته .

ماذا ؟.. وفرك عينيه .. هل انا في حلم ؟ .. وتحسس نتوء الصخرة التي بقربه فآلم يديه . لا .. انها الحقيقة .. ها نهداها بواديها المغري يكاد لا يسترهما شيء . . وصدرتهما الصغيرة بلونها الزهري تكاد تتمزق تحت ضغط منقاري زغلوليها الشرسين .

ماذا دهاك ؟ .. منذ هنيهة كنت في عقلك .. هــل ..

وامسكت عن الكلام .

نزل عفيف عن الصخرة بحركة لا شعورية وكأنه يسير فوق طريق معبدة .

أما زلت مصممة على الصعود ؟..

طبعاً ..

إذن أعطني يدك .

تفضل ..

وعندما لمس يدها المخملية شعر برعشة غريبة في داخــله وبشيء ما يصعد الى رأسه .

ضعي قدمك هنا .. في هــذه الفجوة .

اف .. انني لا استطيع . ان ..

ونظر اليها .

نعم انه فسطانك .. هل جميع لبسكم على هذا الشكل في المدينة ؟..

وكان فسطانها الأحمر الضيق يشد على جنبيها ويقيــد حركتها .

رفعت كلير فستانها الى أعلى لتسهل حركة تنقلها دون ان تعلق على ملاحظة عفيف .. فزاد اندهاشه واتسعت حدقتا عينيه .

وبحكم تسلقها على الصخور كانت ترفع رجلها بين الفينــة

والفينة فيرتفع فسطانها أكثر فأكثر ليكشف عن فخذيها البلوريين وأحياناً عن .. الأبيض اللون .

سكر عفيف من غير خمر وغاب في مهامه دنيا لم يألفها طول حياته .. فأغمض عينيه وسأل نفسه ثانية . هل أنا في حلم ؟ .. هل ما يمثل امامي من جراء تخيلاتي المشبوبة ؟.. هل هي الوحدة التي تضغط على افكاري وتزين لي ما أرى ؟

نعم .. نعم .. ليتها اليقظة .. ليتها الحقيقة .

لكن صوت كلير أخرجه من حيرته وتحسس واقعه .

خي .. الحمد لله .. اظن انني قد اتيت من الأبدية .. واتجهت نحو عفيف ..

كيف تستطيع الصعود الى هنا بمفردك ؟..

آه .. ماذا بمفردي ؟.. ان هذا سهل بالنسبة لي لأنني معتاد عليه .

اقترب .. ولما شعرت بتضعضعه عرفت اين نقطة الضعف فيه فكتمت في نفسها اشياء واشياء ..

اقترب .. ضع يدك على قلبي لتلمس ما قاسيت من هلع وخوف .

دهش عفيف لهذه المفاجأة ، وتساءل في سره . ماذا ؟.. اضع يدي على قلبها ؟.

واقتربت منه حتى لامست وجهه بشعرها الخرنوبي ففاحت منه رائحة انوثتها الطاغية . ثم قالت ما بك ؟ .

لعل عدوى الخوف انتقلت اليك ؟.

كلا .. لكن .

لكن ماذا ؟. اعطني يدك .

ولم تترك له فرصة الخيار . فأخذت يده بيدها البضة ووضعتها على قلبها ، فبدا صاعداً هابطاً كصعود افكار عفيف وهبوطها . إذ شعر برعشة خفية تسري في اوصاله ، والدماء تندفع حارة إلى وجنتيه ،وجال في رحاب ماضيه .خطيبته.. بنات القرية .. شريط سريع مر في مخيلته . . تحفظ . . خفر وحياء .. ثم تساءل :

هو وخطيبته لم تتلامس ايديهما إلا في حالات السلام وإن تلامست ففي شيء من الحيطة والحذر . وها قد مضى على خطبتهما ما يقارب الثلاثة أشهر ومعاملتها لم تتبدل عن ذي قبل ، ألا بث ما يختلج في قلبيهما من حب عذري وآمال عذاب ، يبنيان عليها صرح مستقبلهما .

جالت هذه الأفكار في رأسه بسرعة خاطفة فقارنها مع وضع كلير لكنه وجد البون شاسعاً بين الحالتين ، فقلب شفتيه بقلة اكتراث وأجاب نفسه ، ما لي ولها فلتذهب الى الشيطان ..

قطعت اوديت حبل تفكيره عندما سألته عن اسمه وكنيته .

فأجابها :

عفيف تامر ..

تشرفنا .. اوديت صعب.. رفيقتي كلير ضو من بيروت.
نقضي فصل الصيف بين ربوعكم .

على الرحب والسعة ... فالبلاد بلادكم .

ونظرت كلير نحو اوديت وغمزتها بطرف عينها .. ففهمت ما ترمي اليه .

ان رفيقاتنا في الناحية الأخرى يودون التعرف عليك .

رفيقاتهن يودون التعرف علي ؟.. لماذا ؟ .. أي دخل لي معهن ؟ وجاءه الجواب سلباً ، وكان شيء آخر يناديه فصمم على الاعتذار .

انني اتمنى ذلك من كل قلبي .. لكنني مرتبط بوعد .. فلندع هذا لوقت آخر .

تقدمت منه كلير والبسمة تعلو ثغرها .. ثم قالت :

أتخيب رجاءنا من اول لقاء ؟ .. كلا . لا اظنك تفعل .. ورافق صوتها رنة موسيقية مشبعة بالغنج والدلال .

مشهد لم يتعوده عفيف . ولم يكن عنده الاستعداد الكافي كي يصمد في وجه تياره . فأجابها متلعثماً .

انني ..

ولم تترك له فرصة كي يكمل .

لا .. لا .. لن ندعك تتأخر كثيراً . ولنذهب سريعاً كي لا يسبقنا الوقت .

غلب الحيـاء على عفيف وذهب بصحبتها فشعرتا بنشوة الفوز على اترابها وتقدمتاه مزهوتين فرحتين .

تلقفتها نظرات الرفيقات ودلائل الحسد تغمر الوجـوه . لكنها سترت ببسمات بدت على الثغور وانطلقت الألسن تكيل عبارات الترحيب بالزائر الشاب .

ثم أحاطت به الفتيات وقد رسمن حوله شبه دائرة .

وكان زيه القروي ، كوفية وسروال ، ثم صدرته المزررة وزناره العريض مستهجناً عندهن . لكن فتوته غلبت على زيه فطالعته بنظرات الإعجـــاب . وكانت كل منهن ترسم في مخيلتها صورة تمثل القوة والجمال . فهذه تتمنى فتى أحلامها عريض المنكبين ، مفتول الساعد ، وتلك وسيم الطلعة بسام المحيا . وأخرى ذكياً نجيباً فوجدن بعفيف ضالتهن المنشودة ، لأنه حاو على جميع الصفات التي يبغونها . وقدمته كلير لهن بأنفة وشموخ .

عفيف تامر من أعيان بسكنتا .

صديقاتي .. جورجيت .. عفاف وإلهام .

تم التعارف بين الجميع وانهالت على عفيف عبارات الثناء وهو يرد عليهن بألطف منهن .

داومن على هذه الحالة بين سؤال وجواب ، هو عن المدينة وعاداتها . وهن عن البلدة ومنتزهاتها الى ان تخضبت الطبيعة بدماء الغروب فاستأذن عفيف منهن وقال :

اني أود الذهاب .. وقد تأخرت كثيراً فأرجو عـدم المؤاخذة .

علام العجلة ؟ .. وشعرت كلير بشيء خفي يربطها به .

هل موعدك على هذا المقدار من الأهمية كي تتركنـــا عاجلاً ؟ أم لا تعجبك صحبتنا ؟..

ان صحبتكن تشرفني .. لكنني على موعد مع خطيبتي. قالها وإشعاع الوفاء يملأ تموجات صوته .

اتجهت نظرات الرفيقات نحوها شامتة مستهزأة . فتحدت النظرات بمثلها ولسان حالها يقول : سوف نرى لمن ستكون الغلبة . وعضت الغيرة قلبهـا لكنها أخفت كمدهـا ببسمة مصطنعة .

خطيبتك ؟ . وهل انت خاطب ؟

نعم منذ ثلاثة اشهر تقريباً وقد تعاهدنا على الاجتماع في كل مساء عند الغروب .

اتحبها بهذا المقدار ؟.

انني لا أحبها فقط .. بل اعبدها ..

أهي جميلة ؟

نعم جميلة .

بورك لك فيها . واضمرت في قلبهـا اشياء وأشياء . ثم اردفت .. اننا سنذهب ايضاً .. ألا تود مرافقتنا ؟..

على رسلك سأرافقكن .. لكن يجب أن نعود الآن .

جورجيت .. إلهام .. هيا لنجمع حوائجنا ، لقد تأخرنا.

لم عفيف قضبان الدبق ، وخبـأ شلته في مكان أمـين .

ولمت كلير ورفيقاتها حوائجهن ثم سرن الهوينا يقتلن الوقت بأحاديث مختلفة .

وكانت كلير لولب الحديث . تلقي نكاتها بأسلوب طلي فرح ، وبشيء من الإباحية فيقهقهن لفكاهتها النادرة .

مضى الوقت سريعاً دون أن يشعرن به . وألقى الليل بوشاحه على جنبات البلدة وتنبه عفيف لتأخره عن لقاء خطيبته وشعر بتأنيب الضمير لتركه إياها مع وحشة الليل ورهبة الانفراد ومضض الانتظار . فود لو يكن له جناحان ليطير اليها .

شعرت كلير بارتباكه ، فسألته ما بك ؟

لا شيء .. لكنني أود الإسراع .. لقد تأخرت كثيراً .

أجابها عفيف بحرقة ولوعة سرت في قلبها سريان النار في الهشيم .. فاخفت ما بها ولم تدعه يذهب إلا بعد ان قطع لها وعداً بلقاء لاحق .

ضنك ... وإرهاق

دبت الحركة في المنزل الجديد عند السيد نديم وكانت السيدة هناء لولبها فتنقلت من الدار الى غرفة النوم ، الى غرفة الاستقبال ،إلى غرفة المائدة ،إلى المطبخ لتلقي باوامرها إلى خادمتيها وإلى الحمالين كي يحافظوا على الأثاث الجميل ، ويضعوا كل قطعة منه في المكان الذي تحدده لهم وكان ذوقها سليماً وأثاثها فاخراً لذا بدت الدار روعة في الإتقان والإبداع.

وبعد الانتهاء من العمل أخلد الجميع إلى الراحة فخيم السكون على الفيلا الصغيرة إذا جاز أن نسمي الدار بفيلا . فمن الحجر المقصوب إلى الهندسة المتقنة إلى غابة الصنوبر التي تحيط بها ، إلى خمائل الورود في الباحة ، الى أشجار التفاح والخوخ والإجاص الممتدة أمامها ، إلى الجو الهادىء والطبيعة المرحة المخيمة عليها ، الى أجواق الحساسين وعصافير الدوري المغردة فوق أفنان أشجارها . ونامت ربة الدار باكراً على غير عادتها لأن السفر وعناء الانتقال قد حطما قواها .

نامت بجسدها لكن عقلها كان يعمل عكس إرادتها . وفكرها مشوشاً يتنقل بها بين ذكريات ماضيها ثم يدور ويدور

ليثبت فوق نقطة معينة محور دوار في عالم جديد تجذبه قوة ممغنطة خارجة عن نطاق مفهوم البشر .

جاذبية الحب .. هل أحبته ؟ ومن أول نظرة ؟ .. لا والف لا .. انها غيمة صيف وستزول كرفيقاتها ، لا لم تحب بعد فشلها بحبها الأول ولن تحب .. إنه الانتقام .. وتعيش لتنتقم ، لكن وسام من غير معدن الرجال الذين عرفتهم .. إنه مادة خام .. وسيكون لها . رجولته ، زنده المفتول . شعر صدره الكث الذي يطل من فتحة قميصه . النظرات الآسرة التي تشع من عينيه .. وأخيراً جوعها إلى الجنس ، نعم سيكون لها وبأية وسيلة . شعرت باختناق وبجو الغرفة يضغط عليها فتململت في سريرها وتقلبت ذات اليمين وذات اليسار لتفرج كربتها ، فلم يزدها ذلك إلا اختناقاً . ورغبت بالصياح .. وكان صياحاً مكتوماً .. رباه أي ضنك رميتني به ؟ وأخذ طوق قميص النوم الحريري يضيق حول عنقها مع أنه ذا فتحة واسعة ،ومررت يدها على رقبتها بتشنج وعصبية ، وكأنها تقطع سلاسل حديدية . ونهضت صارخة .. هواء .. هواء .. اريد هواء ، وبقي صراخها دون مجيب لأن سلطان النوم كان حاكماً على الجميع . اندفعت نحو النوافذ المشرفة على الغابة وأزاحت الستائر عنها ثم فتحتها الواحدة تلو الأخرى . وتسرب نسيم الصنوبر الى الداخل وتغلغل في حنايا نفسها المرتعشة فشعرت بدبيب الكرى يداعب أجفانها ثانية . والقت بجسدها المنهوك فوق سريرها دون وعي واستسلمت لملك الوسن .

في العرزال

ارتقى وسام درجات السلم الأثني عشرة بخفة النمر ورمى بنفسه فوق الفرشة الممدودة في العرزال القابع في قلب شبوق السنديان الكبير المعرش وكانت روحه تطفح سروراً وبهجة، كيف لا وجميع مواسمه تبشر بالخير الوفير، فمن مو-م الكرز الذي اشتهرت به بلدته التي أصبحت مضرب الأمثال حيث يقال لكل نوع يراد التعريف عن وجـودته (هـذا كرز بكستناوي) الى الكروم التي اثقلت بعناقيدها، إلى بساتين التفاح والإجاص وغيرها الدالة على الإقبال والجودة، وأبقاره والمنحلة المتنكسة في آخر الجل الكبير قرب النهر وأهـله وصحبه وكل ما يحيط به صحة وفرح وسلام. وأخـيراً تتطرق بفكره الى نذر أبيه .. لا أود تأجير المنزل لأنني أود تدشينه بحفـلة زواج وسام .. زواج .. وضحـك متمهلاً. ليت ابي يعرف انني لا أحب الزواج الباكر وان في رأسي مشاريع كبيرة أود التفرغ لها قبل الزواج .. وهناء هـذه السيدة الجميلة المتأنقة يا ترى هل أعجبها المنزل الجديد؟

وهل .. ماذا؟ ماذا اسمع؟ .. ونهض مع القمر وانسل

بصحبتها الى داخل غرفة نوم هناء . لأن العزال كان يشرف عليها مباشرة . ما بها ؟ أي خطب دهاها ؟.. لا شيء .. ها هي تعود الى سريرها هادئة .. يجوز ان تكون مريضة .

بعد هذه الحادثة جفا النعاس أجفانه وتقاذفته لجج أفكار ووساوس متناقضة أقضت مضجعه فجلس على باب العزال وسرح بخياله مع البدر يستشفه أسرار الغيب . وبينما هو سارد مع تجوال تصوراته حانت منه التفاتة الى غرفة هناء ، فوقع بصره على مشهد لم يألفه طول حياته ، فخفق فؤاده وارتعشت اوصاله لكنه أشاح عنه تأدباً .. لا يحق له ان يتلصص على منازل الغير . ان هذا تعدٍ على حرمة دور الآخرين .. لا . لا اريد ، لكن روعة المشهد كانت تشده اليها دون إرادته مسوقاً مع فورة الشباب . الجو هادىء تشوبه حرارة معتدلة تدعو الأجساد للتحرر مما عليها . والقمر في ليلته العاشرة ينير دقائق محتويات الوجود حتى في داخل الغرف المشرعة النوافذ ، وسلطان الوسن المسيطر على الأرواح العلوية حرر الأجساد المادية من عبودية الأخلاق والعيب فتقلبت في أسرتها دون حسيب ولا رقيب .

وكانت هناء قد تعودت الحرية وهي في كامل وعيها ، فكيف وهي مستسلمة الى السبات العميق .. ووسام بروحه النقية كان له جسد طماح انجذب نحو الإغراء الممدد في الداخل .

صورة إلهام لرسام عبقري . سرير خشبي بلون البرتقال ،

فرشه ديباج كالزهر صفاء وحورية حررت جسدهــا إلا من غلالة شفافة سرقت من السماء زرقتهــا . وبحكم تقلبها انحسرت الغلالة إلى أعلى فلمع البرونز مفضضاً تحت حرارة أنفاس البدر العاشق . أما هرماها الصغيران فقد اشرأبا الى أعلى يتحديان العينين الناظرتين اليهما .

رباه .. رباه .. انني ضعيف ، أنقــذني من التجربة أنا عبدك الخاطىء ، ودفن رأسه بين يديـه . انقذني . ورن في مسمعه صوت والدته . ابتعد يا بني عن النساء الشريرات لأنهن علة العلل ثم جاءه نداء الضمير مردداً . ابتعد .. ابتعـد .. وأفاق في جسده وحش كامن لم يدر بأية طريقة يسكنه .. ثورة تتقاذفه .. تتفجر في كيانه .. تصعد الى دماغه ، ودمه يغلي في عروقه حاراً ملتهباً .. أية نكبة بليت بها ؟ .. انها الشيطان .. انها الشيطان .. و ..

وبفعل إيمانه بدأ بالصلاة فغفى وهو يتلو ما يخطر على باله من ترانيم دون التركيز على قطعة معينة .

ومع تنهدات الفجر هبت نسمة صباحية باردة ولفحت الجسد المكشوف فتململت هناء في سريرها وردت الغطاء عليها وعاودتها وساوس الأمس فلم تعد تقوى على الرقاد . نهضت متثاقلة وآثار الأعياء بادية على محياها .. ماذا تريد ؟ ماذا تقصد ؟.. انها لا تدري . إن افكارها مشوشة ورأسها يدور كحجر الرحى ، ومع خفقات قلبهـا كانت تردد : وسام .. وسام..الوقت باكراً والجميع نيام وما عليها سوى الانتظار.

لكن مضض الانتظار ثقيل ، وأخذت تذرع الغرفة ذهاباً وإياباً .

ولاحت منها التفاتة فشاهدت وسام ينزل من العرزال ويتوجه نحو البيت . فاندفعت تجاه النافذة دون وعي ونادت بأعلى صوتها . سيد وسام .. سيد وسام .. إنني بحاجة اليك .

اندهش وسام للمفاجأة . انها بحاجة الي ..؟ وفي هذا الوقت الباكر ؟ .. لماذا ؟ .. لا بد ان الأمر جلل .

صحت هناء من سكرتها . بماذا ستتذرع إن هو سألها ماذا تريد؟ .. ما موقفها تجاهه ؟ .. وأتتها فكرة مفاجئة . المرض .. المرض .. انها ستتمارض وستسأله عن أقرب طبيب ، وتعمدت الظهور أمامه بثياب النوم .. انها ستهاجمه من أول لقاء .

صعق وسام للمقابلة الغير منتظرة وردد سراً : انها الشيطان .. انها الشيطان .. وأراد الفرار .

قرأت هناء ما يجول بفكره ورأت رعشته في عينيه .. إنه ساذج وليس بمجرب .. جواد صعب المراس ..

سيد وسام .. ما بك ؟ . تفضل ادخل ، وتبسمت باعياء .

ولج وسام الى الداخل دون إرادته وأشاح ببصره عنها . لكنه أحس وكأنها حية رقطاء تلف حول عنقه . أين منها ملاك الأمس ؟ أين لطفها ودماثة اخلاقها ؟ اين تحفظها ورزانتها ؟ أية صلة تربطه بها ؟ .. بالأمس عندما رفض والده تأجيرها المنزل شعر وكأن قطعة من نفسه قد سرقها سارق ما .

سيد وسام .. لماذا تشيح ببصرك عني ؟ هل أخفتك ؟ إنني .. وتركت له الخيار كي يستعيد وعيه .

وتمالك وسام نفسه قليلاً وأجابها دون أن يرفع نظره اليها .

سيدتي .. إنك قد ناديتني وها أنا رهن إشارتك .. هل من خدمة أستطيع أن اسديها اليك ؟..

انني أشكرك على تلبيتك ندائي .. كان عارضاً بسيطاً قد ألم بي .. لكن آثاره بدأت تزول رويداً . ولم يعد لزوم لإزعاجك . انه وجع رأس يعاودني في بعض الأحيان .. صرع ثقيل . هل يوجد أطباء في بلدتكم ؟.

نعم .. وبفضل نباهته علم انها حجة أرادت الوصول اليه بواسطتها .

وعرف انه قد لاقى في عينيها حظوة ، وقرر ان يتغلب عليها .

اكتفت هناء بهجومها الأول وأخذت روباً خمري اللون كان على المشجب بقربها فلبسته ونادت خادمتها التي رأتها من فتحة الباب .

وكانت الخادمة قد صحت على نداء سيدتها عندما دعت الضيف . لكنها لم تحب إزعاجها لأنها تعرف طريقتها في الاستقبال وخاصة للطرائد الجديدة .

سيدتي .. انني اشكرك على حسن ضيافتك . وأود لو تسمحين لي بالذهاب لأنني صحوت متأخراً وهذا وقت ذهابي إلى العمل .

لا .. لا .. إنه فنجان قهوة وتذهب . أتبخل علينا بهذا الوقت الوجيز ؟

ابتسم وسام لأول مرة ونظر اليها بحرية ، وأراد أن يبادلها الهجوم .

سيدة هناء .. لقد أحرجت موقفي .. أهكذا تطورت الحرية عندكم .. الى حد ، وتوقف عن الكلام ليتثبت أفهمت مرماه أم لا . لكن هي فهمت وتعامت .

أية حرية تعني سيدي ؟..

أيصارحها ؟.. واحتار في أمره . كيف ؟ من أين يبدأ ؟ أعني العادات في القرى غيرها في المدينة .

صرّح .. صرح .. سيد وسام . اية عادات تقصد ؟.

وبدلت جلستها على المقعد المقابل لمقعد وسام فانحسر الروب قليلاً وانفرجت فتحته الأمامية ، فبان القسم الأعلى من جنبيها السمراوين وكانا أنصع رد لسؤاله .

طاش عقل وسام من قحتها وإباحيتها وود لو يستطيع أن يصفعها ويبصق في وجهها قائلاً : سافلة . منحطة . لكن امنيته بقيت طي ضميره الصارخ ، انها الشيطان .. انها الشيطان ..

سيد وسام .. أراك تكتم عني شيئاً تود البوح به لكنه يقف على شفتيك . وكانت تعلم أية صفة ينعتها بها قبل أن ينطق . لكنها أرادت أن تتلاعب بعواطفه .

هلا أفصحت عما تريد ، وأعدك بأن أكون صريحة معك .

سيدتي .. ان الأمر لا يتعــدى كونه خاطراً عابراً لا يستحق الاهتمام .. وتعلق نظره بباب المطبخ وبداخلـه نداء يستحث الخادمة على الإسراع بفنجان القهوة ليتخلص من مأزق وجد به دون إرادته .

وسعت هناء جلستها فانفرج الروب أكثر فأكثر وبانت مخبآت كنوزها ، ثم علت ثغرها الكرزي ابتسامة آسرة .

سيدي .. انني غريبة هنـــا والغريب أعمى . أتتكرم وتخبرني ببعض عادات بلدتكم كي لا أقع بمحظور ألام عليه فيما بعد .

قهقه وسام في داخله وكاد ينفجر من الغيـظ . إلهذا الحد تستخف بي ؟. إنها كالحرباء تلوناً . وصمم على مجابهتهــا ولو أدى ذلك لإغضابها وحتى لطردها إذا أمكن الأمر .

سيدتي .. قالها بتهكم .

إن أول العادات الغير مستحبة عندنا هي جلستك هذه . وأشار إلى روبها المنفرج .

شعرت هناء بخفر الأنثى وتورد خداها كجمرات كانون . فلملمت نفسها وتكورت على ذاتها ، إذ رأت دماء كرامتهــا تسفح أمام ناظريها ، لكنها لم تفقـــد رباطة جأشها .. إنه وقح .. وعلى غير الصورة التي تخيلته بها سابقاً . ثم عدلت خطة هجومها ..

سيدي .. إنني أشكرك على ملاحظتك هذه . لكن هذا شيء لا اهمية له عندنا .. إنها الحرية يا وسام . وكل امرىء

يستطيع أن يعيش على هواه في المدينة .. إنها الموضـــة ..
وكان حديثها ببساطة متناهية .

سيدتي .. إنها مجرد ملاحظة فقـــط ، وأنت حرة في تصرفك داخل منزلك. ولكن في الخارج هذا شيء مستهجن..
وشدد على كلمة الخارج .

شكراً على ملاحظتك سيدي ..

وحضرت الخادمة بإيماءة من سيدتها فقطعت عليها الحديث. ثم قدمت القهوة إلى وسام فرشف فنجانه على عجل وانصرف معتذراً .

تأنق عفيف بلباسه ورش على نفسه كثيراً من العطور على غير عادته . ونظر الى ساعته متأففاً . ان موعده مع كلير في الساعة الرابعة بعد الظهر ، وساعته الآن تشير الى الثانية. ان الوقت ثقيل وهذه الساعة تسير ببطء .. ليتها تسرع .. وبدأ بحساب الزمن الباقي له قبل الموعد ، كيف يقضيه الى أن يحين اللقاء .

الطريق الى المردات .. ربع ساعـــة . ولنفترض انهن حضرن الى الموعد قبل ربع ساعة ايضاً .. هـــذا نصف . والباقي ؟. أيذهب الى بيت خطيبته ويتلهى معهـــا ببعض السخافات ؟ .. واتجه تفكيره إلى ناحية اخرى . خطيبته؟. لماذا يعد الوقت معها تلهيــاً وسخافات ؟ .. هل استنفد كل عواطفه نحوها ؟.. ألم يعد عنده ما يبثـــه لها من لواعج غرامه ؟ وهل ؟. وهل ؟. وهل تبدلت عواطفه لهذا الحد يا

ترى ؟. أسئلة لم يتلقَ لها جواباً سوى برودة لاذعة لفت قلبه بغشاء صفيق .. إنه مجرم .. دجال .. وكل كلمة ينطق بها نحوها طعنة في صميم الوفاء . لماذا ؟. وشعر بذله .. إنه لا يدري .. لا .. لن يذهب اليها وفي قلبه هذه البرودة .. سيذهب الى المردات فوراً .

كان في خاطر كلير نفس الإلحاح وفي قلبها ذات النجوى . فتخطت الوقت وذهبت الى المكان المعهود قبل الوقت المحدد بساعة تقريباً ورجاؤها ان يكون في قلب فارسها ما بقلبها من توق وحنين .. وكان حدثها في محله إذ شاهدته على ذات الرابية ونظره معلق على منعطفات الطريق . فتألقت نفسها شعاعاً . إنه يفكر بها .. إنه .. وهل يحبها ؟ سؤال طرحه قلبها على نفسها .. لا أدري . ربما .. ووصلت إلى نفس الصخرة ، صخرة السكارى فنادته لتوها . عفيف .. هلو عفيف .. ولوحت بيدها ولوح لها ايضاً . ثم حضر على الفور فاستقبلته بحفاوة وترحاب .

أما رفيقاتها فلم يضعن الوقت فنشرن حوائجهن هنا وهناك . وبدأن بتحضير التبولة .

عفيف .. ظننتك ستحنث بوعدك ، وتخيب أملي فيك . ورنت إليه بنظرة ولهى .

لماذا شككت بوفائي لوعدك ؟ .. هل بدر مني ما يدل على ذلك ؟..

لا .. لكن خطيبتك .. قاتل الله الشك ، قلت إنني في

حياته عابرت سبيل .. وسكتنت لترى ما مقدار قوة مفعول قنبلتها .

وقف طيف آمال بينه وبينها فارتعدت فرائصه . لماذا دائماً خطيبتي في الوسط ؟. ألم آت لموعدها وكفى ؟. انها حواء . انها الغيرة .. خطيبتي ، وماد دخل خطيبتي بيننا .. لها وقتي عندما أكون بصحبتها،وبعد ذلك أنا حر التصرف.. أهي الغيرة يا ترى ؟

فقهقهت كلير عالياً .. الغيرة ؟.. ولماذا أغار ؟

الجواب عندك .. لست أدري ..

الجواب عندي ؟.. لست تدري ؟ هل أستطيع أن أفهم ما ترمي إليه ؟..

لا شيء انه تخمين فقط ..

كلير. ألم نأت لسوى الحديث؟..تعالي وساعدينا..وإلا..

وإلا ماذا ؟..

وإلا سنحرمك من الأكل لأن التي لا تعمل لا تأكل..

أنت عفريتة يا أوديت .. وإذا ذهبت وساعدتكن أأترك السيد عفيف وحيداً ؟. وهل هذا يليق بنا ؟ وكانت قد انتحت به صخرة قريبة .. لا .. لا أظن هذا يجوز .

لعبت الوساوس برأس عفيف . إنه معها وحيداً . وهي شهية .. لقمة سائغة .. إنها تدفعه لملاعبتها . تتحرش به .. وصدرها ونهداها النصف عاريان .. وفسطانها الضيق.. لكن لا ، الخيانة ، الشرف ، وأي ضير إذا لاعبها ؟.. أليست

هي التي تريد ذلك ؟ وأنقذه من ورطته قدوم أوديت .

إن التبولة قد انتهت هيا إلى الأكل .

عضت كلير على شفتها من الغضب لأنها شعرت بسيطرة أنوثتها عليه .. وكادت تغويه ..

ونظرت إليها أوديت نظرة ذات مغزى .. إنه ليس لك وحدك كي تستأثري به .

كانت التبولة شهية خصوصاً وشلة من الحسان يتحلقن حولها .. وكان عفيف بينهن كالأمير مع جواريه . هذه تضع له لقمة في فمه ، وتلك تقدم له أخرى . وأخرى تسرق ما بيده ، وهو معهن كالمأخوذ لا يصدق ما يرى ، وأكواب العرق والنبيذ تتعانق بنشوة وفرح .

كاسك سيد عفيف.. هل أنت مسرور بيننا ؟..

وتساءلين أأنا مسرور بينكن ؟.. وقهقه ثملاً بفعل خمرتين لم يتعودهما طوال حياته .. دماء الكرمة .. وكرم الحسان.. أبعد هذا السرور سرور ؟ لا وحق مبدع الأكوان .

لعبت الخمرة برأس كلير ، ولعبت أشياء اخرى بجسدها. فألقت بصدرها على عفيف وكادت تقبله لولا خوفها من الرفاق . فانعصر نهداها على المنكب العريض وانفلت منهما إشعاع ممغنط تسرب الى قلب الفارس المحظوط . لكنها لم تدع الفرصة تفوتها فأطبقت على اذنه بعطرها ..الى الرابية . اسبقني الى الرابية . سأوافيك بعد قليل ، وتكررت المواعيد وتكرر اللقاء .. وكان ما كان ..

كشف الخيانة

ذبلت أمال كسراج نضب زيته وانطفأت جذوة البهاء فيها ، فرق عودها واصفر لون وجهها وترك الأرق حول عينيها هالة سوداء كقلبها تماماً . انه اليوم الخامس على التوالي الذي وافت به عفيفاً إلى مهد غرامها ولم يأت . فشهدت السنديانة مأساة فؤاد عضه الهجران . بناب الفراق فعمق الجرح وقيحـــه . وانهطل من المآقي دمع مدرار رق له المقعـــد الحجري رفيق احلام الأمس ، وغسل جذع السنديانة شاهد العهود العذاب ، وروى ورود واعشاب الهوى العـــذرى البكر سراب الاخيلة المشعة بالصدق والأخلاص . عفيف .. نعم انـــه عفيف رفيق صباها لقد انقطع عنها .. انه يخونها مع فتيات دخيلات .. انها تحققت من ذلك بعد مراقبته أمس .. انها رأته وهي في طريقها إلى الكروم في المردات بصحبتهن.رباه ماذا اعمل ؟.. ارشدني يا الهي انر سبيلي . رده الي ، وشهقت ببكاء صامت متقطع ، ثم سمعت وقع خطوات قادمة نحوها،أهو عفيف؟.. هل استجاب الرب لدعائي ؟ هل حن لشقائي ؟. هل أشفق على صبـــاي ؟. رباه أي شيء يبقى لي في هـــذه الحياة إذا

فقدته ؟. انه لجسدي بمثابة الروح .. الموت من بعده .. نعم الموت . وكان ترديدها لهذا الهذيان بصوت مسموع فتلقفته آذان القادم وتسمر في مكانه .

أي ذنب اقترفته تجاهه ؟ أي جرم جنته عليه ؟ الم تهبه نقاوة قلبها ؟. وعفاف روحها؟.. وها هي تنزله بالمنزلة الاولى بعد الله . انه مجرم . سفاح . لا يحق له تدنيس هذه الزنبقة الطهور وانكفاء على نفسه يود الرجوع .. لا .. لا سيتوب.. سيكون لها بكليته .. انها خطيبته ، وهن بائعات لذة ، فاقدات العفاف .

اللذة ؟.. العفاف ؟. وقهقه الرجل المشبوب في داخله .. هل اروع من رشف اللذة من عدة ينابيع ومناهل ؟. والعبث بالعفاف المزروع في الرياض العامة ؟ انه التنوع..انها الحرية.. ولكل زهرة عبير .. تنقل كالفراشات بين الاقاحي . كن كالنحل بين الخمائل . ان جودة العسل في تنوع الرحيق المجنى .. أنت عايشتها في طفولتها وتطورتما لحد البلوغ ، وبعد النضوج كانت فتاة خيالك ورفيقة صباك .. وهي الآن خطيبتك .. اجبني..لماذا تجبن ؟ في طوال هذه المدة الزاهرة، روعة العمر ، هل تذوقت بعضاً من حلاوتها ؟ هل نهلت من معين ملذاتها ؟.. هل افرحت شبابك بمتعة انوثتها ؟.. لا .. وألف لا .. عهود ومواثيق ونجوى هذه كانت حياتك معها وخفق فؤاده .. انها تبكي .. تتألم .. تتعذب لأجلي ، ستكون امرأتي في القريب العاجل .. لماذا اتخطى الحواجز ؟

الدين .. الكرامة .. الشرف ، ووصـايا الله العشر . ان الزهرة المباحة التي تتناقلها الأيدي تفقد قوة شذاها . والينبوع الذي تتكاثر عليه الأرجل تنعكر مياهـه ويفسد طعمـه .. والمشاركة في الأشياء تمحو بهجة التملك ..

وتقدم نحوها برهبة ووجل . فرفعت رأسها اليـه وندت عن صدرها زفرة مكبوتة .

آه .. عفيف .. هذا لا يصدق . انه طيف ، انها رؤيا .

وخنقتها العبرات فدفنت رأسها بين طيات ثوبها الفضفاض .

أمال .. حبيبتي أمال .. إنني هنا .. نعم أنا عفيف .. بلحمي ودمي .

لا .. إنك لست عفيفي ، عفيف الذي أحبـه ، إنك عفيف الآخرين .

أمال ، أي خطب دهاك ؟ .. لماذا البـكاء ؟. أنا هنا انهضي .. انظري إلي . بربك أمال .

أما أمال فبقيت على حالها ، بكاء .. وبكاء وبكاء .. ووقف عفيف فوق رأسها لا يجرؤ على لمسها . ما هذا الجلال ؟ ما هذه المهابة .. إنها آلهة .. آلهة . إنها ليست كالآخرين ، هل يهرب ، هـل يفر من خذلانه ، بأي عذر سيتذرع .. عفيف الآخرين .. هل وقفت على أمره .. وصـدم عقله بفاجعة أخرى ، هل أخبرت والديها ،ووسام هل علم بجنايته، كيف سيقابلهم ، بأي وجه ، وأشكل عليه الحل لكنـه قابله في السوق عند الظهر . وكان في منزل حمويه منذ هنيهة،

لم يلاحظ أي تغيير في معاملتها تجاهه .. وخرج باستنتاج .. لم تخبرهم . وشعر بارتياح ، سيبدل معاملته معها ، سيصلح غلطته .

أمال .. هل سنبقى على ما نحن عليه .. انهضي . وتقدم نحوها ثم رفع رأسها بين يديه ، لا .. ابتعد عني .. دعني لشقائي ، إنني تعسة منبوذة .

وشعرت أمال بثورة .. برغبـــة في طرده .. بالثأر لكرامتها الذبيح .. إنه كان يرافق غيرهـا .. وربما .. يا للهول .. وودت لو يتوقف تفكيرها عند هـذا الحد ، لكن خيالها اخترق حب البعيد وتوضحت لها الحقائق .. إن الأنثى لا تجذب الشاب اليها إلا إذا أعطته بعضاً من انوثتها .. إنها حواء وتعرف أسرار بنات بجدتها هل أعطينه ما بخلت هي عليه به .. نعم هي الحقيقة وهو الواقع .. وأحست بسياط الغيرة تلذع فؤادها وبمراجل الحقد تغلي في عروقها .. ستطرده .. لا .. سيذهب اليهن ، سيستأثرن به ، لكن نصائح والدتها ، تربيتها الحسنة ، قدسية العفاف ، كلها عقبات وقفت حائلاً دون بغيتها ، لا .. انها لن تعود لذلك حتى ولو بالفكر .. ألم تتعلم فعل الندامة منذ حداثتها .. اخطأت لك يا رب بالفكر والقول والفعـل .. أنا خاطئة ، أغفر لي يا الله ، يا إلهي كيف احتفظ به ؟.

أمال .. معبودتي .. أمال .. إنك تقطعين بتنهـداتك نياط قلبي ، اشفقي على حبنا ، على ..

لا .. لا تكمل .. إنك تجدف على الحب .. تطعن الوفاء

بالصميم ، أنت .. وكادت تخرج كلمة خائن من فمها .. لكن شيئاً ما منعها عن إتمامهـا .. لا .. لن تجرح شعـوره لأول صدفة ، إنها تحبه ، ستداريه عله يرجع عن غيه .

أنت خائف من قول الحقيقة ، قل لم أعد أحبك ، إن الصراحة خير من التضليل .

حبيبتي .. أية أفكار سوداء تضعينها في رأسك .. أية أضاليل تدعينها ، أنا لك يا معبودتي ما حييت .

ودق ناقوس التنديد والتأنيب في ضميره ، لماذا المراوغة ، إنه قادم لتوه من بين أحضان كلير .. إذا كذب عليهـا وصدقته أيكذب على الله ايضاً ، الله ، وأي دخـل له في الموضوع .. أين هو الله .. أليس الله وهم ، بدعة اخترعهـا ذوو الأدمغة المتفوقة ليسيطروا بواسطتها على ضعاف الإرادة . لكن .. وصدم بماضيه القريب . بالراحة والسلام الداخلي . بالهدوء الضمني عندما يستنجد بذكر الله . الله قوة وجمال . وعقل وحكمة . إنسانية وضمير . أشياء تعلمهـا من والده ووالدته ، من خلال الجو الهادىء الذي يلف بلدته . إن الحرية المطلقة طريق للانحلال الخلقي الذي يأباه المجتمع.. إنه سيتوب . إن الرجوع عن الشر فضيلة ، وجاءه سؤال آخر . هل التمتع بمفاتن الغير شر .. وصمم على شيء .

أمال .. وأخرج منديله من جيب سرواله ، ولملم حبات اللؤلؤ المتدحرجة على الوجنات الذابلة .. قاتل .. سفاك.. خائن ، ردد سراً وود لو ناب فمه عن المنديل بامتصـاص

قطرات الطل . لم لا .. أليست حبيبته وزوجة المستقبل . إنها شهية ، فاتنة ، سيقبلها ، وارتعشت شفتاه ، أمال .

وكانت أمال في حالة ذهول . وفي داخلها استسلام .. ستكون له . شفتاه من نار تلهب عواطفها ، ليته يضمها إلى صدره العامر ، يشدها بين ذراعيه .

الرغبات متبادلة ، لكن الخوف ، الرهبة ، جدار من جليد ، سد بين نارين .

سأقهر الخوف وأتغلب على الرهبة واحطم الجدار . انها لي .. في شفتيها نداء .. وفي عينيها خضوع ، فرصة سانحة ، من أين أبدأ .. وشعر بحبال من رصاص تملأ رأسه فألقاه على صدرها دون وعي . زادت نبضات القلب الواجف للمفاجآت الغير منتظرة وتسارعت دقاته فالتقطتها محطات القلب الآخر وامتزجت الذبذبات وتجانست الألحان وألف أجمل وأروع سمفونية في الوجود . ومع الموسيقى الرتيبة الصاعدة من القلبين تململ رأس الحبيب رويداً رويداً إلى أعلى فتلمس نهدي الحبيبة الراعشين ، ومرت الشفاه على فرجة الصدر الصغيرة . ثم تقابلت النظرات والتقت الشفاه بقبلة دافئة لو فرق خمرها على سكان العالم أجمع لسكروا وناموا نومة أهل الكهف . لكن سكرة أمال لم تدم طويلا فوعت نفسها بين أحضان حبيبها .. لا .. لا يا عفيف .. ماذا صنعت ؟ أي جرم اقترفناه ضد مقدسات الله ؟ وتململت من بين ذراعيه وشعرت برغبة في الفرار من نفسها .. من عفيف .. من الله . لكن

أين المفر والخطيئة ماثلة أمام ناظريها .. ونار القبـــلة الأولى تحرق ثغرها .. إنها عاهرة . وخنقت رغبتها العبرات .

بنظرة الأم الثاقبة شاهدت السيدة رفقة تبـــدل حالة وحيدتها . وكانت تراقب هذا التبدل بكل روية وسكون كي لا تحرجها وتزيد آلام فؤادها . لكن قلبها كان يتفطر هلعاً عليها . وكانت تعلم ضمناً سبب هذا التبدل . نعم إنه عفيف ولا بد أن يكون سوء تفاهم قد وقع بين الخطيبين . غيمة صيف وستزول . وتحيرت في أمرها . لماذا الخلاف . أتسأل أمال .. كيف ستفاتحها بالأمر . وأتتها فكرة . في المداورة طبعاً .

أمال .. أمال .. لماذا لا تردي ؟

وكانت أمال غارقة في لجج أفكارها ويداها تعملان في حياكة خرج من الدنتلا البيضاء .

آه . نعم .. أتناديني أنا ؟

نعم أنت .. وهل انادي الحيط ؟

أماه .. وشعرت برغبة في البكاء . لكنهـــا حبست دمعتها كي لا تفضح أمرها.. ماذا تريدين ؟

أراك على غير طبيعتك .. هل أستطيع أن أفهم معنى ذلك .

على غير طبيعتي ؟ أتخبر والدتها . أتسرها عظم مصابها ؟ أتقاسمها عبء فجيعتها ؟

وترددت .. لا . ليبقى سرها لها تجتره مع الوحـــدة

والأنفراد .. لا .. إن رأسي يؤلمني وأشعر بقليل من الإرهاق .

أهو الوتاب يا ترى ؟ أتأخذين بعض حبات الأسبرو ؟

لا أظن انه ألم عابر .. وقريباً سيزول .

أمال .. وربتت على كتفها بيدها المعروقة . إنني والدتك يا بنيتي .. هل تخفين علي أمراً ؟

أمي .. واغتصبت ضحكة صفراء ، أي أمر تظنينني أخفيه عليك ؟

وهل عندي ما اخفيه ؟

لست أدري .. لكن هذا الذبول فيك لا أظنه طبيعياً كما تدعين .

وهل المرض ادعاء ؟

أأنت مريضة ؟

ليس مرضي بالمعنى الحقيقي . لكني أشعر بكسل مضني وحيلي مكدود

وكانت والدتها تعلم سر مرضها مسبقاً .. أتحرجها فتخرجها .. لا .

فلتدع ذلك للوقت وهو وحده كفيل بتوضيح الواقع . لكن أتدعها تعاني آلام حرقتها دون أم تمد لها يد المساعدة ؟

طبعاً لا . إن دواء هذا المرض التسلية ، النزهة ، الترويح عن النفس .. الى أين ستذهبان .. واستعرضت في مخيلتها جميع صديقاتها .. ام مخول . ام جميل .. بيت عبدو ..

وأخيراً هناء . نعم هناء نزيلة دارهم الجديدة .. لها عليها حق المباركة . وهذا ما تقتضيه آداب اللياقة .. ستذهبان اليها فوراً .

أمال .. إننا لم نبارك للسيدة هناء بانتقالها لدارنا ، وهذا عيب نؤاخذ عليه . هلمي لنزورها يا حبيبتي .

أماه .. أعفني من هذه الزيارة . انني متعبة . إذهبي اليها وحدك .

هذا لا يمنع يا حياتي .. ان الترويح عن النفس يفيدك ويسليك .

اماه .. بحقك دعيني . انني ..

أمال .. يجب أن نذهب . هذا واجب .

ودخل وسام فسمع طرفاً من الحديث . وود لو يمنعهما ، لأن قلبه كان دليله .. إن هناء ستجلب لهم شراً لا يعرف مصدره . بأية طريقه سيخبرها ؟ . لا يجب أن تشعر بما حدث بينه وبينها .. يجب ان يتجنبوها قدر المستطاع . وأشكل عليه الأمر .

اماه .. لقد مررت على بستان الخوخ ورأيت ثماره ناضجة واخبرني عمي ابو مخول البارحة بأن الأسعار في بيروت جيدة . فتشاورت مع والدي منذ هنيهة وصممنا على القطاف الآن . وأنا بحاجة لأمال كي تساعدني لأن الوقت متأخر ولا أستطيع ان احضر عمالاً .

وفقك الله يا ولدي . لكن شقيقتك مريضة لا تستطيع مساعدتك .

مريضة ؟ خير إن شاء الله .

إن الأمر ليس مهماً كثيراً . رأسها يؤلمها وأظنه وتاب . أأستطيع مساعدتها ؟

وتقدم نحو أمال بلهفة ثم وضع يده على رأسها ، فوجد عليها بعض الحرارة .

لقد افزعتي قلبي . وقاك الله من كل شر .

لا عليك يا اخي .. واظنني اقوى على مساعدتك .

لا ، لا يجوز ان تجهدي نفسك . سأنادي عفيفاً ونتعاون على العمل .

عفيف ؟ ورقص قلبها فرقاً . وصعد الدم الى رأسها . إنها لا تود رؤيته ، انها تخاف حتى مجرد التفكير به . لكن أنى لها ذلك . وهو يعيش كل ثانية تحياها . كل نسمة هواء تتنشقها. وتحسست شفتيها بيد ذاكرتها فألهبتها نشوة القبلة الأولى.وصدمت قدسية عفافها بواقع ذلتها فبكى ضميرها دماً .

لم يلاحظ وسام تغيرها . لكن والدتها لم تفتها هذه الحركة ولو كانت عابرة . وتحققت ظنونها . نعم إن وراء الأكمة ما وراءها . إذهب يا ولدي ساعدك الله . وانا ذاهبة بصحبة شقيقتك لزيارة السيدة هناء .

اسقط بيد وسام . فلتذهبا ولنا الله عوناً على كل شر .

بعد ذهاب وسام من عند هناء ، دفنت كبرياءها بقبر مذلتها .. لقد أهانني . جرح كرامتي . سحق قلبي . استخف بجمالي . بانوثتي . إنه وقح . جميل . قوي . سأناله ولو دفعت حياتي ثمناً لبغيتي .. لكن كيف السبيل اليه وهذا السور من الشهامة يحيط به . الشهامة ؟ وقهقهت تهكماً . إن أهل القرى ساكني الجبال بلهاء . يعيشون على أطلال ترهات بائدة ويظنون أنفسهم ملوك دنياهم .. رهبان يعيشون حياة التقشف في صوامع الخيال . لكن ما لي ولهم . إن بغيتي زنبقة من مشتل رياضهم الزاهرة وكفى .. وصحا ضميرها من سباته العميق .. ألم تكوني يا خالعة العذار من الجبل الأشم الذي تتجنين عليه . ألم تكوني إحدى زهوره المفضلة .. وقد رواك من شرايينه ماء عذباً سلسبيلا . إنك جاحدة .. ناكرة الجميل .. وضاع صوت ضميرها في وادي شهواتها ورغباتها الجسدية ..إنه لي . سأتغلب عليه . ومنت نفسها بالآمال العذاب .

مضى الوقت سريعاً ووسام يتجنبها فيأتي إلى عرزاله متأخراً ويبرحه قبل بزوغ الفجر . إنه يأبى حتى الظهور أمامها .. إنها تود رؤيته ولو من بعيد . وعاشت وقتها على انطواء وأهملت جميع مواعيدها ، فلا ذهاب إلى المدينة ،حتى ولا نزهة خاطفة في منتزهات البلدة . وأصدرت تعليماتها إلى خادمتيها .. لا يجب أن يدخل علي أحد إلا بعد إخباري عن هويته ولو كان أقرب المقربين إلي إلا إذا كان وسام فادخلاه دون استئذان .. وكانت تعيش على أمل أن يعود اليها .

لكنه خيب رجاءها بعدم ظهوره .

طرق الباب في المنزل الكئيب . فأطلت جميلة من الناضور الصغير لترى من الطارق . وفوجئت بام وسام وأمال تقفان على عتبة الدار ، فوقعت في حيرة ، أتفتح لهما ؟ . لا ، إن سيدتها لم تسمح سوى لوسام بالولوج إليها دون استئذان .. ستخبرها بأمرهما .

ان الست رفقه وابنتها في الباب سيدتي .

من ؟ ام وسام ؟ .. ونهضت سريعاً ثم هرولت نحو الباب.

كيف لم تفتحي لهما يا شقية ؟

فارتعبت الخادمة .. إنها أوامرك سيدتي .. أن ..

ولم تستمع هناء لبقية الأعذار لأنها كانت قد أصبحت عند الباب ، وفتحته بلهفة .. أهلا بوالدتي الحنونة .. أمثلك من يقف على الأبواب ؟ لكنها الخادمة .. وسوف أدعها تدفع ثمن غلطتها .

تعجبت ام وسام من هذا الاستقبال الملهوف .. لكنها عزته الى حسن ضيافة هناء .

لا عليك يا ابنتي . جميع الأبواب تقفل بإرادة أصحابها .. لكنها تفتح في وجه قارعيها .

أهلا .. أهلا سيدتي .. أهلا أمال . وانكبت على يد ام وسام فقبلتها ، واحتضنت أمال وكأنها أعز عزيز لديها ، فأوسعتها تقبيلا وبادلتها أمال القبل . ثم أفسحت لهما صدر الدار .

سيدة هناء .. لقد تأخرنا عليك بزيارتنا فالرجـاء منك عدم المؤاخذة .. لأن ..

لا .. لا سيدتي .. إنني أعد زيارتكم لداري المتواضعـة شرفاً كبير . وأنا منذ اللحظة الأولى التي قابلتكم بها اعتبرت نفسي فرداً من العائلة . وكل أملي أن أحظى بعطف امومتك. لأنني فقدت حنان الوالدة وأنا طفلة أحبو . وعشت وحيدة حتى الآن بعد أن فجعني البين بوالدي . ثم بزوجي الحبيب . وذرفت دمعة حارة لا أحد يعرف ، أهي صادرة عن قلب صادق عضه الموت بناب الحرمان . أم دموع تمثيل وتدجيل.

كفكفي دموعك يا ابنتي . ان الموت سيف مسلط فوق رقاب الجميع .. واحتضنتها بعطف وحنو .. إنك ابنتي منذ الآن . وهذه شقيقتك بعهد الله . قبليها .. قبليها يا أمال ، إن هناء شقيقتك الكبرى . واختلطت دموع الأختين لأن أمال كانت تريد منفذاً للبكاء ، كي تروح عن نفسها ،فوجدت في دموع هناء خـير معين . وبكتا ولكل منهما في البـكاء ظنـين .

امي الحبيبة .. إن لساني يعجز عن شكرك على هـــذه الهدية الثمينة التي أتحفتني بهـــا .. وفكرت قليلا ، وامتد تفكيرها إلى عقد من اللؤلؤ لا يقدر بثمن كان معلقاً في جيدها فخلعته ووضعته في عنق أمال .

سيدتي .. أرجو أن لا تردي رجائي هذا .. إنه عربون وفاء ومحبة .

عقدت المفاجأة لسان الضيفتين فلم يسعهما سوى القبـــول بالأمر الواقع .

بعد هذه الزيارة القصيرة توثقت عرى الصداقة والبنوة بين الأسرتين . وأصبح الداران وكأنهما واحد . إذا ضاعت أمال وجدت في منزل هناء . وإذا طلبت هناء كانت في بيت السيد نديم . وأظهرت الدخيلة المتطفلة مع أهل الدار كرماً زائداً، فأتحفتهم بالهدايا ووضعت كل ثروتها تحت تصرفهم .. لكن عزة النفس وكرم الأخلاق وشيمة القروي الأصيل ، منعتهم من قبول أي شيء إذا كان في حدود عدم جرح كرامة الضيفة في نظرهم .

كانت كل هذه الأحداث تقع تحت نظر وسام وبصيرته ولا يجد أي مأخذ يستطيع أن يحاسب هناء عليه . لأنهـــا بدلت خطتها نحوه وأظهرت في معاملتهم كل تأديب وحشمة كي تكسب ثقته عن غير طريق الإباحية ، علهـــا تستميله اليها . لكنه في سريرته كان يتجنبها ولا يجتمع بها إلا قسراً عندما يجد في عدم مجالستها إحراجاً من أهله . وكانت والدته قد اخبرته بقصة تبني هناء ورجته ان يعاملها كمعاملة أمال . وسقطت ذكرى أمال على قلبه كنصل مسنون .. إن العشرة الفاسدة شر من الفساد .. ان الفتـــاة تنزع الفتاة .. والشاب يفسد الشاب .. كيف ينقذ شرفه من بين اشداق هذا الغول الهائل .. كيف يبعد شقيقته عن هذه الحية الرقطاء قبل ان تنفث سمها في حيانها وافكارها ؟ مهما كانت الحصانة حـــول

العفاف قوية لا بد أن تسقط أخيراً .. لأن الإنسان ضعيف بطبيعته .. والمداومة على الشيء تساعد على إدمانه ..

وكان عنـــده عذر .. لم يبق من الصيف سوى اقله . وستزول هذه الغيمة مع زواله .. ومن بعـده لكل حادث حديث .

طريدة ... وصياد

طويت الأيام في سجل الزمن وتلاحقت تدفع بعضها بعضاً . وشهر آب قارب على نهايته والطريدة ما زالت بعيدة عن متناول يد الصياد . نعم إن هناء قد افرغت كل حيلة في يدها ولم تستطع استمالة وسام . فلا إباحيتها في البداية ولا ادبها المصطنع الآن .. ولا .. ولا .. إلى آخر ما هنالك من ضروب الإغراء قدرت على تحويل وسام عن تصميمه على الجفاء .. إنه صخر .. سر مغلق . ليس من معدن الرجال.. اقوى من الإغراء .. لكنه جسد .. إنسان .. ولا بد ان يسقط في النهاية .. وسلكت في إيقاعه طريقة أخرى .. الإباحية المطلقة أفضل وسيلة لبلوغ مرادي .

الجو دافىء ، والقمر يتكبد قبة السماء ، والعرزال خال إلا من بعض عناقيد العنب المدلات من سقفه وعلى جوانبه . ونزيله لا يأتي اليه إلا بعد ان يكون قد انهكه النعاس وهد جسمه الوسن . والساعة تشير الآن الى العاشرة مساء .. لماذا لم يأت ؟ لماذا تأخر .. أيوجد امرأة غيري في حياته ؟ .. يجوز .. أهي اجمل مني ؟ .. ووقفت امام المرآة .. إن

اعوامها الثلاثين لم تخمد جذوة انوثتها .. إن الذي يراها لا يحط لها من العمر سوى عشرين سنة . إنهـــا اصغر من سنها بعشر سنوات . وهذا انصع دليل على وضاءة جمالها .. إذن ءماذا تفاضلني يا ترى ؟ وقلبت شفتيها . كثيرون من الرجال لا يتمتعون بذوق رفيع. ويجوز ان يكون هو منهم . وتوقفت بتفكيرها عند هذا الحد ،لأن قوة ارادتها تحولت الى بصرها. كيف لا ووسام يتخطى درجسات سلم العزال كريم طريد.. وفعلا بدأت المطاردة .. إنه لها وسيكون .. وبدأت بالتعري عندما لاحت اول نظرة من وسام نحو غرفتها . وبدأ الجسد الافعواني يتلوى في رقصة شهوانية على أنغام الموسيقى الصاخبة. وكان رأس وسام يدور مع الأنغام .. وأهواءه تتلوى مـع تمايل الجسد .. فطار من اجفانه النعـــاس وصحت رغبات جسده بعد سبات عميق ، وثارت شهواته كبركان اجوج .. ماذا ؟ هل عادت الرقطاء الى سابق عهدها ؟ وهل كشرت عن أنيابها ؟ ام هي موجات هسترية تتناوبها ؟ وداومت على حفلة تعريها حتى اصبحت كما خلقتني يا رب .. تحفة رائعـة من لحم ودم آية لمثـــال .. ومثار لنزوات ونزوات .. لمـاذا التعري ؟ أأنا المقصود به .. وانطفأ النور القوي وأضيء محله نور احمر خافت . ثم تمددت هنباء فوق سريرها ونظرها يراقب باب العزال..هل أصاب سهمها الهدف ؟وانتظرت النتيجة.. لكن فريستها كانت اشد منها مكراً . فراقب وسام المشهد من فرجة صغيرة فتحها في حائـط العزال ، فكان يرى ولا

يُرى . ودامت التمثيلية حتى الصباح ، ورقدت هناء على برودة الفجر الباكر وشاركها وسام هذه البرودة ايضاً . وكان رأسه مسنداً الى الحائط لأنها رقـدا قسراً دون إرادتها ، وكان قد تغلب عليها النعاس . وتكررت المشاهد في الليـلة الثانية والثالثة والرابعة وبطلة المسرحية تعيد دورهـا بدقة وإتقان ، والشاهد الوحيد قابع في صومعتـه ينفذ ببصره وبصيرته الى دقائق المشاهد فيفندها حركة حركة ولفتة لفتة. وأخيراً فشلت الغاية الظاهرة من وراء هـذا التمثيـل . فلا وسام ظهر عليـه التأثر من جراء هـذه المناورات ولا هناء نالت بغيتها . فتوقفت في الليلة الخامسة عن تمثيل دورهـا وجلست في الغرفة بعد ان أسدلت ستائرها ، وراقبت قدوم الفارس الجموح . وكانت مشاهد الليالي السابقة قد عودت هذا الفارس على التلذذ بخمر النظر فأدمن عليها . وكان يقرب مواعيد قدومه الى العرزال ساعة بعد اخرى . حتى أصبح يعد دقائق النهار وثوانيه . وعاش على اعصابه . وبدأ يهمـل عمله شيئاً فشيئاً . وفي هذه الليـلة بالذات قدم الى عرزاله باكراً على غير عادته ،فوجد غرفة الأحلام على غير عادتها أيضاً كل شيء في وجهه مقفل . النوافذ .. الستائر .. حتى النور كان مطفأ فعزا ذلك الى الوقت .. الليـل من أوله .. ربما كانت في الخارج . لكن الساعات كانت تذوب الواحدة تلو الأخرى . ستة — سبعة — عشرة .. أحد عشر .. لا أحد . أين هي ؟ ودار في العرزال كالأسد الحبيس .. واصبح كمدمن

الهروين .. انني اريـــد .. انني اريد .. كانت رغبته تصرخ في كيانه .

وشعرت هناء بلذة الفوز للمرة الأولى . إنها تستوفي دينها .. لقد أرقها من اول لقاء .. أقض مضجعها .. عاشت على مضض جروح كرامتها الذليلة .

وبقيت وراء الستارة تراقب العرزال ساكنة حتى تأكدت من رقاد صاحبها القسري . وكانت الساعة قد قاربت الثالثـة صباحاً . فنهضت وتبرجت ثم أسالت ميــاه العطور فوق جسدها كسيل مياه الحياء من نفسها.ولبست غلالتها الوردية. إن الليل في هزيعه الأخير ولا أحد يشاهدهـا في الخارج . إذن الى العمل .. وخرجت ممنية جسدها بنيل المراد ..

السكون شامل ، والنسيم عليل يتلاعب برؤوس الأغصان فيلطف من حرارة الجو . ووسام راقد على ظهره وقميصـــه الحريرية مفككة الأزرار . وشعر صدره الكث يعلو ويهبط بانتظام مع شهيقه وزفيره . صورة للرجولة الحقـة .. أمينة خالعات العذار . وهناء برغبتها الجامحة وثورة شهواتها وقفت حائرة أمام الفتوة والرجولة . لكن حيرتهـــا لم تدم طويلاً فرقدت قرب الجسد الهرقلي .. وقبلت جبين فتاها الوضاء ، ثم شفتيه وألقت برأسها على صدره وتمنت لو تدوم هذه الرقدة إلى الأبد ..

تململ وسام قليلاً .. وكان يحلم . حورية خارقة الجمـــال تداعبه وتقبله في جميع أنحاء جسمه، وهو يشبعها ضماً وتقبيلاً

ورائحة عطورها وأريج انوثتها يملآن أنفه . وانقلب على جنبه لجهة هناء فلمس جسده مادة ناعمة الملمس لاهبة حارقة .. ماذا.. أهو في يقظة . لا . لا بد أنه يحلم وتمطى بتكاسل . ان رغبات ومشاهدات الأمس يصوران له ذلك . لكن ما هذه الحركة بقربه، وهذا اللهاث الحار الذي يلفح وجنتيه، وشفافه. وفتح عينيه. إنها الحقيقة.. انه جسد.. جسد امرأة ترقد بجانبه.. وفركهما على عجل . من ؟ .. وود لو يصيح .. لكن هناء لم تترك له فرصة ليستعيد وعيه فأطبقت على فمه بقبلة طويلة وضعت فيها كل فنها وحرارة رغبتها الجنسية ، فأسكرته وملكت قياده منذ تلك اللحظة . وشهد العرزال أعنف غرام مع أحذق غانية وأقوى جسد بكري التجارب صخري المعدن. وفي الغابة كان لهما جولات ممتعات .. وفي السيارة . وفي نبع صنين وأناباكيش . والزعرور . وفي جميع الأمكنة الآمنة التي تحجبها عن العيون ..

تبدل وسام

بعد كل هذه الرحلات والاجتماعات تبدل وسام تبدلاً كلياً. فلم يعد ذاك الفتى النشيط المثابر على عمله .. وتبدلت معاملته مع والديه .. فأصبح معاكساً شرساً وميالاً إلى المشاجرة .. يتأنق بملبسه ويغيب أحياناً من أول النهار ولا يعود إلا مع الفجر . وتبدلت معاملة هناء نحو أهله وفقدت شجاعتها تجاههما لأنها شعرت بفداحة جرمها . وشعر والداه بهذا التبدل المفاجيء ، فاحتارا في تعليل أسبابه . وبدأ الشك يتسرب إلى أفكارهما . فربطا الأحداث بعضها ببعض.وبدأت تتوضح أمامهما الحقائق .

رفقة . أتظنين ان لهناء علاقة في الموضوع ؟..

لا .. يا أبا وسام ..وما دفعك الى هذا التقدير الخاطىء ؟

إنه مجرد تخمين فقط .. ولكن ..

وضح .. وضح .. هل لاحظت أي دليل يشير الى ذلك؟

لم الاحظ أي شيء إلا بعض الوقائع البعيدة المرمى ..

هل لاحظت تبدل معاملة هناء تجاهنا .. في البداية كانت تلازمنا ملازمتنا لظلنا .. أما الآن ..

نديم .. لا يجب أن تسترسل في افكارك هـذه دون تقديرك لنتائجها ، ألا يجوز ان تكون مشغولة ببعض أعمالها . ان لكل شخص ظروفه الخاصة في هذه الحياة .. وتطرقت بتفكيرها إلى موضوع تبني هناء .. أتخبر زوجهـا .. لقد فتحت لها قلبها ومنزلها .. وكل أعمالهـا تدل على أخلاق رفيعة .. لا .. لا يمكن أن تخون هذه الثقة التي وضعت بها . وجاءها فكر آخر .. انها المرأة .. لقد حذرها ضميرهـا منها لأول لقاء .. وهل يصدق صوت الضمير ..

رفقة .. ان وسام قد بلغ أشده في الرجولة منـذ أمد بعيد .. وكل فرد معرض للسقوط . وأظن إن زواجه أفضل حصانة ضد المزالق المحظورة .

معك حق .. وكنت سأفاتحك بالموضوع .. لكن هـو أيرضى يا ترى ..

لماذا لا يقبل .. إن كل شاب في سنه يتوق إلى الزواج .. انه في الدوارة قرب البيت سأناديه واسأليـه رأيه .. وأنا سأخرج الآن . ان احترام الأبوة غالباً ما يكون حائلاً دون رغبة الأبناء . وخرج السيد نديم . لكنهمـا تبادلا نظرة خاطفة دلالتها الشك المتبادل في سلوك هناء ..

وسام .. وسام ..

والدتك في الداخل وهي بحاجة اليك ..

والده .. والدته .. هل لاحظا أي شيء .. وارتبـك قليلاً .

إن خاطر الإنسان دليله .. بأي وجه سيقابلهما .. وقصد التمويه .. انني مشغول بجمع بعض الثمار .. هـــل الأمر ضروري ؟..

لست أدري .. اسألها ..

وقرأ وسام في نظرات والده ما يجـــول في افكاره .. فزاد الشك وتسارعت نبضات قلبه . لقد اسقط في يدي .. لا بد انهما عالمان .. وشجع نفسه بنفسه .. وهل يقطعان رأسي .. انني شاب بالغ وحر التصرف .. لكن ألهذا الحد . ان المقدر قد وقع ولا مفر منه .

ها انا يا اماه .. ماذا تريدين ؟..

ولاقته والدته بنظرة الأم الحنونة الواثقة التي تقرر مصائر أبنائها .. وهذا ما زاد ظنونه .

لا شيء .. لكنني أود محادثتك بموضـــوع يعود عليك بالفرح والسرور .. معميات .. معميات .. نظرات والده .. وموضوع والدته .. أي أمر يحضرانـــه له يا ترى .. هل يموهان عليه ليصدماه بما يعلمان ..وأي موضوع هذا ..وكلمها متصنعاً عدم المبالات .

تعال .. إجلس هنـا بقربي .. وأفسحت له مكاناً على المقعد بجانبها .

نعم .. لقد جلسنا .. أهو قرار غـو إسرائيل يا ترى . وابتسم .

أعظم ..

غزو المريخ ..
أهم ..
مؤامرة على الولايات المتحدة .. وشعر براحة ضمنية .. إن هيأتها وحديثها لا يثبتان شكوكه ..
طبعاً لا .. لقد ..
أكملي .. أكملي .. أسرار وأسرار .. أي حدث سيكون إذاً ..
حدث سعيد ستفرح قلوبنا به .. حدث انتظرناه منذ رأت عيناك النور .
انه مشروع زواج .. أليس كذلك ؟..
لقد حزرت .. وهذا ما قررناه بعد موافقتك ..
وقهقه وسام لهذا النبأ المفاجيء .. لماذا الآن ؟.. ان وراء الأكمة ما وراءها .. إن خفايا الأبناء لا تحجب عن الآباء .. لكنهما لا يودان مواجهتي بالواقع .. وهل أقبل بشروعهما ؟ هل أرضخ لإرادتهما ؟ . وهناء . أي مصير سيكون لها من بعدي .. ان كل الدلائل تشير بأنها تفضل الموت على فراقي.ان هذا سوف لا يكون أبداً .انها فاتنة .. شهية .. لا ، سأماطل .. ومن بعده لكل حادث حديث .
لماذا الآن ؟.. هل لف شعري الشيب .. إنني في أول الطريق .. إن اعمالاً كثيرة تنتظرني قبل الزواج .
ان الحياة الزوجية يا ولدي حياة استقرار وهدوء .. والزواج لا بد منه إن لم يكن الآن فغداً .. وأنا ووالدك

على حافة قبرنا .. إن جل مبتغانا أن نرى لك ولداً يحبو على حياتنا كي نسر به ..

معها حق .. واستعرض جميع بنات بلدته متنقلاً معهن كالفراشات تتنشق الأريج الفواح ..

عدلا . هند سامية . منى . كلهن فاتنات جميلات ..

لكن قلبه هذا الضخري لم تمس شغافه إلا بعد معاشرته لهناء .. وقد وهبها إياه دون مقابل .. لا .. لن يتزوج وهي على قيد الحياة .. امي .. دعي هذا الأمر لوقت آخر .. ان المستقبل أمامنا طويل .

ولدي . ان الزواج لصالحــك . والشاب الذي في سنك معرض للسقوط في أي وقت .. وبنات الحرام كثيرات ..

وأي دخل للسقوط .. وبنات الحرام .. والشرف بيننا . هل لاحظت علي في طول عمري انني أهلاً لذلك ..

لا سمح الله ، يا حشيشة قلبي .. انك .. مثــال الشاب الأمين على مقدسات إصالتــك .. لكن تدارك المحظور قبــل وقوعه لا يعد تجنياً على نبالتك ..

ودخل أبو وسام .

ماذا ؟ لقد طالت جلستكما ..وتصنع عدم المعرفة بأصل الموضوع . لكن هذا التصنع لم يخف على وسام انهما متفقان عليه مسبقاً . واستدل السيد نديم من إيماءة زوجته بأنه لم يوافق .

ماذا .. أتخفيان علي أمراً ما ؟.

لا .. إنني كنت أبحث مع وسام في .. وسكتت .

لماذا التمويه . أخبريه .. ونظر الى والده نظرة تحد فتغاضى عنها . لقد عرضت علي مشروع زواج .

من هي هذه السعيدة التي وقع اختياركما عليها ؟. هل لي أن أعرفها ؟ ..

وهل نحضر المعلف قبل مجيء الفرس .. لا بد ان نأخذ رأيك اولاً لنرى أتوافق ام لا ..

أتود الزواج حقاً ؟ . وأنا ، والدك .. لماذا لم تخبرني مسبقاً ؟..

أنا الذي يجب ان يخبرك أم والدتي .هي صاحبة المشروع. وأنت . هل توافق ؟

أحقاً ما تقول ؟..

بعد موافقتك طبعاً .

ان هذا جل منانا .. والفرحة الكبرى عندنا .. لماذا لا اوافق ..

طبعاً ليس الآن ..

في أي وقت اذاً ؟

بعد سنة . سنتين . ان الوقت في يدنا ، وكل آت قريب.

وسام . اتتهكم علي . ونظر اليه نظرة صارمة .. ثم اتجه نحو زوجته . أهذه هي آخر التربية يا رفقة ..

لا سمح الله يا أبي ان اتهكم عليك. اني اقول حرية ضميري. وأنا رهن إشارتك في كل ما تقول .

هدىء من غضبــــك يا نديم . ان الأمر لا يحتاج الى كل هذا الإشكال . وغمزته . فلندع البحث في الموضوع لوقت آخر . انه مجرد عرض قدمته لوسام . وكما قال ان الوقت أمامنا طويل ..

فسخ الخطوبة

اعتز الفضاء وشمخ بأنفه تيهاً لبعد شقته وفساحة أرجائه، ونظر الى الشمس نظرة استهزاء وتشفي ثم قال: لقد مللت السير في كياني، ورفضت البقـــاء في أرجائي. نعم إنك سترتمي بين أحضان البحر عدوي اللدود. لكنك في النهاية ستعودين الي مستعطفة مسترحمة ..

طعنت الشمس في كرامتها، وشعرت بحرارة لاهبة تنهش كيانها، وبقوة قاهرة تدفعها إلى دوران أبدي لا متناه. فاستنجدت بفتى أحلامها ومحط رحالها عله يساعدهـــا على حالتها.

استفز نداؤها قلب من يهواها فتلقفها بين أحضانه، وبرد غليلها بمائه الفياض. وجعل من لاحدوديته مقراً لها.

فعل كل ذلك والأسى يحز في قلبه لعلمه بأنها لا تثبت له على عهد. فبعد تبريد لهيبها وإراحة كيانها ستهجره إلى من يشبع نهمها. الى الفضاء خصمه الأبدي ..

وكانت حالة أمال كحاله هذا العاشق المغلوب على أمره. فبعد تقديمها لعفيف كل ما تملك من آمال وأحـــلام .. من

إخلاص ومحبة ، هجرها إلى من يملكونه أجسادهن مقابل لا شيء .. سوى ليالٍ حمراء يقضونها مترعة بالفحشاء والرذيلة . ليمرغن أجسادهن على مذبح شهوتهن .

غابت الشمس وراء الأفق ، ولفت الطبيعة بطيلسان الليل الموحش . فبدا الجو ساكناً هادئاً لا تعكره سوى زفرات تصعد من وقت لآخر من قلب خنى عليه الدهر ، حتى شابه الليل بحلكته وسواده . ولم يكن هذا القلب سوى قلب أمال جابر ، الزهرة العاطرة التي ما ان تفتحت على الحيـــاة حتى أتتها منجل النوائب فقطعت جزعها وألقتها بين أحضان الأقذار والمهملات .

عفيف .. حبيبها قد تبدل في الفترة الأخيرة تبدلاً كلياً.. تبدل بعقليته .. بمعاملته لها .. وأصبـــح عفيف الأمس غير عفيف اليوم .. فمن همسات عاطفية تصدر عن قلبـــين قد ملأهما الله بخوفه وإيمانه ،الى مشاجرات تعكر سكون الليل. ومن معاملات يسورها الآداب بسياج من التحفظ الى مكاشفات مفضوحة ترمي الى أسوأ النيات وأقذرها . وقلبت صفحات ماضيها فوجدتها ناصعة البياض . لا تشوبها أي شائبـــة .. وتصفحت مقاطع حاضرها فرأت سواد أعمالها .. نعم انهـا سيقت إلى ذلتها بغير إرادتها لتحتفظ بمن وهبته قلبها . لكنها أبت السير في طريق تقودها نحو الهاوية .. وعندما وصلت بتفكيرها الى هذا الحد اهتزت كمن لمس تياراً كهربائياً وأصابت أفكارها من نفسها مقتلا . ودم كرامتها سفح أمام ناظريها .

وأفاقت في داخلها ثانية غرائز الانثى .

ما هذه الغيرة .. الحرقة .. الوجرم .. المرارة .. يكاد قلبي ينفطر .. إنهن سارقات ناهبات .. وأنا .. أنا صاحبة حق .. كيف أحتفظ بحقي يا رب .. هل أجاريه في معاملاته .. هل اسلمه قياد نفسي .. وهل أكون خاطئة .. كيف لا .. وقدسيتك في قلبي .. لكن .. وناب فؤادها عن عينيها في سكب الدموع . لكنها احتفظتا بحقها وجارتاه في ذلك .

هب النسيم بهينماته الرقيقة ، وتساقطت قطرات الطل على أعشاب الغابة . فأحست أمـــال بقشعريرة ناعمة تسري في أوصالها . ثم أفاقت من غيبوبتها وآثار أفكارها منطبعـــة في مخيلتها . فزادت دموعها هطولاً . وسابقت الطل على إرواء الزهور التي أذبلها قيظ النهار .

مضى الوقت متثاقلا متمهلاً وتغلغل في أعصاب أمـال . فانطوت على ذاتهـــا ، وتأزمت نفسيتها .. لماذا تأخر ؟ .. ونظرت الى ساعتها بقلق .. ثمانية إلا ربع . وهذا أقصى حد تستطيع التغيب فيه عن البيت . فبعد مراقبة والديها لوسام أصبح النظام صارماً .. وويل للذي لا يتقيد به .

إنه اليوم العاشر على التوالي الذي تنتظره به ولا يأتي .. ان حبه قد ترعرع معها في المهد . ونما بقلبها مع نمو جسدها . إنه نفسها . عواطفها . تفكيرها . وتتابعت التخيـــلات في رأسها مشوشة لا ضابط لها .

فتمثلت عفيف بكل شيء .. الأشجار .. الصخور ..

البيوت المنتشرة على سفح التل . وصرخ الحب في داخلهـــا صرخة مدوية رددتها أصداء نفسها وصعدت على لسانها صرخات هائلات .. عفيف .. عفيف .. عفيف .. وتجاوب صراخها مع القوى المجهولة ، وحمل على أجنحـة الأثير .. واستجاب القدر للصراخ المؤلم . فأتى عفيف يجر وراءه ثقـــل أمسية أمضاها بين أحضان السكر والعربدة ، بين شفاه الحسان . وكان شكله غير طبيعي . الشعر مشعث .. والعينان حمراوتان ترسلان سياطاً من نار الشهوة .. والفم كخمارة تفـوح منـه رائحه الكحول .. والوجه كجمرات كانون يتأجج على أبخرة الخمور الراسبة في الجو الملتهب .. والجسد متداع يترنح كنبتة في مهب الرياح . والعقلية مبلبلة تقود صاحبهـا الى حيث لا يدري . لكنها في هذه الفترة غلبت على أمرها وانقادت نحو نداء القلب الجريح . أي إلى حيث أمال التي وجفت وخفق فؤادها عندما رأت من تهواه قادماً نحوها من بعيد . وعللت نفسها بالأماني مسترحمة . سترتمي على قدميه . ستبللها بالدموع . وهو . نعم سيرحمها . سيرق لضعفها .. لشقائها.. سوف يعود اليها . وهبت مسرعة لتلتقي بأصل سعادتها وسبب بلواهـــا لكنها أبت والهلع يملأ قلبها . لقـــد هالها ما رأته منه .. واختلطت عليها الامور . حتى انها لم تعد تستطيع تمييزه عن أشد الوحوش ضراوة .. وعندما شاهدهـا انقض عليهـا كانقضاض النسر على صغار الفراخ . ففرت منه تريد الخلاص . لكنه طاردها بقدر ما تسمح له قواه . وتضافر الهلع مـــع

سوء طالعها فتعثرت وانكبت على الأرض تعفرها بوجهها . وأدركها بعد ان تملكه العياء . ثم أطبق على فمها يعنه شماً وقضماً .. وتأججت بداخله نار حيوانية تغذيها رواسب الخمرة المجون .. فأعمل في ثيابها تقطيعاً وتمزيقاً وشفتيه اللاهبتان تسبقاه إلى النواحي التي تتعرى من جسدها .. أرادت الصراخ فكم فمها .. قاتلت .. وقاومت .. لكن أنى لها الفرار من بين ذراعيه الفولاذيتين .. وكانت رغبات الجنس مع جنون الخمرة قد زادت من قواه . فهد حيلها ، وبدأت مقاومتها تتلاشى رويداً رويداً .. وتراخت بين أحضانه .. وشعرت برعشة غريبة تسري في أوصالها .. رعشة لم تتعودها . فيها لذة . استسلام . هدوء . وكانت بمجموعها هدفاً للقبلات .. فلا الصدر استثنى ولا النهد سلم . حتى الكنز الثمين انتهكت حرمته الأنامل . وقبل النهاية أحست بالخطر يخيم فوق عفافها فوعت حقيقتها وعادت لنفسها . ثم استجمعت قواها بعدما خفف جلادها عنها الضغط حينما لمس استسلامها .. وتملصت من بين ذراعيه ثم فرت لا تلوي على شيء .. ومع فرارها ذهبت كل أمالها ببقائها مخطوبة له .

رقابة ... وعهد

شددت الرقابة على الحبيبين فضاقا ذرعاً . وسهرت عيون الوالدين على حشاشة قلبيهما ليحمياها من عثرة العثار . وبعد مراقبتهما لم يلاحظا أي تبدل في معاملاته تجاه هناء ولم يأخذا منه لا حقاً ولا باطلاً . لأن شكهما تسرب الى نفسه فخشي منهما وأخبر هنـاء فاحتاطت للأمر هي ايضـاً . وعاودت سيرتها الأولى في معاملتهم . وقنعت بوصال حبيبها بالنظر من بعيد وكانا يكتفيان ببعض خطفات عابرة عندما تغفل عنهما عـين الرقيب . وصلـّح وسام وضعـه على قدر المستطاع . وتجاوب مع أهله في موضوع زواجه على ان يدرسوه في تمعن وروية . وكان هذا من تدبير هناء لترفع الظنون من حولها . ووقع اختيار أهله على عروس المستقبل فرضي وسام دون ممانعة . وكانت نهى عبود ..فتاة فارعة القد ..بسامة المحيا. لها من العمر ثمانية عشر ربيعاً .. تحاكي البدر بجمالها .عيناها بصفاء القبة الزرقاء .. واسعتان بأهداب طويلة .. جذابة .. ذكية وادعة .. جرب وسام أن يهديها قلبه وحبه فلم يستطع. وتكررت زياراته لها بتوجيه من هناء ايضاً . وذلك أمـام

والديه عندما تكون في زيارتهم . فجلت من حولها كل شك وريبة . وعادت ثقة آل جابر بها الى سابق عهدها . لكن هذه الحياة لم ترق لها فصممت على شيء ..

في أحد خلواتها مع وسام نهلت من معين لذاته نهل من لا يريد الارتواء . وأرته من فنون إغرائها ابواباً لا يطرقها إلا كل عريقاً في المهنة . فعلت كل ذلك كي تبقيه أسير هواها لأن جمال عروسته الطاغي أقض مضجعها ، وخافت أن يفر العصفور من القفص .

وسام .. لم يبق لي عندكم سوى يومين فقط .. لأنني قد عزمت على الرحيل بعد غد .

الرحيل ؟ .. لماذا ؟ .. إننا في الثلث الأول من شهر ايلول وهو أجمل أشهر الصيف . لا .. لا يجب ان تذهبي .. وبكى قلبه لوعة ..

لقد قررت . وسأذهب .. لأن حياة المراقبة هذه لا تروقني..وأخاف في النهاية أن يقع المحظور ويفتضح أمرنا.. فنفقد بعضنا الى الأبد .. وهذا ما لا أستطيع تحمله .

وأنا .. لمن تتركني هنا؟ ..

وهل سأبقى معك طول العمر .. في النهاية لا بد لنا من الفراق .. وسقطت دمعة كاذبة على خدها .

أتبكين .. واحتضنها بشدة ..

ضمني اليك .. شدني بقوة .. بقوة .. أريد أن أذوب .. أذوب بك .. إنني أشعر بأنه آخر لقاء بيننا ..

وزاد بكاؤها .

هناء .. حبيبتي .. انني لك ما حييت .. لا يبعدني عنك إلا الموت ..

أحقاً ما تقول يا حبيبي .. ونهى عروسك ..

قالتها بخوف ودلع لتختبر مقدار تعلقه بها .

نهى .. عروستي .. وهل وافقت على تسميتها عروساً لي إلا بعد إلحاحك .. إنها مجرد ستار .. ستار يا مناي ..

انها جميلة .. وفتية .. وحلاوتها ستنسيك مرارتي .. وأنا في طريقي الى الشيب .. إن حظي عاثر .. ليتني تعرفت عليك وأنا في سنها .. وكانت تتقلب بعواطفها كالحرباء .. ستحتفظ به ولو وقفت جميع قوى العالم ضدها ..

عدنا لذات النغم .. بماذا تؤمنين كي أحلف به . وحق الله وكل ما هو مقدس في الوجود .. بحق حبنا .. بحق الومضات اللذيذة التي قضيتها بين أحضانك .. بحقك أنت .. سأبقى محافظا على عهدك حتى الموت .

إنني أصدقك .. أثق بحبك .. لكنني خائفة .. خائفة من المستقبل .. إنني أراه مظلماً شائكاً .. وقلبي يحدثني بمصاب أليم .

وكان وسام يعرف وعورة طريقه لكنه صمم على تخطي جميع العقبات التي ستصادفه مهما كلفه الأمر . وإذا ضيق عليه الخناق كثيراً سيفر معها إلى آخر حدود المعمور .

هناء .. دعي المستقبل لله ولنعش حاضرنا .. كيف

ترتأين أن يكون اجتماعنا بعــد سفرك هذا الذي يحيرني .. أتستطيع اللحاق بي إلى بيروت .. وإذ استطعت هنـاك نتدبر الأمر .

لنفترض إنني وافيتك إلى هناك مرتين أو ثلاث وبعده .. أن وقتي وظروفي لا يسمحان لي بالتغيب عن البيت أكثر من ذلك . لأن موسم الفاكهة قد أشرف على نهايته . ولا حجـة بعده في الذهاب إلى المدينة إلا لماما وفي بعض الأمور الخاصة.

كما قلت لنعش حاضرنا وبعده لكل حادث حديث وافترقنا بعد وداع طويل .

عصيان

مضى الأسبوع الأول على فراق هنـــاء ووسام طبيعي في أعماله . شغل في النهار في البستان والكرم . وفي المساء عند خطيبته .. وسارت الأمور عندهم على أتم ما يرام . ولم يكن ينغص عليهم عيشتهم سوى وجوم أمال الدائم . فبعد حادثتها مع عفيف أصيبت بصدمة أفقدتها حيويتهـــا . وداومت من بعدها على الانطواء ، والانفراد . وحاولت والدتها مرار ، وصنعت معهـا المستحيل كي تعرف سبب هذا الوجوم فـلم تفلح ، وصدمت بصمت مطبق باءت معه كل محاولة بالفشل . وانقطع عفيف عن زيارتهم فأبت نفس الوالدة الذهاب إليـه والاستفسار عن سبب هذا الخلاف . فاستنجدت بوسام ليثير غور صاحبه عله يقف منه على ما ينير هذه المعميات . أمـا وسام فقد كان عنده ما يكفيه من الهموم ، فلم يعر الأمر أي اهتمام .

إذا كان يوجد بينهما خلاف حقاً .. ليفضاه بينهما .. وهذا أفضل حل.. ان مشاكل المحبين لا دواء لها إلا في يد أصحابها.. وردد قلبه (لو كنت طبيب الهوى لطبيت أنا نفسي) وجاشت

في داخله عوامل الحنين .. أين أنت يا هناء.. مع من تقضين أوقاتك .. هل تسرب الملل إلى قلبك بعد هذا الفراق .. هل نسيت من وهبك قلبه وروحه.. حتى الراحة والاستقرار سلبتيهما مني .. واستجاب قلبه لنداء نجواه . إذهب إليها .. لماذا الخوف.. وممن تخاف .. ألست شاباً . وراشد نفسك.. نعم إذهب وفي أسرع وقت .. وذهب .. مرة .. وثانية وثالثة . وتكررت الزيارات لسبب ولغير سبب . وتكررت المشاجرات مع والديه ، وواجههم بالعصيان لأول مرة في حياته. فانقلب جو المنزل من هدوء واطمئنان غابر إلى مستقبل مشحون بمفاجآت لم يكن يتوقعها أحد .

وفي بعض الليالي ، بينما كان الوالدين قابعين في زاوية دارهم يقلبان الأمور على جميع وجوهها علهما يخرجان من مأزقهما بحل مرضي .. دخل عليهما وسام بعد غياب دام يوم وليلة . وفاجأهما بما أذهل البابهما .

أبي .. ووجم خوفاً من الافصاح ..

نعم .. ما بك .. قالها أبو وسام بتحد .. فغمزته زوجته أن خفف من غلوائك لنرى ماذا يريد .

لماذا لا تتكلم .. وضح .. بني . ، أنا والدتك .. هل تخفي ما بك على من وهبتك قلبها وحياتها .. هل أغضبك أحد .. هل وقع أي خلاف بينك وبين خطيبتك .. وإذا كان ذلك فأنا أتدبر الأمر .

لا هذا ولا ذاك .. وتشجع وسام عندما توسم العطف من

والدته .. إنني بحاجة إلى الدراهم ..

وقهقهت والدته .. هذا الذي يشجيك .. إن الدراهم بين يديك . خذ منها حاجتك .. ورددت في سرها . ان الشاب خاطب . وفي هذه الحالة يحتاج إلى مصروف غير منظور .. رباه متى أفرح قلبي برؤياه عريساً .

وكان في رأس وسام مشروع بعيد المرمى .. إن الدراهم التي بين يدي لا تكفي .

لا تكفي .. لماذا .. هل وقع نظرك على قطعة أرض أعجبتك .. هل تود مشتراها .. قطعة أرض .. وضحك وسام .. لا .. ان في رأسي مشروعاً أهم من الأرض بكثير ..

لماذا الإبهام .. وضح .. هل وقع أحد أصدقائك بضيق وتود مساعدته .. أم تريد المتاجرة بالتفاح .

لا هذا ولا ذاك أيضاً .. مشروع أهم من الاثنين بكثير .

واحتار أبو وسام بأمره .. وكم تريد ..

أظن أن ألفي ليرة في البداية يكفيان ..

ألفين .. وتحسس أبو وسام كمره الجلدي بخوف .. ألفان دفعة واحدة ..

لماذا الاستهجان .. وهل نبقى قابعين في منزلنا طوال الشتاء في البلدة ، دون أن نقوم بأي عمل .. لا .. ان هذا لا يجوز .. ان الحياة جهاد .. وقد قال الله قم يا عبدي لأقوم معك .

إنني أفهم من حديثك بأن مشروعك خارج البلدة . أليس كذلك ..

طبعاً خارج البلدة .

أين يا ترى ..

في المدينة .

في المدينة .. لا .. وألف لا .. ان هذا الأمر لن يحدث. وأنا على قيد الحياة .

أبي لم لا .. وتصنع وسام الجد والرسانة .. ان المشروع الذي سأقوم به سيدر علينا ربحاً وفيراً وفي وقت قريب .

وأحب أبو وسام ان يجاريه في مراميه .. ما هو هـــذا المشروع ..

وتساءل وسام في نفسه نعم ما هو هذا المشروع .. سؤال لم يطرحه على نفسه من قبل لأن مشروعه الخيالي تستر بـــه ليحصل على المال ولا شيء سوى المال .. والآن والده يريد واقعاً .. ينشد حقائق .. وجاءه خاطر سريع .. التجارة طبعاً ، لكن تجارة ماذا .. وهو يجهل حتى طرق التنقل في المدينة منفرداً . وقرر .. محل لبيع الخضار والفواكـــه والسمانه .. هذا أنسب شيء .

بينما كنت أتجول في حي الأشرفية قرأت لافتة كتب عليها (محل برسم البيع بداعي السفر) فاستهواني الاعلان وسألت عن صاحب المحل واتفقت معه على شرائه .

هكذا اتفقت معه دفعة واحدة دون الرجوع إلي واستشارتي.

قلت في نفسي إن أبي لا يعارضني في أي عمل أقوم به ، ولم يدر في خلدي يوماً بأنك ستعارضني .

ولدي .. إن ثقتي بك لا ولن تتزعزع . لأنني أعلم على أي أساس ربيتك . لكن لمعاملات المدينة وللأخذ والعطاء بها طرقات نجهلها . ولذا لا أوافقك على مشروعك أبداً .وإذا كنت تحب التجارة حقاً فالمجال عندنا واسع . قم معي إلى عند عمك أبو عصام .. وأنت تعلم مقدار خبرته في فن تجارة التفاح . وهي تجارة رابحة على ما أظن .

تجارة التفاح ..انهرب من تحت الدلفة إلى تحت المزراب .. بالأمس انتهينا من حساب خسارتنا في زراعة التفاح والكرز والخضار .. وحسابنا في الحقل لم يطابق على حساب البيدر . ان الأمال والأحلام التي بنيناها على عطاء الموسم الوفير ، قد ذهبت مع رياح الأسعار المتدنية ومع عنجهية التجار أصحاب العلاقة ، ومع عدم تدبير الحكومة لتصريف الإنتاج ، سوى بقرارات اعتباطية زادت في الطين بلة ، ان قلبي قد مل الخسارة والعمل في الحقل دون نتيجة .

يا بني .. ان التجارة في الصنف غير العمل في زراعته .. ويخلق لكم الله مالا تعلمون .

أبي .. إن حياة القرية لم تعد تعجبني . والعمل المضني في الأرض لا ينالنا منه سوى الخسارة .. خسارة في المال .. وخسارة في الصحة .. وتعب .. وكد ..

وكاد ابو وسام ينفجر غضباً في وجه وحيده . لكن

حكمة الشيوخ تغلبت عليه . إذن سيعامله بالترو علّه يعود عن غيه ..

وسام .. أية أفكار سوداء وضعتها في رأسك .. ولنفترض أنك أخذت المحل الذي تقول عنه .. وشغلته في الشتاء .. في أيام لا تحتاج الأرض لقوة ساعدك النشيط . وفي الربيع وقبله .. أيام تقليم الكروم والبساتين .. في أيام الفلاحة والرش .. من ينوب عنك في كل ذلك .. أأنا الرجل الهرم .. الواضع رجلاً في الحياة ورجلاً في القبر .

والدي .. ان لكل عقدة حل .. وهذا الأمر قد فكرت به ملياً ..

وماذا كانت نتيجتك ؟

كثيرون ممن لا أراضي لهم .. مثلاً .. خطار عبدو .. فياض شاكر . وغيرهم يكونون ممتنين إذا سلمناهم إياها ليعاملوها تحت القسم .

تحت القسم .. ونفث غضبه في وجهه . لكنه عاد وعامله برفق .

لا يا وسام والف لا .. إن الرزق ينمو ويفرح من نظرة صاحبه الحنونة اليه .. من عطف قلبه ونظرة المرابع او فلاح القسم ، تختلف كثيراً عن نظراتك أنت يا وسام .. لأنه يقول لي الثمر وللمالك الحطب ، هذه نظرة من سيستلم بساتينك وكرومك يا ولدي .. والنظرتان تختلفان بعضهما عن بعض اختلاف بياض النهار عن سواد الليل .

ابي .. ان الرزق ملك الذي يستلمه .. والذي يستلمه سيعامله كصاحبه تماماً كي يأكل منه خبزاً .

لا تغالط نفسك يا بني . أنت صاحب الرزق الذي تأكل جناه بكامله . وتدعي الخسارة . فكيف بالذي سنقاسمه على نصف الإنتاج .

الحق معك . لكن .. الذي عنده لا يرضى بالقليل ولا بالكثير . أما الذي لا يوجد عنده فيرضى بالقليل ليصل الى الكثير . أي شيء في نظره أفضل من لا شيء .

لا .. لا .. يا وسام ، لا تكن طماعاً . (الفلاح المكتفي سلطان مختفي) .

أبي .. إني قد مللت حياة الخمول ، ونفسي تواقة الى العمل في المجال الرحيب . فبحقك لا تقف عثرة في وجه مستقبلي ..

ان مستقبلك أرضك يا بني .. هنا في تربة أجدادك .. لا تطلب الزود فتقع في النقصان ..

أبي . ان الحياة طموح وجهاد .. والمكتوب ما منه مهروب .

وسام .. ونحن لمن تتركنا هنا .. من أين نعيش .. من السماء ؟. من الهواء ؟..

لا يا أبي . لا تكن متشائماً .. وأنا .. ألم تحسب لي أي حساب .. لماذا ذهابي الى المدينة .. ألمجرد النزهة فقط .. سأتعب وأجد ويجوز أن يكون تعبي هناك أكثر من هنا

بكثير .. لكنني سأحصل مالاً وفيراً بإذن الله .

ولدي .. وبكى قلب أبو وسام خوفاً من المستقبل .. أرضنا .. تعبنا .. انظر إلى البعيد البعيد .. أغمض عينيك . ألا ترى الدالية وقد نبتت حولها الأشواك .. والتينة جفت مياه الحياة في غصونها ؟ .. انظر إلى ثمرها..ثمرها الأعجف.. انظر الى البستان ..التفاحة والكرزة والخوخة .. سيصبحون كالعوسج .. وتربتهم عفراء . والنبع .. والوادي .. ثم القبو والشبوق .. ان الجميع ينادونك .. يسترحمونك .. يحنون الى صوتك .. الى نشاطك وهمتك .. إلى قوة ساعدك .

أبي .. دعني من الأرض والزرق والكروم .. انها في نظري لا شيء يذكر تجاه ما يترقبني في المدينة .. تجاه الربح السريع المضمون النتائج .

وسام .. لا تتسرع في حكمك .. إن أنت جدفت على تربة وهبتك ما تتمتع به من حيوية ونشاط .. فماذا تترك للغير إذن ؟ .

أنت الذي قيل عنك عريس الأرض لحبك السابق لها .

عريس الأرض .. ابن الأرض .. وماذا تفيدني الأرض إذا دفنت بها زهرة شبابي دون نتيجة تذكر .. إذا غلت فبأجر عمالها ومصاريفها . وفي أغلب الأحيان نسدد خسارتها من مالنا الخاص .

انني معك .. نعم إن اسعار الفاكهة والخضار في تدن مطرد .. لكن هذه الحالة لن تدوم طويلا بإذن الله .

لن تدوم طويلاً .. وما هي الدلائل التي تشير الى ذلك؟.

إننا نتدرج من سيء الى أسوأ . وإذا تخطينـــا المستحيل ووصلنا الى هذاالزمان الذي لا وجود له في عالمنـا الحاضر ، نكون قد خسرنا المكسب والرسمال .

خير ان شاء الله .. وكانت ام وسام قد خرجت لتفسح المجال أمام الأب والإبن كي يتفاهما دون إحراج .

من ؟ .. رفقة ؟ ..

نعم رفقة .. ماذا ؟ . لقد مضى على جلستكما ما يقارب الساعة ، وأنتما في جدال ونقاش .. ألم تنتهيا بعد ؟ ..

الحمد لله .. الحمد لله .. لقد أتيت أخـيراً .. أتستطيعي ان تقولي لزوجك وتقنعية أم ماذا ؟ ..

دعنا من أوهامك يا حبيبي .. اذا ذهبت حضرتك الى بيروت نحن من يعولنا ؟..انالشتاء على الأبواب ..وشقيقتك.. إنها بحاجة الينا جميعاً .. يجب مساعدتها علنا نعيدهـــا الى حالتها الطبيعية ونعلم سبب شقائها .. وإذا تركتنا نحن في بلوانا فلمن تترك الارض ؟ ..

نفس النغم .. نحن والأرض .. أأنا رب العز ..لنفترض انني لم أولد .. فما عساها تكون حالتكم إذن ؟..

أجننت يا وسام.. ما هذا التهريف..من عندنا غيرك ؟. أنت روحنا وحياتنا وكل اتكالنا عليك بعد الله .

نعم ..أنت وأبي ..أنت سندنا.. والرزق لمن نتركه.. كأن حياتكم وتدبـير الأرض وقف علي .. وشعر بقرارة

نفسه بأنه يجدف على مقدسات ربه .. بأنه قد أصبح إبناً عاقاً .. ضالاً .. شريداً .. لكن هناء .. هذا الحلم .. هذه السعادة .. هذه الومضات العابرة التي عاشها بين أحضانها .. حياة الرفاهية .. والكيف .. والعز .. وأجواء المدينة المتحررة .. إنه سيحارب .. سيقهر الخذلان .. سيبقى لها .. إنه .. وقطعت عليه والدته شريط تصوراته ..

وسام .. ولدي .. وتدحرجت دمعة على وجنتيها المغضنتين .. ثم ضاعت بين التعاريج والأخاديد .. عد الى نفسك .. إلى ماضيك .. إنك ستعجل بموتنا .. ان تهورك سيدفعنا الى القبر حثيثاً .. وضمته الى صدرها بقوة وحنان .

امي لكم ولي الله .. وعاند دمعة كادت تفقده مقاومته .

نحن لنا الله .. والأرض .. الأرض من لها يا وسام ؟ .

خففي من غلوائك يا امي .. الأرض كثيرون يتمنون أن يستعملوها ويأخذوا نصف غلتها .

يعني تحت القسم .. ومن يزرع ويفلح تحت القسم .. فالجميع مثلك مثلك ايها الإنسان .. مثلما تريد حضرتك ان تنزح إلى المدينة فهكذا الجميع ..

أنا لا يهمني الغير .. ولا اهتم سوى بنفسي .

أوليست نفسك ونفسنا سواء ؟ ..

نعم .. لكن ما العمل هكذا قررت .

أأقول لك عاقاً أم ماذا .. إنك ولد ضال .. وإذا داومنا على هذه الحالة .. حالة النزوح المتواصل الى المدينة ،

فسوف لا يبقى في القرية سوى الذين يسيرون على العكاز أمثالنا ..

لماذا كثرة التهريف يا رفقة ..دعيه يذهب الى الشيطان. ولنا من بعده الله .

تهريف يا ابو وسام .. لا ..ان خيرة شبابنا قد أصبحوا في المدينة .. والباقون على الطريق . ان هذا شيء معيب. جناية بحق القرى التي احتضنتهم ..

لا تقولي ابو وسام .. أنا ليس لي ولد .. كان خير لنا وللانسانية لو كنا قد انجبنا صخراً .

اتحقرني وتهينني ايضاً .. وبلع إهانته . نعم إن هذا لا يهم . لكنني أريد ان أعرف على أي خازوق سأركب .. فإن لم تتكرموا حضرتكم .. وتعطفوا وتحسنوا . سأدبر أمري حتى ولو استدنت من إبليس. وكان وسام يلقي بورقته الأخيرة بعد يأسه من محاولاته الفاشلة . لكنه كان الرابح بها ، لأن قلب والدته بدأ يلين .. وطبق بحالتهم هذه قول المثل (قلبي على ولدي وقلب ولدي على الحجر) .

وسام .. أما زلت مصمماً ؟ ..

وهل هذا يحتاج الى إيضاح .. لقد كلت سواعدنا من نحت الصخور ..

وأنت يا أبو وسام ما هو رأيك ؟..

أتسألينني ما رأيي ؟ .. وهل بقي لي رأي بعد الذي حصل .. ان كل الشور لولدك العبقري .

نديم .. ان مثل هذه الأمور لا تحل اذا كان نقاشها

سلبياً .. دعه يحاول . وبعد ذلك نحكم عليه .

طار قلب وسام فرحاً .. لكنه كتم فرحته تحت ستار الجد والاهتمام .. والدي .. دعني اجرب حظي هذه المرة فقط .. وسأكون لك خير مثال . وانكب على يد والده يغمرها بقبلاته التي شابهت قبلة يوضاص عندما سلم السيد المسيح .

هيا يا أبا وسام .. افتح الكمر وادع له بالتوفيق .

ماذا .. أفتح الكمر .. ان هذا مستحيل .

لماذا مستحيل . اذا ذهب واستدان من الغير يكون أشرف لنا .. ونقودك . أتدفنهم في وسطك الى الأبد ؟.. ودينه هل سيكون بلا فائدة .. لا .. ان الذي يؤسس عملا بالدين يصفيه في تسديد الفائدة .

وبلع ابو وسام بريقه . معها حق . ان الاستدانة بالربى طريق للخراب .. وهو ولدي .. وبكى .. وبكى قلبه ثانية .. ثم امتدت يده الى زناره الجلدي الذي يلف وسطه وأخرج عدداً من الليرات الذهبية ، ورزمة أكل الدهر عليها وشرب لتقادم عهدها ثم أتبعها بأخرى . وكان لكل رزمة ولكل ليرة ذكرى مؤلمة في نفسه ، لأنه ضحى بصحته .. وقوته .. وركب أشد الأهوال والمخاطر عندما حصل عليها .

فهذه الليرات المتقادمات العهد أعادت الى نفسه ذكرى رحلة قام بها الى سهل البقاع في أيام الحرب بصحبة بعض الرفاق الذين ركبوا المخاطر كي ينالوا ما يسدون به رمق النفس . وتمثل أمام ناظريه ذاك المشهد المؤلم . ها هو صديقه

أبو طنوس يلفظ النفس الأخير وقد تضرج بدمائه بعد اصابته برصاص أحد قطاع الطرق . ورنت كلماته الأخيرة الراجفة في مسمعه وهي تخرج من فيه مع خروج روحه . آ . آ . بو . بو . و ، و ، سا ، سا ، م ، خ . خ . خ . خـذ هذه الـ . الـ . لي . لي . را . را . راتـ . وامتلأ فمـــه دماً . ، فمسحه أبو وسام بمنديله ، ونظر بعين بصيرته إلى الجيبـــة الأخرى في الكمر .. إن هذا المنديل سيبقى مع ليرات القتيل لينزلا معه إلى القبر..وحبس دمعة دامية حرقت مقلتيه.. وعاد بمخيلتيه إلى المشهد الهائل . وها أبو طنوس يستعيد وعيه .

خذ هذه اللـــيرات وأوصلهم إلى أم طنوس إذا أمكنك الخلاص .

.. وكان خلاصه يوم ذاك بأعجوبـــة من السماء وبقيت ليرات أم طنوس بجيب كمره إلى الآن . لأن المرض والجوع كانا قد قضيا عليها وعلى ولدها الرضيع طنوس الذي لم يكن عندها غيره .

وكانت كل ورقة مما في يده صورة ناطقة . ودليلاً ناصعاً على حياة أمضاها بالألم والعذاب•وتطرق بتفكيره إلى المستقبل الغامض • واستوضح ضميره مستلهماً •• إلى أي مآل ستذهب ثمار أتعابه يا ترى •• وفي أي سبيل ستصرف •• وكان شعوره المرهف قد سبقه إلى وقائع المستقبل المظلم • لكنه سلم أمره الى الله ونقد وسام ما طلب •

بيروت

بيروت مدينة خلابة ، تقع في الجانب الغربي من لبنان (وهي عاصمته في الوقت نفسه) غسلت أقدامها بمياه البحر ، وألقت برأسها على مرفق الجبل، ثم غفت بين أحضان بساتين الموز والليمون . فبدت وكأنها قطعة من الفردوس . رصع بها جبين الأرض . في النهار بناء حديث متقن الهندسة، وفي الليل صورة حية لانعكاس الأصل ، تشع في وسطها النجوم. وقد حباها الله بجميع المميزات المفضلة حتى أصبحت منارة العالم أجمع .

فمن أصلها الفنيقي،إلى حاضرها العربي إلى موقعها الشرق اوسطي نقطة الوصل بين الشرق والغرب . إلى مينائها الكبيرة الزائعة الشهرة . إلى مطارها الحديث الذى يستقبل أسرع الطائرات وأحدثها . إلى مناخها المعتدل ، إلى قربها من أجمل وأروع مناطق الاصطياف . إلى صخرة الروشة التي ضرب برهتها المثل . إلى حضارتها.. وعلمها .، ورقيها.، وتجارتها.، ومركزها المالي .، حتى قيل عنها بيروت بنك العالم العربي أجمع .

وبفضل جميع هذه الميزات التقت بها الحضارات على اختلاف مقاييسها ، وأمتها جميع الشعوب طلباً لنهل العلم ، والمتعة .. والسلوى . فحوت ضمن هيكلها خليطاً من البشر على اختلاف نزعاتهم ، ولكل منهم طريقته الخاصة في تحصيل معاشه .

فهذا يواكب الأساليب الشريفة .. وذاك يمتطي مراكب الرذيلة . وآخر وسطي بين الاثنين .

أما هناء فكانت ممن ساروا الى تحقيق غاياتهم على اشلاء الفضيلة . ولم تتورع عن هتك الاعراض ، وهدم البيوت الشريفة كي تحصل من ورائها على المادة ، والمادة في عرفها كل شيء ، فبنت المنازل واستأجرت البنايات ثم حولتها الى اوجار لتعاطي الدعارة والفحشاء .

وها هي الآن في أحد منازلها وقد أقلقها طول غياب وسام . فتسمرت أنظارها على مدخل الشارع القريب منها علها تجد فارسها قادماً منه .. انه قد ذهب منذ الصباح الى بلدته .. ان الساعة تدق الآن دقتها التاسعة .. انه لم يأت .. ان موعد ايابه في السادسة .. لماذا كل هذا التأخير يا الله .. وتحركت عوامل الخوف في قلبها الصخري الذي لم يرتعش أمام أرهب الأهوال وأشدها .. وشعرت صاحبته بالذل في حضرة اله الحب الجبار . الحب .. تلك الكلمة الصغيرة في حجمها الكبيرة في معناها .. ان حب وسام قد ملك عليها عواطفها واحساسها ، فأصبحت بمجموعها عيوناً تنظر الى

الشارع . لكن عذابها لم يدم طويلا ، فها وسام بطلعته البهية يترجل من السيارة على باب المنزل .

أهلاً وسام .. قالتها بلهفة وشوق ، وطبعت على فمه قبلة طويلة .. لماذا التأخير الى الآن .. لقد أفزعت قلبي .،

هوني عليك الأمر .. انه تأخير عابر لا فراق بعده يا حبيبتي .

افصح .. افصح .. وترنحت من الفرح . أحقاً ما تقول.. أيقدر لي أن لا أفقدك ثانية يا حياتي ...

انها الحقيقة التي لا شك فيها ..

وكيف .. ووالداك .. والضيعة ..

كفى .. كفى .. هدئي من ثرثرتك . ان لكل علة دواء ولكل مشكلة حلاً . ومقابل كيف ووالدي والضيعة، وجدنا مشروعاً أهم في المدينة .

أأنت تشتغل في المدينة .. ولماذا .. وكل هذه الأموال التي بين يديك . ألا تكفيك مؤونة العمل ...

العمل .. ومن قال لك بأنني سأعمل ..

ومشروعك ..

ان مشروعي كان في الضيعة حجة لأهلي .. أما هنا فأنا حر التصرف .. وخشخش بالذهب القابع في جيب بذلته الجديدة التي أهدته اياها هنا كي تفرنجه .

أتسمعين ..

انك رائع .. رائع يا وسام .. وفعلت موسيقى الأصفر

الرنان فعلها في النفس الجشعة لكنها بقيت بين الشك واليقين.

أهذا ذهب حقاً .. وهل هو غني بهذا المقدار .. لكنها تعامت وتجاهلت.

ماذا تقصد .. (لم أسمع شيئاً).

واذا كنت لم تسمعي، أتودين أن تنظري ..

اسمع ماذا .. وانظر ماذا .. لقد حيرتني بأمرك ..

لا .. لا .. لا تتحيري. ثم دس يده في جيبه وأخرجها ملأى بالدنانير.

ذهب .. وظهرت عليها آثار الدهشة. لكنهـا أخفت دهشتها تحت ستار اللامبالات.

نعم ذهب. خذي أيضاً .. ووضع أمامها رزمة المئات الزرقاء. خفف من صوتك .. عندي مثلها الكثير.

انقبض وسام .. وشعرت هي بجرح كبريائـه. لكنهـا كانت تضمر عكس ما تظهر.

وسام .. هل أنت زعلان. قالتها بدلع وميوعة .. انني لم أقصد احراجك لكنني كنت أقصد افهامك بانني لا أهتم بالمال. وأخذت كل ما وضعه أمامها وأرجعته الى جيبه .. انه رزقة .. نعمة من السماء.. سيشبع نهمها الجنسي وتعطشها الى المال .. انها أسعد مخلوقة في العالم .. وفكرت مليا ..

حبيبي. وأتبعتها بقبلة على فمه، اما هو فبقي مبرطماً.

أأنت غني لهذه الدرجة ... ظننتك ..

لأ تظنين .، ولا موجب للظنون .. قالها وسام بنزق وحرد ..
بخاطرك .، ونهض متجهاً نحو الباب .

وسام .. وسام .. هل جننت يا حبيبي .، وتعلقت
بأكتافه ،، دعيني ،، ابتعدي عني .. ان ..

حبيبي .. هل بدأنا بالمعاكسات .. ما عدا مما بدا .
وضمته الى صدرها ضمة قوية بعدما وقفت بوجهه . فدفن بين
آهاتها وحرارة قبلاتها كل مقاومة . وكان يتخلل عناقهما كلمات
حلوة .. حبيبي حبيبي .. معبودي الجميل .. صغيرتي الحسناء .،
لهاث وقبل .، التحام وافتراق .، وهمسات وهمهمات .،
ونظرات ناعسات .، وبقي الحبيبان على هذه الحالة الى أن
هدهدهما الحب وأنهكهما العناق فارتميا على أقرب مقعد وتجددت
ثورة جسديهما الى أن بلغت الذروة . ولم تخمد جذوتهما الا
عندما انتقلا الى غرفة النوم شاهدة الليالي الحمراء .

بعد ارتواء الجسدين من التلذذ بسر سرمدية التجديد ،
قانون الطبيعة الأبدي .. انتقلا الى صالة الاستقبال التي تغص
بوفود الزبائن . فاتجهت الأنظار نحوهما . وطالعتهم هناء
ببسمتها الرعناء وبغمزة اباحية من عينها النجلاء . واندمجت
معهم في تبادل النكات الجنسية كي تستفز شعورهم وكأنها
أحست بأن جميع الأجسام العارية . الشقراء والبيضاء ..
والسمراء .. والسوداء .، التي تتنقل كالأفاعي ، لا تكفي
لاثارة حفيظة الشباب الماجن . فعلا الضجيج في كل مكان
وشكل الحضور جماعات جماعات وكل فرد يتلهى بمغازلة من
لا تستهويه من الفتيات العاملات الى أن يجيء دوره مع فتاته
المنشودة .

أطلت أحد المومسات من الباب النصف مغلق فبان جسدها العاري إلا من غلالة حمراء تستر نصفه الأسفل. يسبقانه ثدييها الثملين . أطلت لتنقي فريستها ، أو بالأحرى لتنتقي الفريسة قانصها ثم نادت من وقع عليه اختيارها ليستلم دوره . فنهض ملبياً النداء لكنه فوجيء بمن كان أقرب منه لها يملأ الفراغ قبله . تبعه آخر وآخر . الى أن شابهت بحالتها مستودعاً للأقذار تأتيه شحنة بعد أخرى فيطلب المزيد ويرفض الاكتفاء. لكن اختها كانت أرسخ منها قدماً في المهنة وأفتح شهية . إذ خلعت ثيابها وتحدت برودة الجو بجسدها العاري ، لكنها استعاضت عنها بنظرات الشباب اللاهبة : بجوف مترع بجميع أنواع الخمور .

تقدم منها شاب أبكم فتحرشت به ، ولكي تستفز شعوره أخذت يده بيدها ووضعت أصبعها الوسطى بها . ثم مررتها على ثدييها ، فشعر بلهب يتأجج في مكامن رجولته . لكن بكمه أعجزه عن الافصاح عما به . فقضم كتفها بأسنانه وداعب مؤخرتها بيده . وكان بحركاته هذه موضع فكاهات الجمهور ومجال تعليقات كثيرة .

لكن اثنين شذا عن القاعدة ، وفضلا الانفراد . فاسترعيا الانتباه بكثرة حركاتها التي تدلى على مطارد وطريد .

شقراء فاتنة بجسد كنقاوة الثلج . تلفه غلالة سماوية . ممددة باسترخاء على مقعد وثير . وهو يغمر جسدها بنظرات راغبة وينتزع الغلالة عنه انتزاعاً . لكنه أحب أن تكون تخيلاته واقعاً لا وهماً . فغمز بعينه . افصحي عن ..

وامتدت يـــده الى الحرير اللاصق بالجسد فصدته .. وكانت شقراء ناقد تأكدت من وقوع الطريدة في شراكها . لكنهـا أرادت المماطلة والتسويف كجميع بنات جنسها لتملك قياد فارسها العنيد . لكن جسدها شذ عن القاعدة . وكان أسبق منها لتلقي الأوامر من الأيادي اللاعبة في الهـــواء . فانشق واديها الجميل ، وبان الكنز المخبوء الذي أرسل بدوره أسلاك لاقطة لجمع الاشعاعات الفضوليةالتي تسربت من المآقي الزائغة. وانجذب صاحبنا الى الامـــام . فأغرا فاه كأبله معتوه .لكنه عاد الى نفسه عندما رأى نظرات الحضور تتجه اليه . وذهب ليدفن ثورته في عش غرامهـــا . ذهب مسلوب الارادة .. جندياً بلا سلاح .

دقت الساعة الثانية بعد منتصف الليل . فملت هناء هذا الجو الذي يسير على وتيرة واحدة .وتاقت نفسها الى التجديد ونادت خليل سائق سيارتها وأمرته باحضارهـــا . ثم تأبطت ذراع وسام .

الى أين تودين الذهاب في هذه الساعة المتأخرةمن الليل ..

الساعة المتأخرة .. وقهقهت .. اننا في بدايـــة السهرة يا حبيبي .

هيا .. هيا .. وسار معها دون اية ممانعة .

وركبـــا في السياره فاندفعت بهما تسابق الرياح لخـــلو الشوارع من زحمـــة السير . واطاراتها تنهب الارض نهباً . واستقرت اخيراً على مدخل أحد ملاهي الزيتونة الليليـــة .

ترجلا منها وولجا مدخل الملهى فطالعتهم أنغـــام موسيقية صاخبـــة . تجاوبت في الداخـــل لترتد الى نفسية الحضور مشاعر .. بهيمية يسبغونها على الجسد العاري الذي ينثني مع الألحان كأنثناء صل اضربه القيظ .

تسمر وسام في مكانه عندما رأى جسداً عـــارياً (كما خلقتني يا رب) تلتهمه انظار الجمهور ، لتلفه باشعاع الشهوة المتأججة في الصدور .

نعم انه شاهد جسداً عارياً كهذا . لكن ضمن جدران أربعة وفي منأى عن العيون الفضولية . وكان يشعر بانحطاط نفسه وبخجل يغمره فيدفن خجله في وهدة عدم الافتضاح .

أما هنا حيث نضب مـاء الخجل من العيون ، فلا خفر ولا حياء لأن الاباحية المطلقة كانت قانون الجميع . وأحس بانه غريب في جو حشر به حشرا . وعـاد بذاكرته الى أيام خلت .. الى ايام كان يقضيها مع اصدقاء أوفياء .. مع فتيات محافظـــات يحاسبن نفوسهن على أدنى حركة تصدر عنهن . وشعر بنشوة الاخلاص لماضيـه تدب في أوصاله لترتفع به الى أسمى مشاعر الأنسانية . ففضل العـــودة من حيث أتى على الانغماس في محيط كهذا . لكن نداء الجسد كان أقـــوى من ارادته . فدفع به الى الداخل ليسير مع تيار الخضم الجارف . وأفاق من ذهـوله على صخب الحضور وضجيجهم . وجـال ببصره هنا وهناك باحثاً عن أية طاولة فارغة ليجلس عليها . فلم يجد حتى ولا كرسياً خالياً . لكن ضلاعة هناء في المهنـة

أكسبتها عطف الجميع . فالتقاها مدير الملهى بالتأهيل والترحاب وأفسح لها مكاناً في المقدمة . فجلست وجلس وسام بقربها . ثم نادت الساقي .

جميل ..

نعم سيدتي .

وسكي مع الصودا .

حاضر سيدتي .

وتقارعت الكؤوس .

وسام .. أأنت مسرور .. وقبلته أمام الجميع . فارتبك وشعرت بارتباكه ، خذ حريتك ، اننا في صالة الفرح والسرور والحرية ..

وردد وسام في داخله .. حقاً انها صالة الأباحية والحرية . وانتشى بمشاهدة الأجساد الفتية الثملى المنشورة حوله كالنجوم حول القمر . وأحب أن يكلم هناء فلم يجد أي موضوع يبحثه معها . أما هي فاندمجت مع الحضور بحديث ماجن وعيونها تتابع فصول العرض .

سيدة هناء ..

من .. واتجهت نحو مصدر الصوت . سيد فؤاد . ولوحت له بيدها .. ماذا تريد ؟..

انني .. ونهض من مكانه في أقصى الصالة ثم أتى إليها . لكنها قابلته في منتصف الطريق بعد ان اعتذرت لوسام مخافة من غيرته وعنفوان طباعه . وعادا إلى طاولة فؤاد .

بقي وسام وحيداً فترة طويلة لأن جلسة هناء طالت مع جليسها أكثر من اللزوم . فتسرب السأم إلى نفسه رغماً عن الجو الذي يحيط به . لكنه تلهى عن سأمه بسماع حديث أثار اهتمامه .

انظر .. انظر يا جورج .. انها هي التي أخبرتك عنها .

وأشار الى فتاة يونانية كانت تعتلي خشبة المسرح آنذاك .

أهي فتاة الأمس ؟

نعم .. وعض على شفتيه قهراً .. لقد كلفتنا ليلتها ألف وسبع مائة ليرة فقط .

ألف وسبع مائة ليرة .. وليلة واحدة .. ان هـذا لا يصدق ..

إنه عين الصواب .

دعنا عن الخلط .. هل صنعتما لها ثوباً من المال يا ترى ..

والله .. إنها الحقيقة يا صاحبي . وتنهد تنهدات طويلة ..

أتراني بقدرك من الجنون حتى اصدقك ..

جنون .. نعم جنون .. لكنك إذا عرفت ما مر بنا لصدقت ذلك ..

حسناً .. ماذا حل بكما ؟ ..

منذ مدة وجيزة أتت هذه الشقراء إلى مربع الكيت كات . وتناقل شهرتها الجمهور . وحامت حولها الأعين كما يحوم النحل حول رحيق الأزهار . وبحكم ترددنا على مرابع الليل أنا وسليم ،

تعرفنا عليها . وكان معي اثناء ذلك ألف ومماية ليرة ومع صديقي ستماية ليرة . اقتصدهم من معاشه الشهري ،وأحضرهم معه إلى السوق كي يدفع قسط البراد ، ويشتري بعض الحاجيات لزوم بيته .وكان سوء الطالع دليلنا . إذ جالسناها ليلة البارحة بعد ممانعات عديدة . لأنها كانت ترفض مجالسة الزبائن . لكن وسامتنا شفعت لنا عندها . فقبلت قصدنا . وكان كرمنا حاتمياً دون حساب فظنتنا بعض امراء الشرق . لذا تعلقت بنا تعلقاً أعمى . وبعد سهرة صاخبة امتدت الى حدود الساعة الثالثة صباحاً .وكان قد تعتعنا السكر . انتقلنا بصحبتها إلى فندقها . وكان من فنادق الدرجـــة الأولى . وصعدنا إلى غرفتها الخاصة .. وداوم رأسي على الدوران من تأثير الخمرة وتدافعت بداخله خيالات متشابكة متنافرة .

خيوط انسلت من المجهول ، وحيكت على نول الواقـــع فكانت حصيلتها فكرة جهنمية لم ألبث ان عرضتها على سليم وسرعان ما وافق عليها . وامتـــدت يدي إلى جرس الخدم فقرعته . وسألتني بفرنسية ركيكة ، لأنها تجهل لغتنا ، ماذا تريد سيد رياض .

وكان الخادم قد حضر قبل الجواب .

من فضلك ثلاثة طرود من زجاج الشمبانيا .

وفغر الخادم فاه دهشة . ثلاثة طرود شمبانيا .. ولماذا .. وعدّنا في مخيلته . هي .. وهما ثلاثة . ولنفترض ان الواحد منهم شرب زجاجتين أو ثلاثة .. والبقية .. لكنـه

قلب شفتيه علامة الحيرة .. وذهب ثم عاد بعد حين وأحضر طلبنا .

من فضلك .. ضع زجاجتين على الطاولة في الغرفة والبقية أرسلها الى الحمام .

زادت دهشة الخادم من تصرفاتنا . لكنه نفذ ما أمرته به دون معارضة . ولم تكن ماغي أقل منه استغراباً وأحبت أن تسأل عن تصرفي الشاذ في نظرها . لكنني أسكتها بإشارة صغيرة . وسر حالي يقول لها : تمهلي وسوف ترين .

تقدم سليم أمامي الى الحمام وساعدني على فتح الزجاجات. فزادت دهشة ماغي .. هل انتما برميلان .ما هذا التصرف.. وكان جوابي لها ان سددت صمام الحمام . وبدأت بإفراغ الزجاجات عندئذ زال استغرابها .وكان تجاوب تفكيرها مع تفكيرنا مدهشاً . إذ بدأت تتعرى تلقائياً .. لكن فضولنا لم يقف عند حد . وكانت أيدينا تسابق نظرنا على دغدغة جواهرها النادرة . وانسلت من بيننا كانسلال الزئبق . وأدارت المسجل القابع على طاولة في أحد زوايا الغرفة . وكانت ذواقة فن .خبيرة بمتطلبات هذا الجو البهيمي المحموم.. فانتقت شريطاً موسيقياً كلاسيكي النغم وأدارته خفيفاً ناعساً . يتغلغل في أعماق النفوس الصاخبة ليهدىء من غلوائها. وعادت الينا باسمة ضاحكة ..

أخذتها بين يدي وألقيتها في المغطس. وكانت سباقة مرح. فقذفتني بملء يدها خمراً مع الرذاذ الذي تركه جسدها ليستقر

على ملابسي وعلى صديقي سليم الذي شاركني بتدليك الجسد السابح امامنا .

فغر جورج فاه استغراباً ثم تساءل :

أبلغ بكم الجنون الى هذا الحد ؟ ..

جنون .. أفي ظنك كنا نعي ما نفعل .. إنه الخمر يا صاح .. عصير الكرمة وعصير الجنس .. قوتان لا رادع لهما. وإليك ما فعلنا بعد ذلك .

كفى .. كفى .. إن ما أخبرتني عنه كاف يا رياض .. لقد أذهلتني .

لا .. إستمع .. وعدل جلسته .. أن الباقي أعجب مما مضى بكثير ..

إنه أغرب من الخيال .

أيوجد أغرب من هذا أيضاً .

نعم يوجد .. إستمع إذن ..

وقرب وسام كرسيه منهما كي لا تفوته أية كلمة من الحديث وكان ذهوله أشد من ذهول جورج . حقاً إنه لمجتمع غريب . مجتمع بيروت هذا .. إنه يجمع من المتناقضات المبكية المفرحة التي تضعضع أعقل الأدمغة وأهداها .

بينما كانت ماغي مستسلمة لمداعباتنا إستسلاماً حالماً . كنا نحن نتبارى بإيجاد أسالب لم يسبقنا إليها أحد في عالم الفحشاء . عندما كنت أرشف رأس نهدها بشفتي المحمومتين وقطرات الخمر تتسرب منه إلى فمي . كان سليم يغذي سيلانها كلما

همت بالانقطاع بسكب ما يصبه بفمه من ثمالة الجسد العاري.
ثم بعد حين يأخـــذ مكاني لأعيد دوره بسكب الخمر على مؤخرة النهد الذي يتلألأ تحت ضوء الكهرباء كتلألأ السراب في يوم حر لاهب.
حقاً أنك ضعضعت عقلي.. لكن كل ما مر بكم لا يحتاج إلى صرف كل هذا المبلغ الضخم.
صدقت.. أننا لم نكن بحاجـة لصرف كل هذا المبلغ. لكننا كنا في وضع لا نحسد عليه.. بعـد ذهاب آخر ذرة من عقلنا ومع انهيارنا كلياً. بقيت ملكة التلذذ بالمفاتن القمة أقوى من إرادتنا. فتضافرت مـــع القدر لتسلبنا آخر ليرة في جيوبنا. فكنا نأخذ ما تبقى معنا من نقود ونلقي بها في الهواء. لنتمتع بمشاهدتها وهي تتساقط فوق الجسد العاري.
وماذا صنعتم بعد ذلك..
بعد ذلك..وهل كنا نعي ماذا نصنع وفي أية حالة كنا.
لا.. كلما نعرفه أننا صحونا في الساعة العاشرة صباحاً. وتأثير الخمر ظاهر على حركاتنا وعلى تفكيرنا المشوش. حتى أننا أردنا الذهاب فلم نستطع تمييز سيارتنا عن غيرها.. لكن الصدفة انتشلتنا من ورطتنا. إذ أرسلت لنـــا صديقاً لوالد سليم يشتغل سائق تكسي، فاشفق علينا ونقلنا إلى منزله.
تابع وسام فصول الحديث فتعجب من إنحطاط عقليـات قوم طبق عليهم قول المثل (مناجيس قوم في ثياب أكابر).
وتساءل في سره.. ألف وسبع ماية ليرة في ليلة واحدة..

يا للجرم والفضيحة .. ألم يجدر بهما أن ينفقا هذا المبلغ على إعانة العائلات المستورة .. هذا إذا كان فائضاً عن حاجة عيالهما .. وبعضاً منه على مساعدة الأيتام الذين يتضورون جوعاً .. إرحمنا واشملنا بعطفك يا الله .

وتعامى عن الجسر الذي في عينه . ان الإنسان بطبعه مركب على النسيان . لا ينظر إلى أعمال الغير بمنظار نفسه .. الضيعة .. والكروم .. واغضاب والديه والألفي ليرة ، ومشاريعه الوهمية، ووجوده مع هناء في أحط مواخير المدينة. هذه كلها أمور تافهة في نظره .

هناء .. حقاً أين هي هناء .. كيف نسيتها .. وجال ببصره بين الجموع الراقصة فشاهدها تخاصر الغريب الذي ناداها وشفتاهما تكادان تتلامسا ، وصدرها ممعوس على صدره. فبحلق عينيه كأنه لا يصدق ما يرى . لكنها الحقيقة. وشعر بالغيرة تنهش كيانه ، وبماء كرامته يسفح أمامه .. أين رجولتي .. أين شرفي.. وتحفز للإنتقام ، لكن بنظرة خاطفة لما يحيط به هدأ بعضاً من غلوائه . هذا شيخ هرم وسبعيني يجلس وحيداً بعدما تركته كريمته ، لتراقص بعض الشبان .. وذاك آخر أفسح الطريق لزوجته كي تغازل رجلا غريباً عنها . ليستأثر هو بأمرته .. وحكم عقله إنه قانون المقايضة . المجتمع الفاسد ، الحرية .. نعم ان مسلك هناء لا يعيبها لأنها تطبق عادات مجتمعها .. وهو .. هو الغريب عن هذا الجو.. لقد بدأت نفسيته تندمج معه على ما به من متناقضات .

وبينما هو سادر مع تجوال أفكاره. تقدمت منه فتاة هيفاء وجلست بقربه دون استئذان .

سيد ..

وسام جابر ..

تشرفنا .

زهى خليل .

تشرفنا ايضاً .

لماذا أنت وحيد سيد وسام ..

وحيد .. بين كل هذا الجمع وحيد .. لا .

أقصد وحيـــداً على طاولتك سيدي .. أعني أين هي رفيقتك ..

رفيقتي .. إنها تراقص بعض الحضور ..

وأنت .. ألا تحب الرقص .

قليلاً .. فأنا تلميذ جديد .

وإستاذتك .. هل تبدلها بأخرى ..

إبدالاً مؤقتاً طبعاً .

وأبتسمت إبتسامة ذات معنى .

لا مانع إذا كانت الإستاذة الجديدة لا تقسو على التلميــذ الكثير الأغلاط .

وقهقها معاً . ثم نهضا وانسجما مع الحضور برقصة التنغو الحالمة .

وتلاصق الصــدران . ونهداهــا معسا على كلكله . فولدا

في داخله ناراً أجوجاً صعدت على فمه همسات حارقات وتلامس الوجهان . والتقت الشفاه بقبلة نبيذية معتقة تخللتهـــا بعض الوشوشات .

شدني إليك بقوة . . بقوة . . أذبني في أتون جسدك اللاهب . إن قلبي في شفتي ، خذه ، خذه ، إنه لك . . إنه من نار .. إن بيتي في الشارع الفــلاني . رقمه كذا ورقم تلفوني كذا .. أطلبني ساعة تريد ، فأنا رهن إشارتك .

اذلال وخنوع

مع إنسلال خيوط الفجر تفرقت الجموع كل إلى منزله . وكأنهم شعروا بوطأة إباحيتهم ، وخافوا إفتضاحها في ضوء النهار فذهبوا ليدفنوها في أسرة خزيهم كي ينفضوا عنها غبار الموت ثانية عندما يجن الليل .

ووسام فتى القرية الورع تحطمت نفسيته بعد تكرار غزواته الليلية على صخرة المجتمع المتأغرب (من كلمة غرب) السائر في طريق التقليد الأعمى . وأصيب بانهيار خلقي أفقده جميع القيم الإخلاقية التي كان يتمتع بها سابقاً . ومرغ هامه على أقدام الرذيلة ولوث شرفه بالوحل ثم أصبح آلة مسيرة في يد هناء ، تديرها مثلما تريد . واعتاد على شم الهيروين . وأدمن على كافة المخدرات فتغلغلت في جسده تغلغل السم البطيء ، وأضرت بصحته . فتدرجت من سيء إلى أسوأ ، ووهنت قواه ومرض . فبدأت هناء تمله رويداً رويداً إلى أن أصبح في حياتها كمن سبقه من الفتيان . . ووطدت العزم على طرده مراراً . لكنها كانت تحجم من ذلك طمعاً بماله .

المال .. نعم المال .. وبرقت عينا هناء .

وسام .. أين أنت ؟

نعم يا معبودتي .. وركع أمامها بذلة وإنكسار . . ماذا تأمريني .

إنني رهن إشارتك .

هل بقي معك نقود .

نقود .. وضحك ضحكة باهتة صفراء . . وهـل تركت معي نقود .. ألم تأخذي مني البارحة ما تبقى معي من ليرات ذهبية ..

ليرات ذهبية . . أنا أخـــذتهم . يا لك من سخيف . . والهيروبين الذي كنت تتهرينه من أين كنت أحضره لك . . أمن مال الشيطان .. هيروبين .. هيروبين . حقاً هيروبين من فضلك أعطني درهماً ، ذرة .

أعطيك هيروبين..ومن أين ..أمن بيت أبي..أم من معملي .

إن الهيروبين يحتاج إلى فلوس .. فلوس . . ونظرت إليه نظرة قوية حطمته وأذلت كبرياءه .

هناء..معبودتي الحبيبة.قالها بضراعة ومسكنة..أنا وسام..

أنسيت وساماً يا هناء .. وسام الذي كنت تركعين أمام قدميه وتطلبين منه حتى نظرة رضى .وسعل سعالاً متكرراً، ثم بصق تفل سعاله في محرمته ووضعها في جيبه .

إغرب عن وجهي .. أتتطاول على كرامتي ايضاً .. انا كنت أركع تحت قدميك ؟ .. ثم صفعته صفعة قوية أطارت الصواب من رأسه .. فوقع دون أن يبدي أو يعيد .

هناء . أهـذه آخرتي معـك .. أنا وسام الذي كنت لا

أرهب السباع في آجامها عندما كنت في قريتي . ولا أحسب أي حساب لأشد الرجال وأسطاها .. وأنت .. أنت الآن تتجرئين على صفعي دون أن يرف لك جفن ..

وراجعت هناء ضميرها . فندمت على ما جنتـه يداها .. حقاً إنني قد ظلمته . ولكن ما حيلتي .. لقد أصبح أثراً بعد عين .. وكبا به الجواد عدة مرار . وعندي مثله الكثير .. هل أحتفظ به دون فائدة. وأتتها فكرة . لماذا لا تستخدمه. لكن لا .. لا يرضى بذلك .. إنه غني. وعنده مال .. سيفر مني الى القرية ، لقد كانت غلطتي . كنت أجهده دائماً دون حساب للمستقبل .. كنت أظنه من غير معدن الرجال . أين قوته .. أين جبروته .. أين صلابة عضلاته . أهكذا في مدة وجيزة لا تتعدى الثلاثة أشهر تضمحل جميع هذه القوى .. لكنه إنسان قبل كل شيء . والنساء .. والهيروين ، والخمر ، والحشيش ، والسهر المتواصل .. وأخيراً المرض . كلها أشياء فتاكة تكفي لقتل ثور . فكيف إذا كانت مجتمعة .

وسام .. لا تؤاخذني .. كنت في ثورة جنون عندمـــا امتدت يدي اليك. ومسحت جبينه المصفر بيمينها . فأعادت له الحياة .

هناء . بربك هناء . إن أعصابي تأكلني .. إرحمي عبدك. هيروين يا هناء . وأعطته غراماً من السم الأبيض فوضعه في جورة إبهامه وتنشقه على دفعات ثم غاب في موجـة تأملات طويلة ..

توبة كاذبة

قرع الباب في الساعة السادسة مساء عند السيد نديم جابر ، فتجاوب مع قرع القلوب الواجفة التي أضناها الحنين لملاقات الغائب الحاضر . لأن كل حركة يكون مصدرها الخارج كان أهل الدار يظنونها صادرة عن وسام . فيندفعون نحو المصدر ليتثبتوا من ذلك. لكنهم كانوا يعودون والخيبة ملء أعطافهم. أما الآن فقد تحققت آمالهم .. وها هو وسام بقامته الذابلة ينتصب أمامهم .أصفر اللون .زائغ البصر .متهدل الوجنات. فهالهم منظره وعصرت قلوبهم لوعة عليه . فطالعته الوالدة الملهوفة بأسئلة كثيرة ، بعد إن ضمته إلى صدرها .

ما بك يا ولدي .. أية داهية دهماء سلبتك زهرة شبابك .. أين نضارتك وفتوتك ..

إنه العمل . إنها الخسارة ، آه من الهموم وسمها القاتل .

خسارة .. خسارة وأي نفع لك من العمل دون فائدة .. دع المدينة إلى أهلها . وعد إلى أحضان تربتك . إلى أمك الأرض التي وهبتك نضارة شبابك . عد إلى عطف والديك وحنانهم لأنهما أبقى لك من الجميع ..

حبذا ما تطلبين كان هذا ممكناً بالأمس .. وتنهد تنهدات

طويلة عصرت قلبا والدته وشقيقته..أما الآن بعد أن خسرت ما خسرت لا أستطيع التوقف عند هذا الحد ، علني أعوض من خسارتي قليلا .

وسام .. وسام .. أح . أح . أحم .

أدخل ، إن والدك يناديك .

وكان والده قعيد الزاوية في المربع الآخر . قرب الموقد ينكت الرمـــاد بملقطه ، ويقلب بضعة جمرات كادت تخمد جذوتها . وفكره يجول في البعيد البعيد . فولج إليه ، وشد ما كانت دهشته . عندما رأى جبار الأمس متداعياً أمامه . ودمع الحنان يترقرق في مقلتيه .

أبي .. أبي .. ما بك . أي أمر دهاك . وتساءل في سره ، أين أنت من الماضي يا أبي . . أين همتك ونشاطك .. ليتني مت قبل تعرفي بك يا هناء . أفي أشهر قليلة تذهب قوة أضناها الحزن والأسى .. وكان لا يقوى عليهـا مرور أعوام لو هي حازت على الطمأنينة التي فطرت عليها.وتسابقت الدموع على وجناته لتبلبل الأيـــدي المعروقة المرتعشة التي أمتدت لاحتضانـــه . ثم اختلطت الدموع بالدموع ، وشعر وسام براحة سلسة تغمره عندما ألقى برأسه على صدر والده ونسي كل ما مر به في غمرة سعادته . وأحس بـدفء الحنان الأبوي ينبعث مع الكلمات الراجفة ، ومع النظرات المتشدةفي المآقي المجوفة .

ولدي..ولدي..وسام.. وتهدم الشيخ بين أيادي وحيده .

وسام .. إنني . ولم يعد يستطيع إتمام الحديث .

وكانت أم وسام قد دخلت أيضاً مع آمال التي هزل غصنها فتعاونوا على نقله إلى فرشته .

أبي .. أبي .. لا تجهد نفسك . . ها إنني أعود إليك والندم يحطم قلبي . إنني رهن إشارتك ، فلا تحمّل نفسك فوق طاقتها ، وكان يضمر في سره عكس ما يقول. ونظرت إليه والدته دون أن تكلمه ولسان حالها يقول : أنظر ما جنته جهالتك .

وصحا أبو وسام قليلا فأشار إلى ولده أن أقعد بجنبي . وقعد وسام . فمسح جبينه بيده المعروقة ولمس شعره الذهبي بحنو ورفق .

وسام .. الحمد لله الذي أراني وجهك قبل أن أموت . لأنني أشعر بدنو الأجل . وبقرب ساعتي . بني ها إنني لا شيء .. أسير إلى حتفي حثيثاً . دعني أقطع الحقبة الأخيرة من حياتي وعينايا مقرورتان بالنظر إليك . دعني أغمضها على مرآك وأنت متمتع بجميع قواك الجسدية . محافظ على معنوياتك . وحدق به طويلا . ما هذا الذي آراه .

أين قوتك .. أين شبابك يا وسام ..

أبي .. أنه عارض بسيط وقد زال والحمد لله . لقد مرضت ودخلت المستشفى ما يقارب الشهر أما الآن فقد تماثلت إلى الشفاء . إن جو المدينة قد أضر بصحتي .

وسألته والدته بلهفة . مرضت .. ودخلت المستشفى . .

لماذا لم تخبرنا .

لم أخبركم .. نعم لم أخبركم لأنني لم أود إقلاق راحتكم.

وهل كانت حالتك خطرة .

لا .. وتعمد التسويف لأنه وجد مادة حديثة . سلاحاً قوياً يظهره بمظهر الضحية .

وما نوع مرضك .

بحسب قول الحكيم ضربة دم . ولكن .

لكن ماذا .. قل بربك .. وضح

لا .. لا شيء، وهو هكذا كما أظن .

وسام .. نحن أهلك .. هل تخفي مرضك علينا .

أخفي مرضي عنكم .. لا . لقد قال إن ثنايا تعبتان أيضاً .

وهلع قلب الوالدة . وتغيرت هيأة الأب .

لا .. لا تخافوا ودخلت آمال ، وفي يدها كوب من عصير الليمون . خذ وسام .. إن هذا يساعدك ويروق رأسك . . إنك أصفر زيادة عن اللزوم . . وهـذا الضعف . . رباه أية داهية دهماء حلت بك ..

قلت لكم لا تخافوا .. إنه عارض خطر كما قال الطبيب. أما الآن فقد زالت جميع آثاره بحمد الله . إن جو المدينة قد أضر بصحتي .

ولدي .. وقاك الله من كل شر . . وود لو يستطيع أن يهب وحيده ما تبقى في جسده المتداعي من حياة ، ليعوضه

ما فقد منه . لكن أنى له ما أراد وكل ذرة من حياتنا في يد الله .

حبيبي .. لا تدع الغصة في قلبي بإنسياقك نحو النقائص.

وكان ضميره يشك في سلوك وسام، وبأنه يسير على عكس السبيل الذي أختطه له .. إنني قد أنرت نفسي شمعة لأضيء طريقك في تعاريج الحياة . وهذه الشمعة قد أذابتها عائدات الليالي . وأطفأتها رياح النوائب . وستدفن عما قريب في طي النسيان . فاستغنني عنها بشبابك ،. بإرادتك ،. بأخلاقك الطيبة ،. بكرم محتدك ،. وكن خير خلف لخير سلف .

والدي الحبيب . كن قرير العين ، لأنني سأسير على طريق رسمتها يد الآلهة بريشة نفسك الطاهرة .

عندما نطق وسام بهذه الكلمات شعر بانه مجرم مرتين .. مجرم بحق نفسه وبحق والده .. بحق تلك الشعلة التي ستقابل ربها عما قريب . لكنه دفن خزيه في رمس مصلحته الشخصية. ودفن جميع انطباعاته في مظاهر الوفاء والاخلاص . وكانت اثناء ذلك عيون أربع تذرف دموع الفرح والابتهاج عيون أم وسام وآمال لظنهم بأن وسام سيبقى معهم . وشكرتا القدرة الإلهية على نعمة هبطت عليهما من السماء . على أمل راودهما بعد أن فقدتا في رجوعه كل رجاء .

طفل ورجل

جلس وسام بين ظهرانيهم والحيرة تأكل أعصابه .. والده .. والدته .. وآمال . عطف وحنان ، فرح وابتهاج.. والجميع يجسدون به آمالهم .. وهناك في صورة تماوج مع الأثير ، فتتجمع وتتجمع الى أن تطغي على كل شيء . وصمت يجلجل في الفراغ . في قطعة من الحياة . في نقطة ذرة من من الجسد الأكبر . من المجموعة البشرية التي هو منها .. في شيء مجهول يحسه ولا يفهم كنهه . فيندفع معه ويندفع مسلوب الإرادة طريداً ذليلاً . صورة ذرة لا قيمة لها ولا افادة منها إلا في نظره ونظر كل من له صلة بها من الموتورين أمثاله. مجهر للاوهام .. حب.. وأي حب .. ذل وامتهان.. احتقار وانتقام .. خنوع واستسلام . هذا هوا الحب في عرفه ، نار أكول تتلظي ضمن هيكله .. في شرايينه . في دمه ، في شعوره .. في تفكيره .. حياة يعيشها في الذكرى لأنه تهدم معنوياً وأصبح أثراً بعد عين .

أوهام .. عدسات لمهجر مضلل كبر صورة فكانت لاشيء في كل شيء .

وصوت يهدر راعداً .. موج هائج .. عاصفة عمياء ..

آلاف .. ملايين المطارق تسقط على صفائح الحديد ، فتدوي وتدوي كالرعد القاصف لترتد في عالمـه .. في رأسه .. في جمجمة قعواء محتوياتهـــا عدسات لاقطة لكل ما تشاهد ، وشريط يسجل عليه كل ما يسمع .. صداه يتجاوب مع رجع صدى في فراغ كرقعة الفضاء ، اتساعاً .. وهل لغمامة عابرة مهما كبر حجمها أن تحجب وجـــه الفضاء .. ورأسه فارغ إلا من شيء وهمي لا وجـــود له إلا في مخيلته . هناء أكسير الحياة .. وبدونها يتضعضع عقله . يجن .. هي الداء وبها الدواء .. اذا لا مفر من الرجوع اليها .. لماذا المواربة.. انه رجل ويملك حق تقرير مصيره . لكن كان في قرارة نفسه طفلاً يرتعد فزعاً .. وعيناه تبحث عن ثدي والدته . انه جائع . فرق .. غول كبير سيبتلعه .. إنه بحاجة الى حماية. ومن له ليحميه غير أب رؤوف وأم رؤومة .. انه يريد لعبة ليلتهي بها . كيف يعبر عن ذلك.إن إرادته أكبر من جسده وجسده سجن لنفسه . ونفسه بحاجـة للسانه كي تعبر عن مشتهاها .. ولسانه عاجز عن النطق . فبأي وسيلة سيحقق ما يريد .. لا شيء .. لا شيء سوى العويل يدفن إرادته ضمن تموجاته .

ما بالك يا وسام متردداً وحاجماً .. هكذا نطق الرجل. فانتفض الطفل وترعرع .. وشب الى ان بلغ ..لا إنني أريد. وسأحقق مـا أريد ولي إرادة قوية وجسد صلب . ونفس

طماحة ، ولسان طليق ، وصبوة سأحققها ولو وقفت الأجيال حائلاً دونها .

هناء يا معبودتي الجميلة .. يا مالكة فؤادي . . حقك أن تغضبي وتشتمي .. نعم حقك لانني جبـان أكتم حبك عن والدي .. وأراوغ أراوغ .. لكنها الوسيلة وأنت الغاية . وما ضرني إن كنت حاصلاً على الغاية وإن تدنت الوسيلة . .

لا أنت جبان وتخـاف من مواجهة الحقائق . فتدخل البيوت من غير أبوابها .

هكذا نطقت هناء كما تخيلها .

أتستحي بي .. أتخجل أن يعيروك بضعفي . . ولماذا .. إنها وسيلة منحطة مظهراً . لكنني أصدم بها الواقع وأواجه الحقيقة دون مواربة ولا إلتواء .. ألست أفضـل من الذين يصلون لنفس الغاية تحت ستار التقوى والفضيله . . في ثوب المكر والخداع .

لا .. إنني لا أستحي بك وبمعيارك . . إنني أعلم بأنك أرفع مقاماً من الجميع وأشهد بأنك أطهر منهم ذيـلاً . لا تغضبي ، . سأصارح والدي بواقع الامر . سأقول لهم إنك صبوتي وكل أملي في هذه الحياة. وإن فاضلوني بينك وبينها، عظامي ستردد إنك لي وهما إلى الشيطان .

وسام .. يا ولدي الحبيب .. لا .. لا أريد أن أسمع .. قالها بخوف وضجر . وكان صوت ضميره قد أتاه بصورة والدته ..

ولدي .. ولدي ..

لا دعيني.. إنني أكاد أتحطم لا أستطيع تحمل هذا.. دعوني.. دعوني أعيش.. وأغمض عينيه ، وسد أذنيه بأصابعه ليحجب الصورة ويمنع الخيال .

ما هذا الخوف .. ما هذا التردد يا وسام .. إنك رجل.. لك القوة ولك المستقبل والحياة تشدد.. كن أكبر من المشكلة التي وجدت بها دون إرادتك .. أترك حلها إلى الايام .. إن لكل معضلة حلا سيأتي دون أن تترقبه .

هكذا كائن حي كان يتجاوب داخل وسام . لكنه كائن غير منظور على مائدة نفس حطمتها الأحداث مع آخر وآخر من أمثاله . ولكل كائن أساليبه وتعابيره في توضيح مفهوم الحقائق والوقائع .

ما هذا التضارب .. ما هذا التناقض .. أي قانون وضع لتسيير دفة الكون .. ألا يستطيع رجل أن يوفق بين شخصياته المتعددة ولو ضمن تفكيره .. ألا يستطيع صهر جميع هذه الشخصيات في بوتقة شخصية واحدة ؟ حرب وحرب في النفس .. وفي التفكير .. في الضمير .. من الرابح ومن الخاسر يا ترى ؟

إلى أين تطرقت يا وسام ..إنك كائن تعمل ما لا تريد.. وتريد ما لا تعمل .. إنك مسير بفضل قوة خفية .. تصويبها وتحديدها يتعديان نطاق مفهومك .. لا تحارب .. إرم السلاح .. هي ستقرر لك مستقبلك ..

لكن لا .. أنا أريد القوة تنبع مني . أريد أن أصارح والدي بجلية الأمر .

وسام .. أي فائدة ستجنيها من جراء مصارحتها .. هل أنت واثق من موافقتها .. وهل تضمن النتائج ..

لا .. إذن دع هـذا لنفسك .. ابقيه طي الكتمان لتتمتع بلذة بنشوة مفهوم الأنا . لأنك إذا وضحت لها كل شيء تكون قد أذبت أناك في بوتقة شخصيتها . وبفقدك وجود شخصيتك وتكون قد حكمت على إرادتك بالاضمحلال .

تجاوبت جميع هذه الأصداء ضمن هيكل واهن ، انحل تدريجياً مع مرور الزمن من جراء الأحداث التي تعاقبت عليه . فعاف التجديد وأحب الركون الى الخلود والسكينة . لكن شيئاً مبهماً كان يشده إلى عجلة الوقت . لينذفع معها وينذفع في فراغ يملىء فراغ . حياته حلقات مختلفة الأشكال والأحجام . تربطها ببعضها رغبة البقاء . وتنتهي بقيد يسوّر جسده .. قيد ثبتت أصوله ببلاط إرادة هناء .

مضت الساعات تجر نفسها متثاقلة في وحشة الليل البهيم . فأثقلت وسام بما يعجز عن حمله من هموم وتخيلات وخيالات لا نهاية لبدايتها . ففقد صبره ، وناشد الله أن تمر عليه ليلته دون أن يصاب بمس . ولم تكن حالة أهله أفضل من حالته . لكن اختلاف الوضعين كان في اتجاه تفكير كل فرد منهم . كان وسام في عزائهم وهم في هنائه . كانوا يفرشون دربه بالورود والرياحين وهو ينجر لهم الخوازيق . هو أمضى الليل يفكر بهناء وكيف سيعود إليها . وهم كان تفكيرهم محصور برضه وبرضهم بعودته إليهم .وما ان طلع النهار حتى فاجأهم بعزمه على الرجوع إلى المدينة .ولم يكتف بذلك : بل طالبهم بنقود . إنه بحاجة إلى نقود . إنه خسران ويريد أن يعوض خسارته .

صعق الأب واصيب برجفة شديدة ، ثم بانحلال كلي اجبره على الانطواء . لأن ردة الفعل التي احدثها قرار وسام كانت أقوى مما يتحمله جسده الضعيف . بعد أن بنى مستقبل وسام على احلام عذاب . وغابت مقاومة أمال ووالدتها في لهفتها واهتمامها باسعاف الشيخ المسكين . لكن عيونها كان بها شيء من التأنيب ممزوجاً بالاستعطاف . ولسان حالها يقول : انظر ما جنته فعلتك يا قايين .

توقف جسد وسام عن الحركة ، وأصبح كأنه صنم لا يريم . والشيء الوحيد الذي يميزه عن الجماد كان عينين زائغتين تتنقلان من والده إلى والدته إلى أمال . لكن خياله كان يحول

هناك ، حول المواخـــير .. في الطرف الكحيل . في الخصر الضامر .. مع الكاس .. وأخيراً في عالم الاحلام .. عـــالم الهيروبين .

كان جو المربع الذي يسكنونه (مربع الشتاء) خانقـاً يضغط على صـــدره شيئا فشيئاً حتى كاد ينفجر فخرج إلى المربع المجاور (غرفة الاستقبال) الذي تتصدره مرآة كبيرة من البلور الصافي وتقابلها من الجهة الأخرى صورة نصفية كبيرة للعائلة بكاملها. ضمن اطار جميل صفت على جوانبه من الداخل صور صغيرة لبعض الأشخـــاص من ذوي قرباهم أو أصحابهم المفضلين . وصورة أخرى للسيدة العذراء وهي تحتضن طفلها يسوع وضع أمامها مذبح صغير صفت عليه آنية الزهل بكل عنايـة وترتيب . وفي الوسط سراج مضاء لا يطفأ في أثنـاء الليل ولا في أطراف النهار .

أما ارض المربع فـكانت مفروشة بقياس كبير من السجاد العجمي الثمين . ينتهي قبل انتهاء صدر المكان ليبتديء آخر فيحتل مكانه فوق طوطاية سميكة ارتفعت عن الحضيض قليلاً فوق افريز خشبي . وكانت مساند القش الافرنجي بوجوهـا الدمسكية تقبل الحائط بقفاها الخامي الأبيض . وعلى حافتها الأمامية ارائك من الحرير والمخمل مطرزة تطريزاً جميلاً زاهي الألوان . وعلى الجانبين دواوين خشبية فرشت اجمـل فرش ورتبت بمعرفة ذوق سليم . وفي الجهة اليمنى عنـــد المدخل تربض خزانة للاواني الزجاجيـة نصفها الأسفل خشبي مطعم

بفصوص من العظم المصقول اللماع . وذلـــك بشكل عروق مختلفة الرسوم والاحجام. والنصف العلوي ذو واجهة زجاجية تظهر ما بداخله للعيان .

من هما هذان الضيفـــان الثقيلا الظل .. من دعاهما إلى زيارتنا في وقت نحن احوج فيه إلى الراحة .. وهذا الضعيف المتهالك ما باله تعوي النقمة في عينيه .. وهذا الوسيم الجسيم ما هذه الابتسامة المشرقة التي تمور على شفتيه .. ما بـه .. ايهزأ مني أنا وسام صاحب الدار ..ما هذه الوقاحة .. يا لقلة الأدب . سا .. لكنه رجع الى نفسه وقال : الأجدر بي أن أسألهما عما يبغيان وبعده سنرى .

كان وسام يجوس في فناء المربع بجسده وناظريه ، لكن عقله كان في عـالم آخر . ضالاً لا يستقر له قرار . فمد يده ليصافحهما لكن يده اصطدمت بالجمـــاد . فارتد مذعوراً . ماذا .. من .. ألا يوجد أحد .. لكنهما كانا هنا منذ هنيهة . لقد شاهدتهما .. نعم كانا هناك . ثم فرك عينيه ليتأكد من أنه ليس في حلم . وفتحهما على نفس المشهد . ضيفيه الثقيلي الظل . فتفاعل في ضمنه صراخ مكبوت. وشعر بانه يحتاج الى حماية .. الى من يظهر له جلية الأمر . ودار تلقائياً الى الخلف مولياً ظهره الى المرآة فواجه في الأخرى رسمه معلقاً على الجدار . انه نفس الضيف . انه ليس بضيف . لكن لا ،. ووضع يده على صدغه وبدأ يفكر .

انه أنا .. هذا رسمي .. والآخر من هو .. ألا يزال هنا ..

ودار أيضاً على نفسه فواجه بديله بالمرآة .. وهذا أنا .. أي فرق .. أي بون شاسع بين الأمس واليــوم . . وبدأ العرق البارد يتصبب فوق جبينه فمسحه بمنديله وقال : يا لغباوتي.. حتى شخصيتي اشكلت علي معرفتها .. وبيتي هذا .. هـذا بيتي أأستطيع تميز محتوياته .. نعم .. وجـــال بنظره في جنبات المربع ان كل شيء باق على حـــاله منذ فارقته . ألم يدخله في غيابي أحد .. يا لقساوتي ان أهلي قد انقطعوا عن العالم . في طـوال المدة التي غبتها عنهم .. وذلـك بسببي .. انني جاحد .. عقوق .. وجـــال بنظره ثانية . . السجاد والدواوين والمساند والارائك في نفس المكان وفي ذات الوضع.. هل ان يد سحرية أبقتهم على حالهـــم ياترى . . وهذا .. والآخر .. ثم طالعه رسم والده بحدقيته الناريتين ضاغطـــاً عليه من عُلي .. فولد في نفسه ثورة جامحة انفجرت تهديداً وتنديدا .

أفي خلوتي تلاحقني بتأنيبك أيضاً .. أريد أن أتحرر .. أريد ،. أريد ،. وخفت صوته رويداً ،. هذا حقي ،. لقد دفعت ثمن حريتي من أعصابي ،. من صحـتي ،. ثم نظر الى نفسه في المرآة وقال : هـذا ثمن باهظ ،. أمن حق أي فرد مهما سما مركزه وارتفع شأنـه أن يحد من حريتي .، لا ،. هذا محال ،. لقد دفعت الثمن غير مأسوف عليه ،. و ..

وبينما هو في سويدائه دخلت أمـــال وقطعت عليه حبل تفكيره. فتلقاها بوجه متجهم أصفر ذابل وعاجلها بالسؤال :

ماذا تريدين ؟

وسام .. اخي .. حنوني .. بحق الله اشفق على والدك ، انه يعاني سكرات الموت . ان المصيبة فاغرة فاها لتبتلعنا .. وكان حديثها في انكسار وضراعة .

كفى.. كفى .. انني لم اعد اطيق تزلفكم واستعطافكم . ابتعدوا عني . ورفع يده في وجهها مهدداً .

اخي .. أنت كل ما نبغي في هذا الوجود .. حياتنا .. أموالنا وآمالنا فداك .. افلا يرضيك هذا .

ابتهج وسام كان يداً سحرية قد لمسته . وكان ترجيع صدى كلماتها يتجاوب في ضمنه . وفاه بكلمة واحدة كأنه لم يسمع غيرها .. مال ،. مال ،. ماذا ،. ابقي مال .

وسام اهذا كل ما يهمك ،. ونحن ،. وشددت على كلمة نحن ، واعادتها مراراً الا نعني في حياتك شيئاً ..

وكان قد صمم على السير في غوايته حتى النهاية . لكنه فضل الحيلة لأنها أقرب إلى نيل المرام .

أمال .. يا أختي الحنونة .. افي ظنك انني انسان بلا قلب ،. لا ،. هي مشا كل الحياة التي اجبرتني على الصدود عنك ،. لقد فتح الله علي بابا كان مغلقاً ،. وباشرت بمشروع كان القيام به يتطلب خبرة ودراية . وانا كنت فيما قبل غراً جاهلاً لا خبرة عندي ولا دراية . فبددت كل ما اخذته سابقاً على لا شيء . لكن ذاك المال لا يذهب هدراً إلا ..

إلا ماذا .. وداخلها قبس من نور الأمل عندها لمست

تغييراً في هيأته ولهجته .

نعم .. إلا إذا حصلت على قدر من المال الآن . لأنني قد كسبت من تجارب ومحن الماضي خبرة تؤهلني لإدارة اعمالي بكل درايه ودقة . وهذا ما يضمن لي الربح الوفير .

فقهقت أمال عاليـاً وكانت بقهقهتها كمن يهزج فوق قبر عزيز غال . وتساءلت ضمناً ، ثم خرج تساؤلها على لسانها .

وسام .. قالتها بتهكم مازح .. ايها الخطيب اللامع والخبير الشهير . من اين اتتك هذه المعرفة كلها ،. خبرة ،. دراية ،. تجارب ،. محن ،. دقة ،. ربح وفير .. انسيت الرفش والمعول ،. والصمد والنير واعطر وغندور ،. ثم الكرمة والبستان ،. انسيت كل هذا يا وسام ..

لا يا أمال .. ان الحياة لا تدوم على وجه واحد.. واظن ان هذه قسمتي .. وهذا ما كتب لي .

لكن يا وسام .. الا تفضل العودة إلى احضان الطبيعة ، إلى بساتيننا إلى كرومنا وهي ليست الضنينة المتباخلة عليك.

أمال .. لم اللف والدوران.. انت رفيقة طفولتي وشبابي. أقول هذا لأثبت لك انك تعنين كل شيء لي في هذا الوجود . سأضع ماضي وحاضري ومستقبلي بين يديك وانت احكمي بما تشائين .

عندما رأت أمال منه هذه الصراحة ، شعرت بأنها قد وضعت أمام الأمر الواقع . واخذت المسألة من ناحيتها الجدية لأنه اشركها معه بتحمل المسؤولية . فاجابته باهتمام كلي ..

هات ما عندك لنرى .

اقتربي .. اجلسي بقربي .. لنبتدىء من الماضي يوم كنا نعطي الأرض قوتنا . ونفري ثراهـــا بكل همة ونشاط . أكان يعود علينا ذلك بالخير واليمن .. طبعاً لا .. لأننا كنا نجد أمامنا انتاجاً متزايداً وغلة فائضة . لكن في نهاية الموسم . أكنا ندخر سوى الزفرة والآهر لعدم إيجاد أسواق لتصريف انتاجنا .. نعم كنا نراه أمامنا مكدساً مكوماً كأنه جيفة نتنة ولا من ينظر ولا من يسأل .

صدقت .. نعم ان كل هــذا كان يحدث . لكن أوليس أفضل من حالتك الآن ؟ ..

معك حق .. انه أفضل من حالتي اذا بقيت عليها . لكن أعيدي معي أسماء الذين سبقوني الى المدينـــة . كيف كانت حالتهم قبل نزوحهم .. وبعده .. ثم الآن .. أبعدهم مثلمـا كانوا سابقاً ..

كان وسام يذكر لها ذلك . وهي تجول بمخيلتها وراء كل فرد من الذين ذكرهم لها . هـــذا فريد جابر ابن أفقر فقراء القرية . كان سابقـاً موضع سخرية الجميع . سرواله المهلهل الذي استحال الى مجموعـــة من الألوان لكثرة الرتق بـه . وبسطاره ذو المسامير النافرة ورقاعه المتعددة . فهذه رقعـة تجمعها شريطة وتلك تضمها رتقـة .. ثم بقدميـه المقيحتين . بكوفتيه التي لا لون لها . والآن أين منه فتى الأمس .. انه يختال كأنه وحيد زمـــانه عندما يسير في طرقات البلدة .

ويتلفت ذات اليمـين وذات اليسار ليستلفت أنظار المارة بأناقته .. ببذلته الأفرنجية وحذائه اللماع .

لقد نزح الى المدينة منذ عامين . واشتغل عاملاً في معمل لصب الحديد . ماذا مر عليه قبل أن يستلم العمل .. أجاع ، أعري ،. ماذا ضحى مقابل استلام هذا العمل .. من بطل ،. أين كان مأواه قبل ذلك ،. لا أحد يعلم ،. وذاك ،. وذاك ،. والآخر ،. جميع الذين نزحوا هل هم أفضل من الذين فضلوا عيشة القرية ،. والجواب نعم ،. ابن القرية بقي هو هو ،. تعب وكد ونصب ، ومحيطه صمد ونير وفدان وشجرة . أما ساكن المدينة فقد تغيرت أحـواله ، وتبدلت عقليته فتفرنج وعاش حياة الرفاه والراحة .

أخذ وسام على أمـــال سكوتها وقال : أجيبي .. لماذا لا تجاوبي ؟..

معك حق .. أجابته بتردد . لكن والدينا من يعولهم اذا حدث لهم أي حـادث لا سمح الله .. ونحن هنا في وحدتنـا بعيدين عن الجيران .. أأنا الضعيفة أجرف الثلج وأتغلب على الرياح ، وأقلقل وحشة الليل لأطلب مساعدة الغريب ..

أمـال . لكم ولي الله . وكل شيء يحـدث بأمره لا مفر منه . اذا سلمت معك جـــدلاً وبقيت في القرية .. كيف أستطيع مقابلة العالم .. وبأي وجه .. إذا قالوا لي أين بددت مالك فبماذا أجيبهم .. انظري إلي ملياً .. أتسمح لي صحتي بمتابعة العمل بالأرض ، بعد هذا الضعف .. وإذا قالوا لي أين

همتك .. أين فتوتك .. فبماذا أجيبهم أنا المتهدم المتداعي .. أأقول لهم ان الصحة تذهب وتعود .. لا .. لقد انتهيت .. دعيني لهمي وبلائي . ثم ارتمى بين أحضانها .. وكانت دموعه قد سبقته لتبلل راحتيها اللتين دفن رأسه بينهما . وأخذ ينتحب كطفل رضيع .

وهال هذا الأمر أمال.. وسام ..حشاشة كبدها يبكي.. ذاك الجبار الذي كانت السباع ترهب لقياه ، وصناديد الرجال معاكسته .. ينتحب ؟ .. لا .. إن هذا لا يطاق .. أي مصاب جلل حل بربوعهم .. ماذا .. ما تستطيع أن تفعل وهي المهيضة الجناح .. الضعيفة الحيلة .. ثم رفعت يديها نحو السماء وقالت : رباه ، إننا وديعتك في هذه الحياة.. لا تتخلى عنا .

وكان وسام قد سيطر على نفسه قليلاً فقال لها :

لا عليك .. سأتدبر الأمر .. وبإضفائه على لهجته شيئاً من الجدية كان كمن صمم على تنفيذ شيء ما مهما كانت الأحوال. فاحتارت أمال .. ماذا سيفعل .. من أين سيأتي بالمال ؟ .. أيسرق . أيقتل . أيعتدي على مال الغير ؟ . لا . لا هذا فظيع .

إذا كان مجرد فكر هز نفسها هكذا فكيف إذا كان الأمر صحيحاً . إنها ستجن لا محال . وعادت بذاكرتها الى الماضي ، الى الأيام المتلئة الحاوية من بسمة مرحة . من فرحة باجتماع شمل العائلة ، يوم كانت تجلس ووالديها يجترون المرارة

ويتجرعون العذاب .زادهم وأكلهم وشربهم خوف منمستقبل مظلم ينتظر وساماً وقرشهم الأبيض الذي كان يعتمر زنار الأب ويغفو في جيبة الأم تحت ستار سميك من الثياب ، ويرقد في مخبأ امين لا تصل اليه عيون الحساد . هذا القرش أين هو الآن .. لقد بدده الفاً وراء الف ، ومائة أثر مائة.. نعم لقد باتوا في المدة الأخيرة على الطوى ليال عديدة ليحافظوا على الأرض كي تبقى درعاً يقي وساماً غدرات الزمان . ولولا بقية مؤونة ادخروها في فصل الصيف لكانوا أقرب الى الاستجداء من سواد العين الى بياضها .

والآن .. ماذا بقي لهم .. ماذا تستطيع أن تفعل .. يا أنبياء .. يا قديسين انجدوني ..

نهض وسام متثاقلاً وهمّ بالخروج فتصدت له أمال ..

الى اين ؟.

الى بلاد الله الواسعة .. هو خلقني وهو يدبر أمري .. وكان باكبابه على صدر أمال قد شعر بخشيش أساورها الذهبية يخدش أذنه .. وباصغائه الى حديثها وهي تؤاسيه نظر الى مبرومتيها الذهبيتين اللتين تسورا معصميها .. وكان في ضميره شيء .

لا ،. لن تذهب ،. وصدته بتصميم وعناد ،. بربك عدني بذلك ،. ابق ولو قليلاً وبعده ستتدبر الأمر، وكانت تتوخى من جراء ذلك كسب الوقت علها تقنعه بالبقاء ، أو يفرجها عليهم الله من باب لا ينتظرونه .

أمال .. إن مصالحي واشغالي لا تتحمل بعدي عنها أكثر من ذلك . وكل دقيقة تأخير تضاعف خسارتي .

إذا عدت إلى عملك وانت صفر اليدين ، فماذا ينفعك ذلك ..

لا أدري .. وقلب شفتيه رضوخاً للأمر الواقع . لكن إذا افلست نهائياً لا يبقى أمامي سوى الانتحار .

أن ،. ان ،. انت ،. حار ،. موت ،. لا .. لا تفجعنا بك بحق السماء . ومدت يديها تستجير منه به . وبح صوتها وخنقته العبرات . لكن شيئاً ما اعادها إلى الهدوء .. يديها أمامها واساورها .. مصاغها . لماذا لا تدفعه إليه .

وسام قطعة من نفسها اتعز عليه المصاغ .. لا .. لا كان المصاغ ولا كانت ساعته . فليذهب إلى الشيطان . وكانت بتنفيذ عملها اسرع من فكرها ، وكان المصاغ اسرع من الاثنين ، فخرج من الزنود الناعمة ليستقر في جيوب وسام .

خاطر عابر

ماذا في الأمر .. تساءل وسام .. هل من جديد .. ان شيئاً غير طبيعي يجري داخل الدار ،. وخارجها ،. ان الجو ملبد بالغيوم .

هنا في الخارج عيون غريبة تراقب الزائرين . وفي الداخل ضوضاء مكبوتة. ايدخل ليرى ما يحدث على كثب أم يتريث ليعرف جلية الأمر .. لكنه قرر الانتظار أخيراً وانزوى في إحدى منعطفات الشارع . ولم يدم انتظاره طويلاً إذ مر أمامه خليل سائق سيارة هناء فسأله : ماذا هناك ؟. وأشار إلى الداخل .

لا شيء .. وقلب شفتيه بقلة اكتراث . لقد مرت الاحداث بسلام .

احداث .. وبسلام .. ماذا جرى ..

لقد داهمتنا فرقة الاخلاق على حين غرة . ولولا مكالمة هاتفية وصلتنا قبل قدومهم بنصف ساعة كنا الآن نختال بقيود الحديد ضمن السجن. لكن الأمور جرت طبق المرام.. البنات التجأن إلى مخابئهن السرية بصحبة زبائننا الاشاوس . ثم توقف عن الحديث .

وهناء .. قل بربك .. هل حدث لها شيء ..

لا .. هدىء من روعك .. كانت بثوبها الأسود تستدر العطف والاشفـاق ، ثم الاجـلال والتقدير من اقسى القلوب واشدها تحجراً ..

انها أرملة ثري كبير توفاه الله وهي في أوج صباهـا . أوليس هذا مما يستوجب العطف والشفقة .. ثم قهقه عاليـاً الى أن بانت نواجزه .. وأردف .. وأنا سائق سيارتها كما تعلم . أليس كذلك ..

انفرجت أسارير وســام بعد عبوس وتجهم . وانطلق يخطف درجات الدار مثنى وثلاث . وولج الى فناء المنزل . وعيناه تبحث هنا وهناك . أين هناء .. سأل بصوت ملهوف .. انها في غرفتها .. ذهبت لتستريح . وظهرت أمامه جميلة . هل تريد أي خدمة ؟.

لا .. وتقدم من باب غرفـة هناء وفتحه بهـدوء .. ثم تجلت به جميع مظاهر الاجلال والتكريم .. هنا ضمن هذه الجدران تجلس مالكة لبه ويجب ألا يزعجهـا بالضجيـج والضوضاء .

هناء ..

من .. وسام .. لقد عدت الله لا كان ردك . ما هذه السرعة التي عدت بها . هل عافوك أهلك فقذفوك إلي بهذه العجلة ..

فبكى فؤاده ونكس رأسه بذلة وانكسار . ثم اردف .

لم استطع تحمل فراقك يا حبيبتي . فعدت لأقدم لك عواطفي على طبق كرامتي .

وشاعر أيضاً .. أجابته بصوت خرج من صدرها كالفحيح. أخرج من هنـا قبل أن تنجس الدار بقدميك الرجستين .. عد الى ذويك .. الى بؤرة الفساد ومخزن الشرور لأن القرمة ينبت على أصلها الشجر .

وثارت كرامة وسام .. والداه أطهر أهل الأرض تحقرهم هناء وهي اللعينة الشريرة . لكنها بقية ثورة أفكار .. ثورة في الروح . واجتهد كي لا تتعدى نطاق الجسد . فتمالك أعصابه وقال لها هدئي من روعك . لماذا كل هذه الاحتقارات والاراجيف وأخرج الأساور والحلق من جيبه . لأنه كان يعلم مسبقاً انها مفتاح رضاها .

اتسعت حدقتا هناء ولم تصدق ما رأته عيناها لأول وهلة مـاذا ،. أساور ،. حلق ،. وتبدلت لهجتها . من أين أحضرتها يا عفريت ،. هات تنشوف ،. ومدت يدهـا لتستولي على المصاغ لكن وساماً كان أسرع منها ،. فردها الى جيبه ،. هكذا سريعاً ودون ثمن ،.وقدمت له شفتيها القانيتين بغنج ودلع . وقالت خذ ،. ه ،. أهذا يكفيك .

وأطبق على شفتيها بلهفة الجائع المحروم . وتجول متنقلاً بفمه فوق حمم الجسد الذي بدأ يعريه . شفتها ،. صدرها ،. وجهها ،. جسدها ،. نهداهـا كل قطعة تصل إليهـا شفتاه الثائرتان .. وأخيراً كبا به الجواد فتراجع جـاراً وراءه

أذيال الخيبة والخذلان . فتحطم شر تحطيم . انه يعدنفسه لهذه الجولةمنذ أمد بعيد.. منذ خذلانه لأول مرة.. والآن بعد أن تحققت أمنيته ينهار كأنه لا شيء،. هذا كثير،. هذا لا يطاق،. ماذا جنيت ،. وكانت هناء قد استولت على المصاغ فلم تأبه لما حل به .. وصبت جل اهتمامها على تقدير قيمة ما استولت عليه ..

وبينما كانت تقلب الحلى في يديها استرعت انتباهها اسوارة كانت قد شاهدتها في زند أمال . فأعادتها إلى ذكرى أيام خلت .. الى طلاوة أيام أمضتها في المروج ..في البساتين .. في الكروم بصحبة أمال .

وتردد ضمنها صوت خافت قادماً من البعيد . أمال .. أمال .. وأي شيء تعني لي أمال .. ماذا يعنيني من أمرها. لكن ذاك الصوت قال :

انها تعني كل شيء لك .جمال ، فتوة ، جاذب ، سمار . انها تحفة نادرة المثال . وهذا رأس مال كبير يا هناء .وصحا في داخلها مجهول آخر ..و كان ثائراً ناقماً . صحا بعد طول رقاد . الآن قد جاء وقت الانتقـام . شرفها . لقد كانت عديمة الشرف إزاء أمال ذات الشرف المصون . كرامتها . وهل بقي لها كرامة تجاه ما رأته من آباء أمال ورفعة نفسها،. وأخيراً عفتها ،. أين هي ،. لقـد داستها الأرجل وعركتها في الأوحال ،. وأمال قد صانتهـا حتى من القيل والقال ،. ولو تلميحاً . لقد حاولت أن تجرهـا الى السقـوط مراراً ،.

وفي أسلوب شيق مستتر . لكنها كانت حبال صخر لا يلين. والآن ،. الآن الطريق ممهدة أمامها . والوسيلة لاحضار النعجة الى المسلخ بين يديها ،. ووسام ،. وسام الطريق وبه نيل المرام .

الخاطر يتجسد

مر اسبوع ثم آخر كتاب بخمسة عشر ورقة بثلاثين صفحة سوداء وبيضاء . اسبوعان فرقهما الزمن في لجج الماضي بعد تضافر الخير والشر على تسطير وقائعهما وكانت هناء رسول الشيطان تلقي حبائلها للايقاع بالابرياء الوادعين .

هذا فتى تدل هيئته على ثراء وفير ،. تلميذ يجاهد لتحصيل شهاداته ،. لكن لا ،. انه ابتدأها في المدرسة وسينهيها في بيتي ،. له اللذة والبهجة ، والذل والخنوع ،. ولي المال . وذاك شاب مع حوريته ،. خطيبته ،. محط ،. رحاله ،. غني متجول ،. أأتركه في حال سبيله لينعم في سعادته وهنائه ،. لا ،. علي الخداع والاغراء والارواء وعليه دفع الدراهم بكرم وسخاء .

هذه فتاة جميله ،. وشريفة ،. بنت عائلة فقيرة محافظة ،. لها جمالها وفقرها ، ورغبتها الصريعة المكبوتة ،. رغبتها بالحصول على ثوب جميل لتكمل بهرجتها وزينتها ،. وتحقيق ذلك عندي ،. في جيوبي من مالي ،. لقاء جسدها ،. على حساب عفتها وكرامتها .

وتلك امرأة ،. ربة عائلة ،. لها أولادها وزوجها ومنزلها ،.

شرهة ،. شهوانيـة ،. نارية ،. طماعـة ،. وعندي الدواء لاطفاء شهواتها واخمـاد نارها المستعرة ،. ودواءهـا شباب متوثب ،. همة ونشاط ..

ضحايا بريئة ،. حبات عقد تضمهم هناء الى خيط مكروها وفسادها . والآن قد أتى دور الدرة اليتيمة . دور أمـال لتضمها الى رفيقاتها .

جالت جميع هذه الأفكار في رأس هنـاء وهي جالسة باسترخاء فوق مقعد وثير ، واضعة قدميها فوق مقعد آخر ،. ورداؤها رقيق شفاف نفرته يداها عن عاموديها الرخاميين . ودخان لفافتها يجدل فوق رأسها حلقات وحلقات . فتنظر الى مستقبلها من خلاله . ومن حولهـا فتيات خليعات ،. وشبان أعمت أعينهم الشهوة الحمراء . داسوا على رجولتهـم وأصبحوا كأحط النساء الخانعات . كانت تنظر الى كل هـذا الحشد الحافل من علٍ . كأنها قائـد منتصر يستعرض جيشه بعد معركة طاحنة تغلب فيها على عدوه .

لكن هذا لم يشبع نهمها ولم يكف غريزتها البهيمية الـتي تتوق دائماً الى نحر عفاف جديد . وسلب رجولة عارمـة . فجلست فجأة ونظرت حولها فلم تجد وسامـاً . وكان هاجساً يدفعها .. ان عجلي ،. استحثيه على احضارها . وكان بقربها .. شاب عريض المنكبين ، يفترس عشرة من الرجال العاديين اذا تصدوا له ويقهرهم دفعة واحـدة ،. اسمه سعيد ،. فنادته بنزق ..

ولا ،. يا اخو ،. ك ،. اين هو وسام ..

لا أدري ،. يا ش ،. يا ،. يا ،. الى كل ما هنـالك من نعوت في قاموس الرذيلة .

لا تدري ،. ابحث عنه وليأت الي حالاً .

حاضر ستي .

دخل وسام مستوضحاً ،. ماذا ،. لما كل هذا الاستعجال،. خيراً ان شاء الله .

لا ،. لكن اشتقت الى رؤياك فناديتـك ،. اسبقني الى الداخل . فدخل الى غرفتهـا الخاصة وقـد أوجس شراً ،. وتساءل ،. ماذا وراء ابتسامتها ،. هـل من جديد ،. أهو المال ،. لكنها تعلم بانني لا املك شيئاً . جمـاع ،. وألقى نظرة سريعة على جسده الهزيل المتراخي ،. لا خصوصاً بعد كبوتي في المدة الأخيرة وجدد فكره هـذا حرقة الذل الذي اعترته آنـذاك ،. فتصبب العرق بارداً فوق جبينه وخذلته ركبتاه فلم يعد يقوى على الوقوف . وألقى بجسده فوق كرسي كان بقربه . فعلا لهاثه وتسارعت دقات قلبه وأصبح كهارب من اشداق الموت .

ولم تتركه هناء في سويدائه ، فأعادته الى وعيه على رنين صوتها الساحر .

وسام .. ما بك يا وسام ..

فانتفض كمن لدغته أفعى ، أو كجندي يخالف فوجىء بحضور قائده على حين غرة . وأجابها جاهداً في حفظ توازن

جسده لا شيء .. ماذا تريدين ..

ماذا أريد ،. هذا غريب حقاً ،. ألا تعلم ماذا أريد ،. انك تتجاهل ذلك .

أتجاهل ،. لا ،. وحقك .

وحقي ،. وحياتي ،. أتحلف بي ،. ألهذه الدرجة تحبني ..

هناء ،. أتسألينني ان كنت أعزك ،. هذا حرام ،. إن حبك يجري في عروقي ،. انه دمي أنت أثمن شيء عندي في الوجود ..

وما البرهان على ذلك ،. انني لا أؤخذ بالكلام ،. أريد حقائق .

حقاً انك ظالمة ،. أبعد الذي ضحيته بسبيلك يوجد شيء في الوجود يستحق التضحية .

حقاً انك أضحكتني .. وكان كلامها بسخرية . ماذا ضحيت بسبيلي يا هذا ..

سؤال أجوف .. ماذا ضحيت بسبيلك .. وشبابي . . راحتي ، سعادتي ، ثروتي ، وأخيراً والدي .

قهقهت هناء عالياً حتى بانت نواجزها . واتسعت فتحة فمها مع اتساع ضحكتها مما زاد رعونة تكشيرتها . وخرج الكلام من جوفها مبتذلاً .. ونادته مسمية إياه بالموضع الحساس فيه .. ولا .. يا اخو . يا ، يا ابن ، يا شهيد الحق والعدالة ،يا شهيد الهوى والغرام،يا شهيد طيـ .. أنت ضحيت

بسبيلي كل ما ذكرت ، وأي متى كنت صاحب ثروة وقوة وصحة وجمال ، ألم تكن معيشتك من فضلتي وسعيي وتدبيري .

وجالت في خاطر وسام أشياء وأشياء . كرامتـه .. رجولته .. شرفه تدوسها هذه الرعناء بقدمها دون أن يرف لها جفن .. لا .. ، لأذهب بسبيلي وأنقذ البقية الباقية من فترة حياتي من فظاظتهـا وعنجهيتها .. لكن الى أين . الى القرية .. وبأي وجه سأقابل أهلي بعد الذي أنزلته ٣٢: من نوائب .. الى العمل خارجاً .. وأين رأس مالي . أين صحتي ، وهل أقوى على القيام بأي عمـل ، وتفجر الأسى في فؤاده فصرخ ورأسه بين يديه .. لا . . لا . . كفى . إنني أكاد أجن ، رحماك يا هناء .

أجترت هناء نشوة إنسحاقه ، وأجابته بليونة مبطنة .. إنك باسترحامك هذا تضعني أمـام الأمر الواقع . وتجعلني أشكك بنفسي وأظن إني ظالمة . لكن أنا بعكس ذلك تماماً وأقول هذا لمصلحتك . . لمصلحتك فقط . . إنني أدلك على طريق الصواب .. وأظهر لك نفسك على حقيقتها ، أجلس .. رافقني بحديثي . لكن دون معارضة .

عندما كنت في الجبل . ألم تكن غراً جاهلاً ولا أحـد يشعر بوجودك . . وأنا ألم أرشدك إلى النور وأشعرك بلذة الحياة .. وذلك بفتح أبواب الحياة أمام شبابك وقوتك . . وقوتك . وشبابك أين هما .. ألم تدفعهما ثمناً للذتك ونشوتك بخمر حقائق الوجود .. وحقائق الحياة ذروة شاهقة حطت

رحالك فوقها ووسيلتك إلى بلوغ الذروة سلم طويل .. وهذا السلم هو المادة ، أو بمعنى أوضح المال .. المال الذي تبكيه وتندبه .

كانت كلماتها واقعاً حياً عاشه وسام . وهو كان تاجراً .. رابحاً خاسراً .. لا يدري .. يقايض بضاعـة ببضاعة . من قوته وصحته وماله يدفع .. ومن بحر ملذاتهـا يغرف .. من من وقائع أوجدته بها فيها من الغرابة ما يحير ويدهش ، ومن المتناقضات الشيء الكثير صور موضحة غامضـة . مضحكة مبكية .. لا يهم .. كل شيء كان له لذته المفضـلة التي تميزه عن غيره .. والأجدر من كل ذلك أنها أطلعته على الوجـــه الآخر من الحياة ، أي الحياة البهيمية المتحررة من جميع سلاسل المجتمع الوعي وقيوده .

وكلما رافقها بحديثها كانت أساريره تنبسط شيئاً فشيئاً . إلى أن قال لها : كفى .. دعينا من الماضي ولنعش حاضرنا . الآن ماذا تريدين ..

وكان انتصار هنـاء ساحقاً إذ شعرت مسبقاً بأن جميـع رغباتها ستقرر ، وبأن أمال قد أصبحت في دارها . وجـال فكرها في رحاب مستقبلها .. أمال ستكون كنزي الدفين ، سا .. وسا .. وردت على وسام بكل جدية واهتمام .

في الآونة الأخيرة بدأت أشعر بوخز الضمير . وبفراغ يملأ حياتي . ثم تثابتت ورمت يدهـا على حرجها بتراخ بعـد توقفها عن الكلام ، لترى ما مدى تأثير وقع كلامها عليه . وكان

ظنها في محله ، إذ تبدلت حالة وسام ونطقت جميع جوارحه بالاهتمام والجدية . فقال :

ما بك .. خير ان شاء الله .

وأجابته بتمويه ظاهر :

لا شيء يستحق الاهتمام . لا تشغل بالك .

كلا .. يجب أن أعرف . إنك تسحقينني بسكوتك . ماذا في الأمر ؟ ..

قلت لك لا شيء مهم .. لكن ..

لكن ماذا ؟.

وسام . بربك أعفني من الإفصاح .. ودعني في عذابي وآلامي .. وتقمصت شخصية الشهيدة المعذبة . جن جنون وسام وطار صوابه ، فصرخ حائراً :

إفصحي بربك .. ماذا في الأمر ؟

هدىء من روعك يا حبيبي .. ومررت يدها المرتعشة فوق جبينه .. سأقول لك كل شيء .

وسكن روع وسام كأن بيدها سحراً غامضاً .. وناداها بضراعة الطفل :

لقد مزقت فؤادي .. ويكفي أنني ظننتك ولو لدقيقة واحدة في خطر .

همت هناء بأن تفصح عن رغبتها . لكنها فضلت التريث لتتثبت من قوة مفعول قنبلتها . ولتتأكد من متانة شباكها .

فأخذت وسام من يده وأجلسته فوق ركبتها ثم انهالت

عليه بفيض من القبلات المحمومة فأسكرته بخمر مفاجآتها الغير منتظرة . وأعادت إلى مخيلته ذكرى ماضٍ تليد عاشه منذ كان مالكاً قوته ونشاطه .

وكانت كقائد مجرب . عندما يرى موطن الضعف عند خصمه يضربه عليه .. ووسام ضعضعه عطفها المفاجيء .

هناء سيداهمها خطر غير منظور .. وهي بحاجة إليه .. اختارته ليكون منقذها من بين الجميع .. إنها لا تزال على حبها السابق .. وجفاؤها ما هو إلا تمثيل بتمثيل . جالت هذه الأفكار بمخيلته وشفاهها ترشف رحيق القبل . وتخلصت هناء من بين يديه وأرتمت على الأرض . وأخذت تنتحب .

أرتمى عليها وسام وأنهضها مرتبكاً . ثم قال .. ما هذا يا هناء .. ما هذا العمل .

أجابته وكأنها تحدث نفسها .

لا .. لا .. إنها ملاك .. لا يحق لي التصرف بمالها ، كيف أجرؤ على التفكير بها . لا يحق لي التلفظ باسمها .. ملاك .. ملاك ..

تعجب وسام من حالتها ، وأشكل عليه الأمر . ثم تساءل ضمناً من هي التي تخاف التلفظ باسمها ، ما معنى ترديدها ملاك .. ملاك ..

وكانت هناء قد ملت التمثيل فانتشلته من حيرته .. إذ قالت له مرفقة كلامها بتقديم مصاغ أمال إليه .

وسام .. بربك خلصني من هذا الكابوس الذي وضعته

فوق صدري . من اليوم الذي أحضرت لي المصاغ . . مصاغ أمال . . وأنا لا تغمض لي عين . . رده إليها فهي أحق بـه مني . .

فوجيء وسام بعملها وتساءل .. ما بها . . هـل أصابها مس .. بالأمس القريب تكالبت على المصاغ . واليوم تتنازل عنه مقابل لا شيء .. هذا لا يصدق . . أنا غلطان ، إنهـا شهيدة .. بريئة .. طاهرة .. وتقدم منها ضارعاً كأنها أحد الأولياء ، وتلا صلاته أمامها هامساً ، هناء . يا من ظننت بك الشرور .. يا مـلاكاً طاهراً .. أغفري لي خطيئتي ، لأنك مثال الخير والبر والصلاح .

وقهقه قلبها سروراً . لقد أنطلت عليه الحيلة . ومـا علي سوى قطف الثمر .

أنت غلطان يا وسام .. إنني شريرة .. زانية . . طريدة الشرف . محتقرة ، لكن لي الفخر لأنني رافقت ملاكاً عفيف النفس طاهر الذيل . ومع كل هذا كنت عاقة ناكرة الجميل ، شقيقتك أمال أمضيت بصحبتهـا الصيف بكامله . وكانت لي خير رفيقة . لكن بماذا كافأتها ؟ .. أليس بالنسيان وعدم الذكرى .. رباه ماذا تكون قد ظنت بي .

قهقه وسام بدوره باستهزاء مازح .

اهذا الذي يعذبك يا قرقورتي الصغيرة ؟ هدئي روعـك وعلي تدبير الأمر .

لا .. لا تهون المسألة علي .. أنني نذرت على نفسي ان لا امس مصاغها ، حتى ولا ابتسم من الآن فصاعداً إلا إذا التقيت بها واعتذرت لها عما بدر مني من تقصير نحوها .

ألقت هناء ، كلامها بغنج ودلع آسرين طغيا على تفكير وسام وحصراه في حلقة واحدة . هناء ضحية مظلومة .. وعليه وحده يقع عب نجاتها .. يجب تخليصها من همومها مهما كلف الأمر .. ما اشرفها .. ما أطهر ذيلها . يجب احضار أمال إلى عندها مهما كانت الظروف .

هناء .. إذا كان هذا كل ما يهمك فعلي تدبير اللقاء .

عليك تدبير اللقاء .. كيف ذلك .. اتحضرها إلى هنا ؟

ورد عليها بلا تفكير .. صحيح .. كيف ذلك .. واين سنجتمع .

لا ادري ، وقلبت شفتاها بحيرة مصطنعة .. لكنها استدركت قائلة .. انا تعيسة .. انا ساقطة . ساعدني يا رب ، كيف أجرؤ على التلفظ باسمها الطاهر .

تقدم وسام منها . وجلس على المقعد بقربها ثم أخذ يدها بين يديه وقال ..

هوني عليك الأمر يا حبيبتي . ان اجتماعك بأمال ليس بالمعجزة .. هي شقيقتي ولي كل الحق بالاشراف على توجيه حركاتها .. سوف آمرها وعليها ان تطيع .

إذا قبلنا معك بانها ستطيعك .. ووالداك ايسمحان لك

بالتحكم بارادتها..وخصوصاً بعمل يتنافى مع تقاليدنا القروية.. فتاة محافظة ولها كرامتها وعفتها ترتاد المدينة..حيث الفحش والرذيلة حسب عرفكم انتم ابناء القرى .. لا هذا لايصير .

يصير لا يصير .. هـــذا ليس من اختصاصك .. دعي الأمر لي

عود على بدء

نكش ابو وسام رماد المطلم برأس ملقط كان بقربـــه ، وحوحى منطويـــا على ذاته .. فبانت بضع جمرات نصف مشتعلات ، كأنها اجبرت على الاحتراق جبراً .. وخبا تأثير وهجها مع لفات الزمهرير المتسرب من شقوق الأبواب والنوافذ. لذا كان البرد شديداً لاذعاً .

وكانت الطبيعة في الخـــارج في ذروة ثورتها ، تتصرف بعناصر الوجود كيفما تشاء .

الجو ملبد بالغيوم . والريح تعوي عاصفة ، فتصفع الجمــاد صفعاً .. والشجر تتشابك اغصانه فلا تفترق كأنها في حرب ضروس . والواح الصفيح التي دفت بهـا بعض سقوف الدور تقعقع متقلقلة ، وتمتزج مع عواء الريح وولولة الأغصان وضجيج الحروب لتؤلف مجزرة الطبيعة الرهيبة .

اقتربت أمال من والدها ودثرته بحرام من الصوف ، لتقيه صولة الصقيع ، وجلست القرفصاء قرب المطلم وأخذت تعيد تحريك الرمـــاد علها تجد بعض الدفء ، وكانت والدتها قد التحفت حراماً آخر وقبعت قرب زوجها . وكان في عينيها أسا وفي ضميرها تساؤل .

رباه .. أنا خاطئة جاحدة . اعرف نفسي واستحق أكثر من ذلك . نعم استحق عقـــابك .. لكن ألا يكفي هذا . رباه ارحمني ، ارحم شيخوختنا ، ارحم ضعفنا ، اننا في نهاية المطاف . اجعل نهايتنا هانئـــة سعيدة ، وانت على كل شيء قدير . ونظرت الى أمال نظرة يأس ، ثم رددت في همس .. وهذه الصغيرة .. ما ذنبها كي تتحمل كل هـذا العـذاب .. وهذا الشوك ، وهـــذا العوسج ، لماذا زرعا في طريقها . . اليسدا عليها جميع أبواب الحيـاة .. وهو . أرشده يا رب ، أرشده الى طريق الصواب ، أنر سبيله ، دله على دروب الخير والصلاح ، وخرج من صدرها أنين مكبوت وضاعت دموعها بين تجاعيد خديها .

وانتهرها ابو وسام قائلاً :

ألم نكتف بعد .. نفس الحـــالة ونفس الكلام .. بكاء وبكاء .. وآخرتها معك .

ولدي .. ولدي انه ولدي يا نديم .. وكان كلامهـــا في غيبوبة حالمة .

لا .. لا أريد أن أسمع منك هذا الكلام .. ولدنا قد مات ولا أريد أن أسمع ذكره بعد الآن .

ما هـــذا القول .. بربك يا نديم لا تعيده ثانية . وإلا عجلت برحيلي الى القبر .

ونظر اليها أبو وسام بحرقة وألم وقال سراً ! ان هذا ليس ببعيد .

تململت أمال بجلستها . وألقت الشرشف الذي تطرزه على الأرض . بعد أن استحال العمل به ، لكثرة ما صب عليه من دموع . وقالت لوالديها ضارعة ..

ألا يكفينا ما نعانيه من عـذاب .. لتعودا الى الشجار بينكما . ان حالتنا لم تعد تطـاق . لندع الجدل والتحسر على الماضي . ولنجد أي حل مفيد يخرجنا مما نعانيه .

حسناً يا بنية .. ماذا ترتئين ..

لا أدري .. وكل ما أعرفه يجب أن نجد مخرجاً لحالتنا . اننا نكاد نموت جوعاً وبرداً . وهذا لا يطاق .

وانت يا رفقة .. ما هو رأيك ..

رأيي .. وفكرت ملياً .. يجب أن نستدين .

دين .. لا ..

إذن لنبع قطعة أرض لترد عنا ذل التسول .

هذا! مستحيل أيضاً .. وهز برأسه علامة النفي .. اني لا أبيع شبراً من الأرض وفي عرق ينبض . انها أمـانة في عنقي . وديعة لا يحق لي التصرف بها .. انها ذخـيرة توارثها الأبناء عن الآباء .. والآباء عن الأجداد . وسوف أورثها لأبنائي على زيادة ودون نقصان . وتنهد بحرقة .. وهل لا يزال لي أبناء وضم أمال إلى صدره وكأنه يحميها من غدرات الزمان .

أمال .. يا إبنتي الحبيبة .. أنت كل ماتبقى لي في هذا الوجود .. رباه أبقيها لي . وشدها إلى صدره ثانية . ودفنت رأسها ضمن عباءته وشعرت بعطف الأبوة دافقاً معطاء .

وبينما هم في حالتهم هذه ، اقتحم عليهم وسام سكونهم وحيرتهم . فتلقوه بوجوه عابسة ، ودون أن يبادروه بكلمة ترحاب . لكن وساماً لم يفاجأ بهذا الإستقبال . بل كان ينتظره ، لأنه كان يشعر بخطيئته في قرارة ضميره . وكان صوتاً من البعيد يناديه . ستعود إلى صوابك يوماً ما .

وألقى عليهم التحية بلا مبالاة .. الله معكم .

فلم يتلق رداً على سلامه . . الأب ناقم والأم كبتت ثورة حنانها إحتراماً لإرادة الأب .. أما أمال فكانت بين نارين.. ويلها وسام ، وويلها تقريع وتأنيب والدها . وكان في نفسها صراع .. وكان تساؤل ألم يكف الذي مضى .

اكتمل شمل العائله ثانية . وكان شيئاً وراء المجهول يقرر مصيرها . عامل واحد كان يجمعهم . إرادة البقاء في تفاهم ووئام . ونفس العامل كان يفرقهم ايضاً عندما تتصادم مصالحهم المستترة في أنانية كل منهم . فتشن على إرادة الآخر حرباً شعواء .

أبو وسام .. رب بيت . . قائد في مملكته الصغيرة ، استقوى عليه أحد جنوده ، وجرده من انتشائه بخمرة التسلط .. كان يشعر بقوة هذا الجندي ويقر له بالغلبة ضمناً. لكنه كان يحب أن يوهم نفسه بأنه لا يزال القائد . . ولو في عين الآخرين .

ووسام جندي محكوم . . تاقت نفسه إلى التحرر من الأساليب التي يحكم بواسطتها . . أساليب كانت تطبق على

أمثاله لكن على عهد (بندق أبو فتيل) وليس على عهده . . عهدة الذرة والصاروخ . عهد غزو القمر.. انتفض على القديم، واندفع نحو الجديد ، لكن إلى القسم المظلم منه .

وأم وسام .. خادم .. رفيق .. جندي قديم مطواع ، اعتاد على تلقي الأمر وتنفيذه دون أن يجادل في دوافعه . عاش القديم ووعى الجديد .. وعلم إن في القديم مر وفي الجديد حلاوة .. أما جسده فقد ألف المرارة وعلم إن الحلاوة تضربه .. لكن الحلاوة كان لها في خلده جاذبية ونداء .

وآمال .. تائهة بين القديم والجديد . لكنها كانت في حيرة .. فلأي الأثنين تنتصر. القديم عاشته بجسدها وروحها عاشته واقعياً . أما الجديد فكانت تحسه بروحها فقط .. لأن بابه مغلق في وجهها . وكان في جوهره شيء خفي يشدها إليه .

وكان فوق الجميع شبح هائل . . كالوهم حجماً . . جسده من دخان وفمه واسع كالأبدية .. وعيناه ألسنة من نار .. فحيح وزئير . ثم قهقهة هادرة ، ومع الجميع كلام لاذع . تقريع وتنديد .

أيها الانسان الضال الشريد . مهما تجول في غابات الحياة وتختبيء في أدغالها. فلا يغرنك اتساع الغاب وتشابك الدخل. لأنك دائماً محج صبوتي ولسهمي هدف .. أنا المجهول القابض على كل شيء . . لأنني وراء كل شيء .

تحطمت أعصاب القوم تحت وطأة الصمت . وكان وسام

السباق الى بدء الحديث . وأحب أن يلج في صلب الموضوع مباشرة . فوجه كلامه الى والده بتحد سافر .

انني بحاجة الى الف ليرة .. الآن أو في وقت قريب.

عقدت الدهشة ألسنتهم واتجهـــوا اليه بأبصارهم فاغري الأفـواه . وأفاق ابو وسام من دهشته قبل الجميع ، فأجابه بـنزق .

هل جننت يا وسام .. أأبقيت لنا مالاً ..

لا أدري ..

كيف لا تدري .. ألا تعلم باننا نكاد نموت جوعاً ..

وسام .. ولدي . أنا والدتك يا وسام، لماذا هذا التجني..

عد الى نفسك يا ضنايا .. انظر الى حالتنا ، حتى قوتنـــا الضروري لا نحصل عليه إلا بشق النفس .

لماذا كل هـــذه المسكنة .. تدعون الفقر وأنتم أغنى من في القرية .

أغنى من في القرية .

رددتها والدته بتساؤل وألم دفينين .

يا حسرتي كنا وكان العــز بديارنا . ويللي مضى مضى يا وسام .

لماذا كل هذه المسكنة ..

اننا لم نزل كما كنا وأفضل .. اذا بعنا قطعـــة أرض أو قطعتين أظن لن تخرب الدنيا لأجلها .

نبيع من الأرض .. وانتهرته بنزق .. ولمـاذا نبيع من

الأرض .. وما الذي يحوجنا لذلك .

انا على ابواب الربيع .. ومواسمنا كطوف البحر . انه شهر ويفرجها علينا الله بعده .

وقهقه وسام عالياً أتعني بانني استطيع العيش معكم هنا . ومثلما انتم عائشون . وشدد على كلمـــاته وكررها مراراً وباستهزاء .. خبز وبصل وزيتون .. ثم أكوبح قرب النار .. لا .. ان هذا محال .

ماذا .. ماذا .. من أي وقت أصبحت تتكبر علينا .

وخرج الشهب من عيني الأب لهول ما سمع .

أتكبر .. ولماذا اذا قلت انني لا استطيع أن أعيش هذه الحياة أكون متكبراً .. لا .

مثلما تريد .. اذا كنت لا تحب الحياة معنا فلمـــاذا أتيت إلينا إذن . انـك تستطيع العودة في أي وقت تشاء . فهذا الباب مفتوح أمامك .

أتطردونني أيضاً .. طيب .

انت الذي تطرد نفسك . لأننـــا قوم جرباء . ونخاف أن تتسرب العدوى إليك .

حسناً ابق على كلامك .. فامـا أكون وسام وانال الذي أريده . وإما ..

وتدخلت الوالدة عندما رأت زوجها يهم بطرد وسام .

ما هذا يا نديم .. ابلغ بكم الجفاء إلى هذا الحد ..وأنت يا وسام .. أبهذه اللهجة تكلم والدك .

ونكس وسام رأسه بـذلة .. بأي حق جـاهر والده بالعصيان .. لقد أتى لاسترضائهم وطلب رضاهم . كيف تغلب عليه الغضب .. تبالك أيها الرأس الفارغ . وضرب على رأسه بكلتا يديه دون وعي .

وسام .. وسام .. هدىء من روعك .. ما هذا الجنون ، أجلس لنرى ، ما هي مطاليبك .

مطاليبي ، وهل يحق لي أن أطلب شيئاً لا أمون عليه .

لكن .. لا .. وكلم نفسه بنفسه .. انني أمون على نفسي ولا شيء غيرها . وسأتصرف بها كيفما اشاء .

وفهمت والدته مرماه فهلع فؤادها ونظرت الى زوجهـا بخوف .. وتكلمت العيون .. وفهم أبو وسام مـا تقصد .. لكنه كان افطن منها وعلم مرامي وسام البعيدة والقريبة .

لا تخافي .. ان الحية لا تخرب موكرتها .. وردد في ضميره هذه هي آخرة التعب والشقاء .. يا حصرتي علينا .. يجب ان يذهب إلى الشيطان..يجب أن يغرب عن وجهي .. وخرجت فكرته على لسانه كلاماً كلسع السياط .

أغرب من وجهي وبسرعة.. لا تدعني أراك بعد الآن .. وبلع وسام الإهانة .. لأن كل شيء يسمونه كرامة كان قـد مات في نفسه . وشرفه دفنه عند هناء قبل أن يأتي ..واتقن حرفة التمثيل .. واصبحت هوايته المفضلة .

حسناً سأذهب.. وسأترك لك الأرض لتتنعم بها شيبتك.. واندفع نحو الباب .

وكان لفعلته قوة انفجار قنبلة .. امه وشقيقته ووالده . جميعهم طارت افئدتهم خوفاً . وكانت السباقة إليه أمـال ، فتعلقت باذيال سترته واستعطفته .

دخيلك يا وسام .. دخيل اجريك . كرمال الله. كرمال القديسين .. لا تذهب .

وكافأها على دموعها واسترحامها بصفعة خاطفة .

وكانت صفعة قوية قاسية تركت آثار اصابعه الخمسة على وجنتيها .. واردف أبتعدي عني .. دعيني . وإلا .

حسناً .. اضربني .. موتني .. روحي فـداك ، لكن لا .. لا تذهب .

وانضمت إليها والدتها .

وسام .. اشفق على حرقـة والدتك .. اشفق على تعتير والدك .. انظر اليه . انه يذوب لوعـة عليك .

وتحجر قلبـه .. ابتعدي عني اتركيني لشقائي . انني لا أريد أحداً منكم .

ولدي .. حبيبي ، وسام الله يهديك على طريـق الصواب وينور عقلك . أين ودعت عقلـك ياسندي .. أين فهمك .

من قال لك بانني عاقل . وعندي فهم . أنا حمار .

والحمـار لا مكان له بين البشر . دعوني .. دعوني اذهب بسبيلي علني أموت ويبقى الرزق لزوجك ليفرح به .

يفرح ابوك بالرزق .. وهل كد وجاهد طوال عمره ليفرح هو بالرزق .. لا يا وسام .. الأرض وكل ما نملك وقف

عليك وحدك دون منازع . ان والدك على حافة قبره .

وأنا انظري الي .. هل تريني أفضل منه .. لا . انني سأسبقه الى القبر وكل آت قريب .

لا يا وسام .. لك شبابك .. و ..

ان شبابي قد ذوى .. والهم والخساره لم يبقيا منه شيئاً .

هم وخسارة .. انهما من اعمال يديك .. دع المدينة وتجارتها وعد الى أحضان أرضك .. فهي التي تهبك القوة والصحة والشباب .

صحتي أو غيرها لا أدري .. انني بحاجة الى نقود . . نقود .. وهذا كل شيء .

وبقي ابو وسام على عناده ، انه لا يبيع شبراً من الأرض حتى ولو خرجت روحه من جسده . وكان في داخله نداء . انه عنيد .. عنيد انه ولدي . ارحمني يا رب .. خذ روحي وأعد له صوابه يا الله .

وعلى صخرة هذا العناد الوالدي تحطمت أحلام وسام . وتمثل نفسه عائداً الى حجر هناء صفر اليدين . ذليلا مهاناً .. ووعده باحضار أمال .. أين هو من وعده ... أيعد بشيء لا يملكه ، ولماذا لا يملكه ، أليست أمال شقيقته والحق يخول الأخ في القرية أن يتحكم في أمور البيت بعد الأب مباشرة . وهذا الأب .. لماذا يقف بتعنته عقبة في سبيل تحقيق مبتغاه . وهذا الهيكل البشري ، لماذا يتحداه .. انه رجل ، وله

آراؤه الخاصة . يجب أن يفعل ما يريد .. يجب أن تزال هذه الكمية من العظام من طريقه .. وتحرك ضميره .. انه أبي .. علة وجودي . وله علي حق التربية .. لقد تحمل مسؤولية تربيتي طفلاً .. وكان مرشدي يافعاً .. وخاواني شاباً .. لماذا أكون عدوه .. لماذا أطلب منه المستحيل ، الأرض أرضه ، وستؤول إلي من بعده ، لقد دفع ثمن كل ذرة من ذراها قطرة من عرق جبينه .. وأخيراً وجه سؤالاً الى نفسه . هل أنا محق في كل ما أفعل .. وكان الرد عليه سريعاً ، لا .. انك ضال .. تطاردك اخطاؤك وذلاتك التي لا تحصى ولا تعد .. وأخيراً شقيقتك .. هذا الملاك الطاهر..أتلقي بها في مواخير الرذيلة لتدفع بها إلى السقوط دفعاً .. أفق من غفوتك ثب إلى رشدك علك تعوض عما فات .

وبين هذين التيارين المتناقضين في الأهداف والدوافع وقفت هناء بكل سلطتها وجبروتها .. بجسدها الشهواني ..بأحابيلها وآلاعيبها . . بريائها وأغوائها . . وقفت وقفة عز لتقول له إنك عبدي . . عبدي . . ويجب أن تنفذ كل ما أطلب وأريد . .

وإزاء هذا الأمر الذي لا مفر من تنفيذه ، رضخ وسام بذلة المغلوب على أمره .. رضخ لسيدته .. لخالبة لبه.. وقرر أن يسير في الطريق التي رسمتها له يد الأقدار ..

ومع تطاحن هذه الأفكار في رأسه ، وجد في حالة شبه هسترية ، وتحولت جميع المرئيات أمامه إلى آلات حادة تعمل

في أوصاله تقطيعاً وتمزيقاً .. وتخيل إن كل شخص يقترب منه يريد به شراً .. حتى أمه ظنها من ألد أعدائه . . واستعدى نفسه على نفسه . وقرر أن ينتقم من الجميع . . من الأشياء الموجودة أمامه . . من والده ، من والدته ، من شقيقته ، وحتى من نفسه . وكانت حصيلة هذا الصراع فاجعة مخيفة .. البيت مبعثر الأغراض محطم الأواني . . والوالدان أذهلتهما المفاجأة .. وأمال مقرحة الأجفان مسبلة الشعر تلمع بين طياته مجاري الدموع مختلطة بالدماء التي تنزف من خدوش عميقة شقتها الأظافر .. ووسام أغمي عليه بعد أن أنهال على جسده بعدة ضربات .. وبعد أن دق رأسه بالعامود القابع في وسط المربع .

تسرب الصراخ والضجيج إلى خارج المنزل . فالتقطه الآذان الفضولية . وتساءلت .. ماذا في بيت السيد نديم . . ماذا في العش الهانيء . كما كان يسمى سابقاً .

انتقلت الأخبار من بيت إلى بيت ومن فرد إلى فرد إلى أن عم الخبر معظم الحي الذي يقطنون به . فزحفت الجموع إلى هناك تدفعها الحمية لكشف الغموض الذي يحيق بأهل الدار .

وعند وقوفهم أمام هذا المشهد المفجع عقدت الدهشة ألسنتهم . لكنها لم تدم طويلا إذ بددتها الرغبة بانتشال القوم من مصيبتهم . فشمروا عن ساعد العمل مدفوعين بنخوتهم

القروية وواجباتهم الإنسانية التي تحتم على كل قروي مساعدة أخيه .

عملت العجائز على شحز قرائحها لإيجاد وصفة نافعة تعيد وسام إلى وعيه . فأثمرت أتعابهن وأفاق من غيبوبته فنقلته جمهرة من الشبان إلى فرشة في زاوية المربع كانت قد أعدتها ورتبتها أيادي الفتيات النشيطات . . وفي الوقت نفسه كانت جمهرة أخرى تهدىء الخواطر المبلبلة . إلى أن خيم الهدوء على الجميع . وتحسنت حالة وسام نوعاً ما . فتفرقت الجموع كل إلى بيته . ولم يبق منهم في دار السيد نـديم إلا الأخصاء . فأخذوا يلومون وسام على طيشه وعلى اساءته إلى والديه . لكن حالته لم تكن تساعده على تحمـل اكثر مما لاقاه سابقاً . فصب جام غضبه فوق رؤوسهم وصرخ قائـلاً :

اخرجوا من بيتي .. اذهبوا من هنا وبسرعة .. انا لست بحاجة اليكم ولا إلى نصائحكم .

فغضبوا وأرادوا أن يردوا إليه اهانتـه . لكنهم كظموا غيظهم وانصرفوا لا يلوون على شيء .

بعد انصراف الجميع عاد الهدوء إلى المنزل . وأفاق أهل الدار من ذهولهم . فانزوى وسام في ركن المربـع الشرقي .. والداه وأمال في المربع الغربي . وكان لكل منهم همومـه واشجانه .

وقرر وسام أن يسير بغوايته حتى النهاية .. ان المـــال بحوزتهم . وسينـاله مهما كلفه الأمر .. وأمال شقيقته عدل

عن اصطحابها الى المدينة . وكانت بقية من شرف قد افاقت في ضميره .. لماذا اقود النعجة بيدي إلى المسلخ .. لماذا الطخ سمعتنا بالوحل .. ألا يكفي ما حـل بي لاشرك بجرمي اعز مخلوق لدي .. ومن .. أمال .. اطهر عفاف . وانقى سريرة مما في الوجود قاطبة .

وقهقهت الرذيلة في نفسه العفنة . عفـــاف ، طهر .. يا صاحب الذيل النقي .. ابقي عفاف وانا خلفـه .. أم دام طهر ومواخيري منتشرة في جميع أنحـاء المدينة ، وجيوشي تجوب السهل والجبل .. البلدة والقرية .. لا ... إذن الى اللذة الحمراء يا خفيفي العقول .. إلى مائدة المجون والعربـدة انتم مدعوون .

وبقي سلطـان التردد مسيطراً على أرادته . ومعركة طاحنة تدور رحاها بـين حاضره وماضيه .. بين الشرف والسفالة .. بين ابقاء أمال في كنف والديه أو جعلها جنديـاً من جنود هناء رسول ابليس الى الأرض .

والذين كانوا في هنائه كان هو في عزائهم .. هو يعمل على تقويض سعادتهم وهم يبنون له من قلوبهم قصوراً .. وكان اجتماعهم كهيئة محكمة .. ابو وسام مدعي عام .. وأم وسام قاض وأمال محام .. وبعد ان تدارسوا قضيتهم من جميـع وجوهها قرروا بيـع عـدة قطع من الأرض التي ضنوا ببيعها سابقاً من أجل وسام ، وأما اليوم فقد صـدر القرار ببيعها لأجل الحفاظ على جسده . لأن روحه قد امتلكتها الأبالسة .

عاصفتان

... تحسس وسام جيبه المنتفخة ، وجرش بريقه،ثم مسح بيده الأخرى فوق شعره عدة مرار .. ووقف أمـام المرآة متأملاً هندامه.. وأخذ يدور على نفسه تارة الى اليمين وطوراً إلى الشمال وبعد القاء عدة نظرات على شكله شكك في حسن منظره . فأراد ان يستنطق الجمـاد . لكن صوتا من الماضي اجابه .. هيهات ان يعود ما فات. عش واقعك لأنك فضلت الضعف على القوة والنشاط .. والمحاشش والمواخير على الطبيعة العذبة والنسيم العليل .

وأندست يده في جيبه تلقائياً، وقبض على رزمة الأوراق النقدية الكبيرة .. وهم بإخراجها .. لكن شيئاً خفياً كان يكلمه .. ألم تشاهدهم سابقاً ألم تعدهم مئة مئة ، وقـد بلغت قيمتهم فوق ما كنت تمني نفسك بالحصول عليه.. لكن حاسة اللمس كانت في عراك مع النظر . . وأرادت العين أن تتمتع برؤياهم ايضاً .. وكانت الغلبة لهـا . ورضخت اليد لشريعة المساواة .. وأطلت على النور ملأى بالمئات . . وعاونتها يده الأخرى فعدهم .. وكان فكره يحصيهم ، إثنان ، ثلاثة ، عشرة ، إلى آخره .

وبعد انتهائه من عد صبوته .. أعادها إلى مدفنها الأول، مسروراً مبتهجاً كأنه ملك الدنيا . . ومـا الدنيا في نظر الموتورين أمثاله سوى مادة .

أعاد وسام المال إلى جيبه ، وهم بالتوجه إلى المـدينة . . لكن صوت هناء جال في رأسه معاتباً تارة ومؤنباً أخرى . . أين أمال .. أين أنت من وعدك .. أم إنك لست مـالكاً لزمام أمرك .. انني لا أريدك وحيداً ولا اريد الوفك..أمال .. أمال .. ان أمال بغيتي ، وعندمـــا وصل بتفكيره إلى هذا الحد قال :

حقاً أمال . قد وعدتها باحضار أمال .. لكن .

و كأن الصدف ارادت اخراجه من هذا المأزق.. فاقتربت أمال منه وقالت له بدلع مازح :

ها قد نلت بغيتك .. ألا تود اصطحابي معك إلى المدينة كي اتفرج على شوارعها الجميلة كما وصفتها لي . وكان كلامها عن غير قصد لكن عند ترديدها لهذا الكلام أفاق في داخلها حب الاستطلاع .. ورددت المدينة .. كيف هي .. ما شكلها . رباه لو استطيع رؤياها ولو من بعيد . وكانت قد رسمت لها في مخيلتها صورة مشوهة ، جمعت موادها من خـلال وصف رفيقتها زهرة عندما نزلت الى المدينة كي تقص جهـــاز العرس .. ووسام وصف لها بعض المشاهـد ، ومن أيضاً .. صحيح من .. لقد كلمها بخصوص ذلك آخر . انني لا أدري.. لقد نسيت ، وعصرت دماغها ، ووضعت يدهـــا على عينيها

المغمضتين .. وجاءها خيال من البعيد ، هناء .. نعم هناء اين هي .. ما حل بها .

تعجب وسام من حالتها وسألها . ما بك .

لا شيء . كنت استعيد في مخيلتي بعض الصور .

وما هي ..

انها ليست ذات بال .. لكن بعضها يدور حولي هناء .

هناء .. وما الذي ذكرك بها ؟..

لست أدري ،. خيال عابر ،. هل رأيتها بعد نزولها من الصيفية ..

رباه .. كأنكما على صلة غامضة..فقد التقيت بها البارحة صدفة في بعض المحال التجارية لا تسألي كم كانت فرحتها كبيرة عندما شاهدتني .. وسألتني عن والدي وعنك .. وقالت انها بشوق لرؤياك .

أحقاً ما تقول ؟..

وحياتك يا أمال .. وعاتبتني على عدم زيارتنا لها .. اتودين الذهاب اليها .. قالها بخبث وكأن الأمر لا يعنيه .

وسألت نفسها ،. حقاً اذهب إليها ،. ووالدي ،.ايسمح لي ،. وكان جوابها على وسام مبهم ،. استنتج منه رغبتها برؤية المدينة وزيارة هناء وردد في سره ،. هذه أول عقبة زللت نفسها ،. وانتقل بخياله إلى والديه ، ايسمحان له باصطحابها الى جهنم كما يقولون ،. وتكاثرت في رأسه الافكار ، وانتقلت به من مكان الى مكان ،. ومن حادث

إلى حادث ،. وافكاره هذه،. لماذا تخونه عندما يريد تركيزها على نقطة معينة ،. انه واقـــع بمشكلة ،. وحلها مستعص عليه ،. مشكلة،. مشكلة ،. اف ما اكثر المشاكل ،.وحزم أمره أخيراً ،. الصراحـــة طريق الخلاص ،. فلأصارحهم وليعني الشيطان .

حمل السيد نديم فوق كاهله ثقل ثمانين عاماً وبقي محافظـاً على قواه العقلية . وأما قواه الجسدية فكانت قـد سارت في طريق الانحلال الجزئي .

لكن هذه الشتوية الملعونة مشت به حثيثـــاً في طريق القبر.. لأن هم وسام كان اكبرمن أن يتحمله جسده الضعيف. ولما وافق على بيع بعض قطع الأرض اصبح كمن حكم على نفسه بالأعدام.وشعر بروحه تنسل من جسده المتهدم رويداً رويداً.

وبينما هو سادر في سويدائه ، دخل عليه وسام.. والبسمة ملء فيه .

أبي ،. ولم يرد عليه لأول وهلة ،. وكرر ندائه ..

حسناً ،. ماذا تريد ؟.

لا شيء ،. لكنني اتيت لأطلب رضاك .

تطلب رضاي .. ولماذا ... ألتقي نظرتـك الأخيرة على ذبيحتك وهي تتمرغ بدمائها ؟..

أبي .. قالها بنفاد صبر .. ان هذا لكثير ..

هون عليك يا وسام ،. ان السيد المسيح قال : ابتي اغفر لهم لأنهم لا يدرون ماذا يفعلون ..

ابي رحماك .

اتسترحمني ؟. ولماذا ؟. وهل تستطيع الضحيــة ان تهب الرحمة الى جلادها ؟. لا يا وسام ؟. ان النــــار تأكل نفسها بنفسها ولو علمت ما مقدار جرمها لنضحت هــذه النار برداً وسلاماً واطفأت سعيرها المشبوب .

وعا وسام ما يرمي إليه والده ؟. وتعاما ؟. وأراد أن يهرب ؟. لكن إلى اين ؟. وأمال ...

ابي ؟. انني اود الذهاب ولي رجاء أخير عندك ؟. قالها بضراعة وتوسل .

تفضل ؟. لم الاحجام ..

وتشدد وسام ؟. أمال ؟. أريد أن تذهب معي أمــــال لتعاونني في اشغال البيت فتوفر علي بعض المصروف ..

أمال تسكن معك في المدينــة ؟. لا ؟. لا ؟. انني أكاد أجن ؟. أعندك شيء آخر ؟. شيء تريد أن تقذفنا بهأيضاً ؟.

وما هو ؟. ارحمنا واقذف بجميع مطاليبك دفعة واحــدة . وذلك أفضل من قذفها بالتقسيط . لأن الموت المجزء ممنـــوع ومحرم في جميع كتب الله .

هون عليك يا أبي ؟. وهل سكنها معي في المدينـــة مستهجن لهذا الحد ؟. ولماذا ..

وكبح السيد نديم جماح غضبه ؟. وقال كفاك انتقاماً من قوم لا يريدون لك إلا الخير يا وسام ..

قوم يريدون لي الخير ؟. وهل أريــد أنا لهــم الشر ؟. لا

بالعكس ،. انني أريد لهم الخير أكثر مما يريدونه هم لأنفسهم.
ودخلت أم وسام تصحبها أمال ..
نعم ، . ما بكم ،. هل عدنا الى الداي داي ،.والطبيب الله ،. قتال وجدال وعياط ،. هـــل كتب علينا أن نعيش بقية عمرنا بالخلاف العقيم ..
سحب السيد نديم نفساً طويلاً ، جمع به شتات قوته ، وأجابها : ان الجلاد أراد يعجل بموت ضحية كي لا يطيـل مدة نزعها .. وأشار الى وسام بيده المعروقـــة المرتعشة ،. ومع اشارته سقطت دمعة محروقة أبت أن تنساب في أخاديد وجهه ، لأن محجر عينيه كان أكبر من أن تملأه دمعة شيخ .
شعرت أم وسام بفداحة الرزية ،. واتجهت نحـو وسام وجميع جوارحها تنطق بأسئلة ايضاحية وخرجت الكلمات من فيها جافة كجفاف حلقها ،. غبراء كلون بشرتها .
ماذا بعد يا وسام ؟ ..
تلجلج وسام بالرد ،. لأن خياله كان يجول فـوق مقصلة عالية ،. وبيده فأس كبير كادت تهوي فوق رأس ضحيته ،. وكان نظره قد سبقه في تشخيص الحوادث ،. وشاهد رأس والده يتدحرج عن النطع ويقع تحت قدميه .. وسمع كلمات تخرج من فـم الرأس .
أنت ملعون الى الأبد ،. ملعون ثلاث مرات ،. ملعـون لأنك أهنت شيخوختي ،. ملعون لأنك سعيت ببيع أرضي ،. وملعون لأنك ستدنس شرفي ..

وكان هذا فوق طاقته فصرخ ضارعاً ،. رحماك يا أبي رحماك ،. ووضع رأسه بين يديه بشكل فكي ملزمة ،. وشد عليه قاصداً عصره ليزيل منه صور الماضي والحاضر ،. الصور التي تكاثرت الى حد لم يعد يستوعبه رأسه ،. وندت عن ضميره صرخات متتاليات ..

وسام ،. كفاك ما مضى ،. عد الى رشدك يا وسام ..

لكن هذه الصرخات أتت مكبوتة لأن صوتاً آخر كهدير الموج طغى عليها .

الي يا عابدي اللذة الي ،. اجثوا في معبد الشهوات، وهنا في بيتي ،. هنا ،. تمرغوا ،. لأنني لذة اللذات ، ومكمن جميع الشهوات .. وكان هذا الصوت بمثابة ناقوس انذار اعاد وسام إلى رشده ،. جعله ضعيفاً ذليلاً ،. وجاءه صوت آخر ،. ولد من الضعف قوة ومن الذل اباء ،. انك صاحب حق،. وصاحب الحق سلطان . وبعد خروج وسام من هذه المعركة النفسية ،. رد على والدته بكل برودة .

لا شيء وكل ما في الأمر انني اردت أن اصطحب أمال معي لتعاونني في بعض اعمالي .. ومن اجل ذلك ثارت ثائرة ابي ،. واراد ان يلقي بجميع حطام الدنيا فوق رأسي .

تلقت أم وسام النبأ بحيرة وذهول ، وشعرت بأن يداً خفية تعتصر قلبها . وبان هذا القلب يقطر اساً ،. وبأن هاتفاً من وراء المجهول يقول لها ،. انها قضية صعبة ،. أم المصائب ،. وتحاملت على نفسها اكراماً لزوجها المتداعي ،.

ووجهت كلامها الى وسام ..

ايحق لك يا ولدي ان تفجعنـا باعز ما نحب ،. لا ،. لا ان هذا لظلم ،. دعها لنا وخذ كل ما نملك ،. خذ روحنا قبل أن تأخذها ،. وغفت على أمال ثم احتضنتها و كأنهـا تقيها غائلة الاعداء . وامتزجت رعشات قلبها بشهيق أمال وبانينها المكبوت ،. فالفتـا اشجى نغم حزين واروع صورة للبؤس والشقاء .

وهنا سيتخيل للقارىء ان وسام سيلين قلبـه الصخري . ويترك هذه العائلة المنكودة لبؤسها وشقائها لكن لا البكاء،. ولا الضراعة ،. ولا الاسترحام ،. ردعوه عن غيه .

وإذاء هذا التصميم والممانعة من والديه قال :

فالادع الوقت يعطيني ما اريد ،. والوقت وحـده كفيل بتذليل الصعاب . وانطلق نحو غابة الصنوبر القريبـة من منزله : والتي كانت ملكه منذ يومين فقط . انطلق وفي ضميره عاصفة هوجاء وفي رأسه افكار وافكار .

وجلس قرب جزع صنوبرة هرمة حنت عليه طفلاً وكانت ملعباً لأحلامه الصبيانية ،. ثم محكاً لأختبار نشاطه شاباً .

وكان وجه السماء مكفهراً ملبداً بالغيوم الرمادية الدكناء. والشمس قابعة تحت هذا القنـاع الصفيق .. ووجهها محجوب عن رائديه لا يرى إلا لماماً . وحرارتها تبددت مع لفحـات الصقيع القارسة ، الزاحفة مع الرياح المزمجرة في أعـالي جبل صنين وجبل المنبوخ وجبل الجريد. هذه الجبال الثلاثة المكللة

بالثلوج ،. حراس بسكنتنا الأوفياء .

وهذا الجو المربد المنذر بعاصفة هوجاء ، اضفي على الغابة وحشة ورهبة لم يشعر بهما وسام أول الأمر. لأنشغال افكاره بما جرى له مع والديه . وطال مكوثه . دون ان يدري ما هي المدة التي قضاها على حالته هذه .. وافاق من سويدائـه رويـداً .. ووعى الجو الذي يعيشه .. وشعر بقرصات البرد اللاذعة تتغلغل في عظامه وأراد ان يقف على قدميه ويرجـع الى المنزل .. لكنهما خذلتـــاه لضعفهما ولأنهما لم تتحملا وطأة الجليد الذي يغطي وجه الأرض .

فحز في نفسه هذا الضعف ، وعاد بمخيلته إلى شتاء العام السابق عندما كان يقضي نهاره مع قسم وجيز من هزيع الليل الأخير أي مع الفجر سائراً فوق الثلوج في أعالي الجبل بين الهضاب والروابي . مطارداً لأرنب بري أو باحثاً عن رفوف الحجال مع رفاقه . يوم كانت قوته وحرارته تذيبان الجليد تحت قدميه .

والآن لم يمض على مكوثه هنا وقتاً طويلاً . لكنه كان كافياً لتجميد أطرافه وانخذال همته ،. وهذه الأشجار مـــا بالها عابسة في وجهه ،. وهذه الطبيعة المتجهمة ،. ونفسه ما بالها منقبضة ،. الأصبح غريبا بين أهله ،. بين أحضان غابته. في جو كان يعبده ،. وكان يغتنم أية فرصة مهما كانت وجيزة لينطلق بين أشجار الغابة وصخورها ،. ينطلق صياداً يبحث عن طيور السمن والشحارير ،. غريب ،. ما هي هذه الكلمة ،.

ما مدلولها ،. وأتاه صوت من أعماق المجهول ،. نعم انـــك غريب ،. غريب عن بيتك ،. بين ذويك ،. في بساتينك ،. في كرومك ،. في غابتك هذه التي أنت ضمنها . لأنها لم تعد لك ،. لأنها أصبحت ملكاً لسواك ،. وذلك بفضل تهورك ومجونك ..

وبانت دلائل العاصفة في الطبيعة ،. في أشجار الغابة ،. في كل كائن حي ،. الطيور أخذت تتجمع على بعضها، وتبحث عن مكان أمين تختبىء به ،. في عب صنوبرة غضـــة ،. في دفرانة متشابكة الأغصـــان ،. في شقوق صخرة كبيرة . مدفوعة بغريزة حب البقاء والأشجار بدت وكأنها مكومـة على نفسها تحت وطأة جنون الريح .

والسماء مربدة مدلهمة دكناء الغيوم ،. تنيرها من حبال نار تتكسر على نفسها وتشد الأرض إلى السماء بوهج من شعاع ،. ثم يعقبها رعد هائل يصم الآذان بقوة ضجيجه ، مرسلاً إلى الأرض ناراً وكبريتاً .

وبدأت العاصفة عاتية كيوم الدينونة ،. وجرفت معها كل ما هو ضعيف وخفيف ،. والتفت أغصان الأشجار على بعضها ، ثم انفرجت ثم التفت وتمايلت يميناً وشمـالاً بحسب اتجاه الرياح التي لا ضابط لها . وكان يسمع للأغصان الضعيفة قضقضة وأنين تحت ثقل العاصفة ،. هذا في بدايتها .

لكن عندما طال الوقت ، بدأت مقاومة الأشجار تضعف حيال تلاعب الرياح . وبدأ بعضها يهوي مقبلاً بهامه وجــه

الصحصحان . وبينما عناصر الطبيعة في أوج هياجها تصارع بعضها بعضا كانت عوامل نفسية تتصارع في داخل وسام أيضاً وكانت ثورتها أشد من ثورة الرياح ،. وذلك لشعوره بانحلال عام في جسده ، وبعجزه عن الدفاع عن نفسه مما يحيق به من أخطار ،. وقويت غريزة حب البقاء في هذه النفس المتهدمة. فجمع شتات قوته وهم بأن يقف على قدميه . لكنهما خذلتاه ثانية ، فهوى على الأرض وشابه تلك الأشجـــار التي القاهـــا الأعصار من حوله ،. وجاهد جهاد المستميت . وحاول ان يقف مراراً لكنه لم يقو على ذلك . فزحف على بطنه مستعيناً بيديه ورجليه على الاندفاع الى الامام . وحبا كطفل صغير،. وزحف ثانية ،. ومع زحفه تعامى عن كل ما يعيقه في تقدمه. ولم ينتبه لأصل شجرة كانت قد قطعتها فاس حطـــاب . وكان هذا الأصل مسنناً كحد سكين فعلق بثيابه ومزق بعضها ،. وجرح صدره جرحاً بليغاً ، سالت دماؤه وامتزجت بالتراب الموحل ، وبقشرة الصنوبر اليابسة التي تداخلت بين طيـــات الثياب ، وتألم . وثابر على زحفـــه . واطعم لجربانة (نوع من الشجر الصغير ، الكثير الشوك والمزاليف ينبت في احـــراج الصنوبر) اعترضت طريقه بعضاً من ثيابه ،. ولأخرى خصلة من شعره ولاختها نتفاً من لحم يديه ورجليه ،. وبان المـــنزل امامه من خلال الأشجار على بعد مئتي خطوة تقريباً .ووهنت قوته لكثرة ما نزف من دمائه ،. ولم يعد يقوى على التقـــدم قيد أنملة ،.ونشب أظافره في الأرض،. وعوى عواء مكبوتاً،.

النجدة ،. النجدة ،. أكاد أموت ،. وجاوبه على ندائه عواء ذئب جائع جذبته رائحة الدم الذي سال من جرح وسام وبدأ يقترب منه رويداً رويدا .

بينما كان وسام يجاهد ضد ثورتين . ثورة انخذاله وثورة الطبيعة الجامحة . كان ذووه في مركز لا يحسدون عليه أيضاً. وكان كل منهم يحلل المعضلة حسب تفكيره . ولنتركه بين أشداد القدر وندخل الى داره لنرى أية مأساة تحاك خيوطها في داخله .

ها هي أمال قرب الباب تسكب الماء في طاسة نحاسية من جرة فخارية تقبع فوق خشبة عريضة جوفاء في وسطها على قدر محيط أسفل الجرة . وثبت طرفاها في جانبي طاقة كبيرة تشبه الشباك الصغير بشكلها . وكانت أفكارها تنسكب في بحيرة نفسها كانسكاب المياه في الطاسة .تنسكب تارة منتظمة كمياه شلال يندفع من عال . وطوراً متقطعة مبعثرة كرذاذ الأمطار.

طفولتها .. ما هذا الهمس الذي يأتيها من البعيد،. ماهو محور الحديث الذي كان يدور بين خالتها أم عساف وجارتهم أم جميل ..

أبوه يختي .. شفقي شو هالخبر الملعون .

وسرحت أمال بخيالها الى سبع سنين مضت ،. يوم كانت لاتفقه للحياة معنى . وتمثلت وجه أم جميل حين تقلصت تجاعيده ،. والدهشة التي تمثلت في مقلتيها الغائرتين .

شفتي هالشب المدنجي يللي أجا من بيروت وخطب عليا القنطار ». الله يقصف عمرو شو أزعر. بعد ما غشا بالمصاري وزوزوقلا بشوية فساطين وروبات . ضحك عليها وسلبها عفافا .. ودشرا وفل .

وجاءها الجواب ». لا شيء » وقلبت شفتيها ». هذا لا يعنيني .

فتوتها ». ها انها تدرج في الرابعة عشر من عمرها ». وكل شيء في جسدها قد تبدل ». وهذين الهرمين اللذان يحتلا صدرها بعنفوان وزهو ». ما أجملها ». ما أروعها . ما هذا الاحساس الغريب الذي يعتلج في داخلها ». كل شيء أصبح فيها غريباً عنها وجديداً عليها ». حتى أفكارها كانت تدور وتدور حول أشياء وأشياء .

وسر آخر أقض مضجعها وجعلها في حيرة من أمرها ». ما هو ». ما مدلوله ». انها .. وأفهمتها والدتها بطرق مباشرة وغير مباشرة ». هذا رمز لصلاح الفتاة الذي يؤهلها لأن تصبح أماً ». وان عفافها تاج يكلل رأسها باكاليل الطهارة .

وجاءها رد على سؤال خامرها في الماضي ..

عفاف ». سرقة ». ابن المدينة ». أزعر ». إذن العفاف يسرق ». وسارقه المدنجي بحسب قول أم عساف وأم جميل». والسارق يستفيد من المسروق طبعاً ». ليتها تعرف ما هي فائدة سارق العفاف». وتردد مع هذه الأفكار صوت والدتها..

كوني حارسة على عفافك لأنه أمـــانة في عنقك ،. انه وديعتك من الله لتقديمه الى عروسك الذي يختاره لك ..

واليوم شبابها ،. هذه التجارب التي مرت بها ، ابتداء من احساسها الغريب الذي لازمها عندما ألقى عفيف جابر أول كلمة اطراء في خلدها .

ما أجملك ،. عيناك حلوتان ،. وثغرك أبهى من كرز صنين ،. ما هذه العاطفة التي تغمر كيانهـــا عندما تراه ،. وهذه الرغبة في أن تهبه شيئاً ضمنياً في كيانها لا تعرف ماهو ،. وهذا الغفر ،. وهذا الحياء ،. وهذا القلق ،. وهـذه الغيرة عندما تشاهد مطلق فتاة تحادثه ..

وجاءها جواب على كل هذه الاسئلة .

هـذا مزيج مركب من عناصر البقـاء السلالي . صهرته الطبيعة في بوتقة الحيـــاة ، فاستحال الى جوهر حسي غير ملموس ،. سمي الحب ،. نعم انها تحب ،. وهـذا الحب لفها بشاله الفضفاض . فأصبحت بكليتهـا ملكاً له .

لكن حبها سرق منها ،. وسارقوه بنات المدينة ،. انهن قد اعطين عفيفاً ما ضنت هي به عليه ، قد وهبنه عفافهن ،. وهي ضحت بحبها على مذبح العفاف .

ومرت هناء مروراً عابراً .

هل هي كبقية بنات المدينة يا ترى ،. وهل وهبت عفافها لأحد أبناء الجبل ، وهل هـذا الجبلي وسام ،. وسام ،. نعم أين وسام ،. وهمت في أن تبحث عنه . لكن لا ،. انه رجل ،.

ولماذا أخاف عليه ،. انه موجود في مكان ما ،. لكن ،. ما هذا الانقباض في نفسي ،. وقلبي ،. لماذا أسود هكذا ،. وتطرق على فكرها خاطر سرعان ما جرى على لسانها .

أيعقل أن يكون قد خرج في هذه العاصفة ،. وهمت بأن تخرج لتبحث عنه ، لكن صوت والدها وصل الى مسمعها ضعيفاً .

أمال ،. إلي بالماء يا أمال ،. لماذا تأخرت ،. أكاد أطق من العطش ،. واحتارت بين أمرين ،. والدها ،. وسام ،. لماذا هذا القلق يا بنية ،. لا يجب أن أدع الشك يتسرب الى قلب والدي ،. سأبحث عنه فيما بعد . واتجهت نحو والدها .

وكان تفكيره جافاً كحلقه ، لأن غمامة كثيفة من الهم كانت قد لفت عقله وحجبت عنه كل مرئيات الحياة ، فانهار انهياراً كلياً وأصبح ملقى على الأرض كبعض اوراق الخريف.

تقدمت منه أمال وطاسة الماء في يدها ، لكن منظره وتبدل لون سحنته من بياض مشرب بالحمرة الى اصفرار بلون الزعفران . صدمها بقلبها صدمة قوية وضعضعها . فصرخت ،. إلي يا أماه ،. النجدة ،. النجدة ،.

وأنساها هذا المشهد كل ما راودها بخصوص وسام ، فلم تعد تهتم بالبحث عنه .

وكانت والدتها في أثناء ذلك في المراح ، تهتم باطعام الفدان مع بقية الطروش . لذا لم يصلها صوت استغاثة أمال واضحاً لأن معظمه ذهب مع صفير الرياح .

لكن .. ما هذا الصوت الذي يأتي من بعيد محمولاً مع الرياح أيضاً ..

إلي ،. إلي ،. النجدة ،. النجدة ،. يا إلهي لقد انقطع الصوت ،. وراجعت أفكارها ،. وأي صوت ،. ان أذناي يسمعانني هذا ..

وبينما كانت تسير وبيدها سلا من القصب مملوءاً بالعلف ،. ارتطم كتفها بعامود كان يتوسط أرض المراح . فوقع السل على الأرض . وانحنت عليه ولملمت محتوياته مع دمعتين سقطتا من عينيها ،. رباه احفظها لي ،. وسام .. آه منك يا ظالم .. وانت يا أمال ،. يا طفلتي الصغيرة،. ماذا يخبىء لك القدر؟.

وكان صوت بومة ينعق حينذاك على غصن شجرة قرب الدار . فتطايرت ،. انك نذير شؤم ،. ابعده عنا يا رب ..

وذهبت لتفرغ العلف أمام غندور فوجدت معلفه مملوءاً ،. رباه ،. رباه لقد ملأته منذ هنيهة ،. يا لعقلي الضعيف ،. وانتقلت إلى المعلف الآخر ،. وكانت الطريق إليه معتمة قليلاً . فخطت أول خطوة والثانية وفي الثالثة داست على ذنب جرذ كان يقبع هناك . فنعص نعصة قوية ، وانقضّ على قدمها ونهشها بأنيابه ، فأذهلتها المفاجأة ، وارتدت إلى الوراء صارخه إليّ ،. إليّ ،. النجدة .. النجدة .

الكنار المريض

مرت الأيام مبحرة في زورق الزمن ، من ميناء الواقع الملموس والمفهوم إلى شاطىء اللانهاية حيث كل شيء هناك يقوم على التقدير والتخمين . وكان عددها يربو على العشرين يوماً . عاشتهم هناء على أعصابها . عاشت كل ساعة وكل دقيقة وكل ثانية من هذه الأيام في تفكير ممل مضن. في سويداء دائمة. وذلك منذ غادرها وسام إلى القرية ليحضر أمال .

إنها الآن في غرفة نومها ، ممددة فوق سريرها ونظرها عالق بسقف الغرفة . وشعرها أشعث منفوش كأنه على عداء مع المشط منذ سنين . وحول عينيها هالة سوداء تميل إلى الزرقة قليلاً . فكانت دليلاً واضحاً على سهرها المتواصل . ووجهها غادره لونه المشبع بحمرة الصحة والنشاط ليحل مكانه إصفرار ممقوت ،. وأهملته يد العناية ، وتركته دون رتوش ولا أصباغ . وظهرت على بشرتها تجاعيد صغيرة وصغيرة جداً. تكفي دلالتها على تقدير عمر صاحبتها ، . إنها تدرج في نهاية العقد الرابع مع إنها كانت في حدود الثلاثين . ويجانبها على طاولة صغيرة وضعت منفضة للدخان ، وكانت ملأى بأعقاب اللفائف ، وتبعثر بعض هذه الأعقاب مع الرماد على جوانب

المنفضة يدلنا على عصبية هناء في تفكيرها وعـدم ضبط ثورة أعصابها .

وكانت تعب من دخان لفافتهـا بشراهة ونهم ، ثم تنفث بقايا الدخان في الفضاء ، فيتصاعد حلقات حلقات . ويتحول إلى غمام كثيف . تنظر من خلاله إلى مستقبلها الغامض .

وبينما هي في سويدائها دخلت عليها خادمة نصف بدينة . مترهلة قليلاً ، مفلطحة الوجه ينم منظرها عن محبة لسيدتهـا وإخلاص لعملها ، ولما شاهدت سيدتها على هذه الحالة قالت لها والأسى يحز في نفسها .

سيدتي ،. إن الطبيب في غرفـة الاستقبال . أتأذنين له بالدخول ،. طيب ،. وما شأن الطبيب عندي ..

سيدتي .. ألم تأمري حضرتك بإحضاره ..

أنا أمرت بإحضاره ، . وغاصت في لجج أفكارها . هل صحيح هـــذا ، . وتجمعت خيوط هذه الأفكار في سلسلة رتيبة ،. نعم إنني أشعر بصداع أليم . وقد دعوت الطبيب،. يا لغباوتي ،. دعيه يدخل .

وبعد برهة دخل الطبيب ، ودخلت معه رائحة العقاقـير الدالة على مهنته . وكان في العقد الرابع من عمره . متوسط القامة ، أسمر اللون ، بشوشاً رزيناً .

استقبلته هناء نصف جالسة في سريرها . بعد أن أصلحت هندامها قدر الإمكان قبل أن يدخل .

فحياها بتأدب ، وأخذ يدها بين يديه ، ثم جس نبضهـا

حاصياً دقاته . فوجدها غير رتيبة مشوشة ، ثم انتقل إلى رأسها . الحرارة شحطة فوق المعدل .

وبعد أن أتى على نهاية الفحص ، قال :

إن جسدك صحيح من كل مرض . لكنك تشكين من توتر في الأعصاب، وهذا لا يقدّم ولا يؤخر الآن . أما في المستقبل فيخشى من المضاعفات التي تسبب الهستيريا وتجهد الجسد ، لذا يلزمك هدوء تام . مع عدم إجهاد عقلك في تفكير مضني . وذلك بقصد إراحة أعصابك ، . ووصف لها بعض العقاقير المهدئة وخرج على أمل أن يعودها ثانية .

وبعد خروجه عادت إلى وحدتها ، وتمددت في فراشها ، ثم أغمضت عينيها نصف إغماضة ، وراجعت ما قاله الطبيب . إن أعصابك متوترة ، . لا تجهدي عقلك في تفكير مضن ، .

ما أغبى هذا الطبيب ، لقد جر نفسه من عيادته ليقول لي هذا فقط ، . ألم تكن تعرف هي ايضاً إنها تشكو من توتر في الأعصاب .. لكن ما أغباها هي أيضاً . وهل يحكم الطبيب على غير علتها ، . آه منك أيها العقل الدائب العمل ، . يا ليتك تتحجر ، . وأنت أيها الفكر ، . يا مخزن الصور المفجعة وهل يؤخذ من المخزن غير ما يحويه ، . لكنها تساءلت ما يخفي لها القدر في منعطفات الزمن ، . إن الحظ قد شن عليها حرب شعواء ، . هل ستتغلب عليه في النهاية ، . أم سيتغلب عليها هو ..

وذهب النهار بضجيجه ، وأقبل الليل يحمل في هجوعه

بعض الهدوء . لكن أفكارهـــا بقيت مشوشة لا تستطيع تركيزها ضمن محور معين .

وبينما كانت ساردة في تجوال أفكارها المتضاربة . رن جرس الهاتف بقربها . فألتقطت السماعـة متماهلة وبدون إكتراث . لكن عندمــا سمعت الصوت في الطرف الآخر انتفضت كمن لدغتها أفعى . وتساءلت برعشة ظاهرة ، . نعم ماذا ، . هل مرض الكنار ، . وكانت هذه الجملة كافية لتضع السماعة في موضعها ، وتدق جرساً كان بقربها ، وعلى صوت قرع الجرس أتت الخادمة ، وسألتها : ماذا . .

لقد مرض الكنار .

وسرت هذه الجملة في جميع غرف البناية سريان النهار في الهشيم . لقد مرض الكنار . لقد مرض الكنار . وانتقلت من فم إلى إذن ومن إذن إلى فم. إلى أن تناقلها الجميع. فأصبحوا وكأن على رؤوسهم الطير . لكن دهشتهم لم تدم طويلاً . إذ شعروا بدنو الخطر. فعملوا بسرعة مخافة من أن يقبض عليهم. وانسل القسم الأكبر منهم من باب سري في مؤخرة البنايـة يؤدي إلى زاروب جانبي يخلو من المارة تقريباً . وخصوصاً في مثل هذه الساعة المتأخرة من الليل . واندسوا في بيت حقير لا تحوم حوله الشبهات. والذين بقوا في المنزل تفرقوا كل الى وظيفته .

الخادمة في المطبخ . وأخرى عند سيدتها تقوم على خدمتها لأنها مريضة . وسائق السيارة يعمل على اصلاحها في الكاراج.

وبينما الجميع منهمكون كل في وظيفته إذ بباب المنزل يقرع بشدة . وذهبت الخادمة وفتحته .. ففوجئت بعدة رجال بلباسهم الرسمي يلجون بسرعة وبدون استئذان . ويندسون في جميع غرفه وكأنهم الأبالسة .

هذا يفتح خزانة مقفلة ، وذاك يبحث وراء اخرى . والآخر يقلب جميع الأغراض التي يحتمل أن يختفي وراءهم مطلق انسان .

لكن جميع جهودهم باءت بالفشل ، لأنهم لم يجدوا ضالتهم.

واندفعت هناء من سريرها معترضة على هذا التصرف الغير مشروع تجاهها . وعلى انتهاك حرمة منزلها . منذرة بالويل والثبور . لكن رئيس هذه الحملة أبرز لها أمراً بمداهمة المنزل وبالقبض عليها وعلى كل من يجدونه عندها اذا اقتضت الحاجة.

باي جرم يا ترى ،. وما ذنبي ،. قالتها بتهكم مبطن لا يلحظه إلا اللبيب الفطين .

لكن أبا محمد أي رئيس الحملة ، الذي كان يستمع اليها بتحرق وكيد والسم يقطر من وجهه . كان يراقب كل خلجة في وجهها ، فلم يفته تهكمها . لكن أفلت زمام الأمر من يده وأقر لها بالغلبة فجاوبها متهدداً متوعداً والكلام يخرج من فمه مع الرذاذ كالقنابل . الدهر يوم معك ويوم عليك . ولا بد أن يحبس الكنار يوماً في القفص .

عندما نطق صاحبنا بهذا القول ، تهلل وجه هناء بشراً ، واقتربت منه ، ثم لكزته بكرشه لكزة خفيفة وأرفقت

لكزتها ببسمة مغناج . ارتج لها اللحم قليلا . وكان صاحبنا ابو محمد بديناً منتفخ الأوداج ، أحمر البشرة ، بسام المحيا .

فعلت هناء هذا لظنها بان أبا محمد قد أصبح من رجال حاشيتها . وأما أحد رؤسائه الذين يعملون في بلاطها قد أرسلوه اليها وأعطوه كلمة السر كي لا يرهبها ، وتقع في المحظور أمام أحد أفراد مرؤوسيه . وهمت بأن ترحب به وتدخله الى غرفتها الخاصة ، كي تقوم بواجبه . لكن خاطراً سريعاً فاجأها ..

ان كلمة السر فيها بعض التحوير ،. ان الكلمة المتفق عليها لانذارها عندما تود دائرة شرطة الأخلاق مداهمتها . هي (لقد مرض الكنار) أما أبو محمد فقد قال : (لا بد أن يحبس الكنار يوماً في القفص) . ان التناقض ظاهر بين الجملتين . وتسارعت الاسئلة في رأسها . لربما كان يلقي هذه الجملة دون قصد . وكان لا يعلم بانها كلمة سر بين معظم مسؤولي دائرة الاخلاق . والتي أخذت مضايقاتها لنا تزداد رغم تحذيرنا . نعم انهم بدأوا يضيقون علينا الطوق . رغم ما نمدهم به من أموال. يجوز أن يكون من الزمرة التي تناصبنا العداء . فماذا يكون موقفه تجاهي يا ترى اذا كاشفته بجلية الأمر .. ألا أكون قد حكمت على نفسي بنفسي .

لا .. إذن سأنتظر عله يوضح ما بفكره أكثر .. وبعده نرى . وخفت حدة أبو محمد قليلا عندما لكزته هناء في بطنه . وتكهرب جسده ، وارتعشت شفتاه ، وجالت في فكره

أشياء وأشياء .. انه يعلم بأن بعض رؤسائه على صلة وطيدة مع القوادة هناء ، كما كانت تصلهم أخبارها وكما كانت تصفها معظم التقارير . لكن سرعان ما كانت تتبخر أحلام كل من كان يود القبض عليها . لأن خبر مداهمة وكرها كان يصلها قبل أن تصدر الاوامر بتنفيذها . نعم انه كان يعلم هذا وأكثر . وكان يعلم بان جبنة طرية صنع هذه الدار تتداولها أنياب حادة . من أجل طمس السر الذي يدور حول كيفية المواد والظروف التي تصنع بها الجبنة . وكان يحس بطعمها تحت أنيابه بالفكر فقط . وراوده أمل بمشاركة متذوقي طعمها الحقيقي . لذا بدل لهجته من الشدة الى اللين وقال:

بعض ألسنة السوء قد وشت بك وقالت . كل دار تحلين بها تحولينها الى وكر للدعارة السرية . ونحن بحكم وظيفتنا مطلوب منا أن نحقق بهذه الوشايات ، لنتثبت من صحتها أو عدمها .. وبما اننا الآن لم نجد أي دليل على ممارستك هذه المهنة . ستبقين بعيدة عن العقاب ، الى أن يصح الخبر ، ويصبح الشك يقيناً . عندئذ يكون البكاء وصرير الاسنان .

قال هذا وأمر معاونيه بالانسحاب فخرجوا الواحد تلو الآخر .

وردت عليه هناء بجفاء

لقد انتهكت حرمة منزلي أنت ورجالك دون مبرر . وقدمت لي عذراً أقبح من ذنب . تبريراً لموقفك . ناعتاً إياي بالرذيلة . . ومستتراً خلف تقرير ملفق وخلف القانون الذي

يجيز لك أن تنفض الغبار عن طرف ثوبك وتقول . انه الواجب .. انها وظيفتي .. ودون أن يطالك أي عقاب اذا نعت قوماً بما ليس فيهم.. وأقل تهمة تلصقها بهم ظلماً وعدواناً يكون جزاؤها الحبس والتعذيب لسنين عديدة .

لكن انت من يقاضيك .. من ينقذ شرفي من الوحل بعد أن مرغتني به .. من يصدق بانني لست العاهرة هناء بعد أن داهمت منزلي شرطة الاخلاق ... ان التهمة قد لصقت بي ظلماً وعدواناً .. وصمة العار والزندقة . لكن لي الله . واجهشت بالبكاء .. واعولت ، وتأوهت ، وتوعدت .. و .. و . و .

وكان ابو محمد ذا قلب حنون ، فتقدم منها وقال بخبث مبطن .

لا عليك يا ست هناء . ان الأمر اهون مما تظنين بكثير . وهو لا يتعدى كونه عمل اداري يقع تحت طائلته مطلق فرد دون ان يطاله أي عقاب . ودون أن تمس سمعته . خصوصاً إذا تأكدت براءته بشهادة شرطة الاخلاق نفسها .

قال هذا الكلام وربت على كتفها بيده البدينة . وانزلقت هذه اليد بطريقة عفوية الى الزند . وغاصت باللحم البض الناعم .

تجاهلت هناء هذه البادرة واجابته .. انني اشكرك على تلطفك بتعزيتي . وان كنت اسأت إلى من حيث لا تدري ، لأنك كما قلت سابقاً تقوم بوظيفتك .

وبما ان عملك قد انتهى الآن . ولم يعد لك علي اية دالة . فارجو ان تشرفني بغير صفتك الرسميـة . كي يتسنى لي أن أقوم بواجبي نحوك . واوجهك مواجهة الند للند (لا مواجهة الصياد للطريدة) .

احس أبو محمد بأن كرامته قد امتهنت بهذا الطرد المبطن. لكنه كظم غيظه ونام على الإهانة . على أمل الانتقـام حينما تسمح له الظروف .

بعد ذهاب ابو محمد انهارت هناء انهياراً كلياً. لأنها اجهدت نفسها كثيراً ، وحملتها فوق طاقتها ، لتظهر أمـام مطارديها بانها الشريفة الطاهرة الذيل . وكان تصنعها لعدم المبالاة يحز في هذه النفس الامارة بالسوء . وكانت خائفة .. وخوفها من هذا الانقبـاض المجهول الذي يلفها برهبته .. وكان هاتفـاً لا تدري كنهه يقول لها ، ان نهايتها قد دنت .

وفي فسحة الفراغ بين الخوف من دنو الساعة ، وبين الرغبة في حب التسلط والتشفي وحب السيادة . تجاوبت اصـداء صرخة هائلة في صدر هناء .. صرخة مكبوتة لم يسمعها اقرب المقربين إليها . لكن دلائلها كانت ظـاهرة في عيونها .. في اكمداد لون بشرتها . في انحلالها .. في كل خلجة من خلجات صدرها .

رباه .. رباه .. ماذا جنيت .. انقذني مما حاق بي ، ارفع عني هذا الكابوس المرعب ، أي مستقبل مظلم اعددته لي ..

وتمثلت نفسها هاربة .. وحيدة .. في بيـداء مقفرة .

وجميع قوى الكون تطارها . شبح جريمة اقترفتها في الماضي دون قصد ، لعنات الاباء والأمهـــات اللواتي زجت بفلذات اكبادهن في اتون الحماة والرذيلة . لعنات الأزواج والزوجات اللواتي هدمت صرح سعادتهن .. بجر الزوج الى بالوعة المقامرة والخيانة . وإغراء الزوجة بأرق الكلام . ومعسول الحديث. ثم بالأصفر الرنان ، لحملها على المتاجرة بجسدهـا . كي تكون وسيلة لربح فاحش يكدس في صناديقها .

لعنات الشباب والشابات . لعنات كل خطيب وخطيبة ، لأنها هدمت صرحاً منيفاً من الأحلام الذهبية بنوه على أمـل بمستقبل زاهر يقضونه في ظل الاستقرار والطمأنينة .

واخير .. مطاردة الحكومة .. وتضييق الخنـاق عليها . مع جشع بعض المتنفذين الذين يتولون حمايتها .

والآن انها على وشك الإفلاس وتجارتها قادمة على البوار ، لعدم توفر عناصر جديدة من الفتيات والزوجات ليحللن محل اللواتي لم تعد ظروفهن تسمح لهن . بممارسة هذه الوظيفة . لذا أخذ معظم زبائنها يتحولون إلى اوجار أخرى .. طمعـا بالصيد الجديد .

وعند وصولها بتفكيرها إلى هـذا الحد ، شعرت أكثر فأكثر بحاجتها الى وسام .. اين هو ماذا حل به .. لمـاذا لم يعد إليها .. هل تركها نهائياً ، لماذا هجرها وهي المتسلطـة عليه ، المالكه ناصية قياده.. وحامت بخيالها حول نقطة .. وخافت الولوج الى جوهرها مخافة من الصدمة وردود الفعل..

لكن فضولها سبقها الى استجلاء الغامض المجهول •• هل فقدت أمال • والى الابد •

فقدت أمال •• والى الابد •• سؤال تجاوب مع سريرتها فوجهت افكارها ناحيته •• نحو آمال المستقبل ، • آمال الحياة •• وأمال اللحم والدم • آمال • يا للحم الضائع ، ان كل ما يتمنى المرء ويصبو اليه لسراب خادع ، يبهر بوجهه سريرة من يتعلق به • ويعمي بصيرته • فيندفع مجرورا وراء اللاشيء

سجل حياتي

وبعثت بخيالها رسولا الى خزائن الماضي •لينقب لها عن حقبات ومعلومات من تاريخ حياتها• ابتداء من الحقبة الاولى التي أحست بها بفيض من الاسرار المبهمة •• الاسرار التي تلف مطلق فتاة تخطر بسن الرابعة عشرة وتلفها بهالة نورانية • الاسرار الاسئلة التي تجعلها تدور في دوامة ملأى مفرغة •• ملأى بأحلام •• وآمال ، وأوهام ومفرغة، لان هذه الاحلام والامال مبنية على هوى البلوغ •

وعاد الرسول حاملا بين يديه مجلدا ضخما ، وألقاه على مائدة مخيلتها ، فقلبته بيد عقلها ، وتصفحت عنوانه بعين بصيرتها ، وكان عنوانه • سجل حياتي •

وقلبت الصفحة الاولى والثانية والثالثة الى الثانية عشرة انها صور ملفوفة سعيدة••زادها اللعب والعفة والطهارة•

ومن الثانية عشرة الى الرابعة عشرة •• حيرة ووجوم•• من تقلبات جسدية ونفسية وبلوغ غامض في الاناء لا في محتوياتـــه •

وها هي الصفحة الخامسة عشرة ، تطل عليها مشبعة بالاحلام المغريات •• والذكريات المؤلمات •• بدء عذابها

وسبب شقائها ، وها الصورة الاولى التي رسمتها بريشة شبقها •• فتى أسمر واسـع الصدر عريض المنكبين •• وضاء الجبين •• مفتول الساعد قويه : يختطفها ويفر على صهوة حصان أبيض • وأغمضت عينيها •• انه يطير بين الارض والسماء ، محمولا فوق هالة من الغمام •• انهما في عالم مشبوب باللذة والسعادة •

وهذه صورة اخرى •• لقد وجدت فتاها • انها تعيش في قصر من اجمل قصور الآمال العذاب •

وها صورة اخرى •• لكن وجهها أغبر •• ان فتاها قد غرر بها : وسلبها عفافها •• مستغلا طبيعتها النارية، وذلك تحت ستار الحب والزواج والامل بالمستقبل •• و•• و..

وتتابعت الصور سوداء كملكة نفسها : زانية، سافلة•• منحطة •• هكذا كان حكم المجتمع عليها بعد ان نبذهـا فارسها •• وانتقلت الى الصفحة السابعة عشرة • انها في الدير حيث آملت ان تدفن ذلتها في رمس التوبة ، والصلاة والتقوى والفضيلة ••

وهنا أيضا لاحقتها ذيول جريمتها ، حيث تسربت أسرار فضيحتها • وطاردتها نظرات رفيقاتها •• مقت وازدراء • بعد أن قضت بينهن ما يقارب السنتين في خدمة الانسانية وتخفيف آلام المعذبين •• ولماذا ؟ ألأن زلتها قد افتضح أمرها •• وهن •• ألا يمكن ان تكون زلاتهن أعظم من زلتها ، وهل ان عدم افتضاح الزلة تجعل صاحبها في منأى

عن محكمة المجتمع •• ومحكمة الضمير أين هي ••

وفي الصفحة العشرين بعد فرارها من الدير •• رذلها نفس المجتمع عندما عادت اليه •• ناعتا اياهـا بمفسدة الاخلاق •• لكن لا ، انني أقوى من هذا المجتمع الدعي• وسأحاربه بنفس سلاحه •

بازالة الاقنعة التي تحجب وجوه مدعي الفضيلة واظهارها على رعونتها •• الى الانتقام ، الى الانتقام ، ان في الانتقام راحة للنفس• ووضعها ضميرها في محكمة العدل لا محكمة المجتمع ليحاسبها على ما صنعته من خير وشر ••وتساءلت الضمير ، الضمير ، وهل بقي لي ضمير •• وهل للمجتمع ضمير •• كلا ، اذا فليدفن ضميري حيث دفن المجتمـع ضميره في مقبرة المصلحة ، والمادة ، والانانية ، نعم انني قد دفنت ضميري ولم يعد له أي سلطان علي ، الى العمل ، الى العمل •• وعملي يحتم علي ان أجذب اكبر عدد ممكن من أفراد المجتمع الى صفوفي •

وقلبت عشر صفحات من تاريخ نقمتها على المجتمع دفعة واحدة • لان محتوياتها على روتين واحد مسل • نساء •• بائعي لذة ، ورجال ذئاب •• وسكر • وعربدة وأفيون ، ومقامرة ، نعم انها قد ملت هذا الروتين ، لكن ما حيلتها اذا كانت حياتها قد أصبحت حلقة مرتبطة ببقية حلقاتـه الى الابد •• انه يعيش في دمها •• في نقمتها على المجتمع وعلى الحياة ، في سبب معيشتها •

وصرفت خيالها رسول الماضي ، وناقشت حاضرها نقاشا منطقيا عقليا . خرجت منه بتعليلين لا ثالث لهما .. أحدهما لخيرها والآخر لويلها . وكان استقرارها المادي مرتبطا الى حد ما بخيط واه بهذين التعليلين .

فاما ان تنقل دكانها وتعلن أفلاسها ، وتقر بالغلبة للقدر وللمجتمع . واما ان تنال بغيتها وتهزأ من الاثنين معا .

وحامت أفكارها حول أمال جابر .. أمال القرية .. هذه الحورية الصغيرة .. ذات الجمال الآسر ، نعم ان شغلها قد خف وأصبحت على وشك الافلاس .

لكن اذا كان الحظ بجانبها وأحضرت أمال . فستعيد الى عملها سابق عزه ومجده . وتعود فراشات اللذةلتحوم حول نورها ثانية . وبعد تفكير عميق انتفضت وكأن كل ما مر عليها لا يعنيها . فاستعادت نشاطها ونادتخادمتها لانها صممت على شيء .. وحضرت الخادمة على جناح السرعة . ووقفت حيال سيدتها كالصنم . لانها رأت شيئا غير طبيعي يعتلج في نفسها .. وتهيبت الموقف مخافة من أن تقوم بأي عمل يزعجها .

لكن هناء لم تدعها فريسة لهذا الوجوم .. وقالت لها ..

ان الساعة الان تقترب من السادسة صباحا . وبعد ساعة يجب ان أكون متوجهة الى بسكنتا اذهبي الى خليل وقولي له كي يحضر السيارة الساعة السابعة .. أفهمت.

سيدتي • ان •

قلت لك اذهبي دون جدال •• وعودي الي مسرعة لانني بحاجة اليك •• وكان في نفس الخادمة جزع على سيدتها • وأرادت ان تقول لها ، انك لم تذوقي طعم النوم منذ ليال • لكنها رضخت لامرها وذهبت •

الاعجوبة

وفي بسكنتا كان شغل الناس الشاغل • الحديث عن الاعجوبة الخارقة التي أنقذت بيت السيد نديم جابر من كارثة محتمة • ألا وهي خلاص وسام ومن بين أنياب الذئب الجائع الذي كاد يفترسه ، لولا رسول العناية الالهية الذي تقمص شخص أمال •

ولنعد لنشارك آل جابر مصيبتهم ، بعد ان استولى الرعب على الجميع ، وكان كل منهم ينادي الاخر طالبا منه المعونة •

انا الان مع أم وسام في خوفها من شيء مجهول انقض على قدمها في ظلمة زريبة الحيوانات • ومع أفكارها المشوشة التي ساعدت على زيادة الرعب في قلب لا يهاب أشد المواقف هولا ، لو كان في غير هذا الجو الملبد بالغيوم • غيوم الفكر طبعا •

لكنها ثابت الى رشدها سريعا عندما رأت الجرذ يقفز أمامها على نور الغروب المتسرب من شقوق الباب • ولامت نفسها على هذا الرعب المفاجيء •

ووصلها صوت الاستغاثة وكأنه يقطع اليها آلاف الاميال

الي •• النجدة •• النجدة ، رباه ، وأصاخت السمع ، ما هذا ، انه ليس وهما ، انها الحقيقة •• وتجاذبها صوتان، صوت من الداخل ، وصوت من الخارج •• والاثنان يتجاذبان قلبها ، لكن صوت الداخل أقرب الى الحقيقة ، ربما الصوت الاخر كان صدى تشويش أفكارها لا غير•• ودخلت الدار بقلب واجف وشاهدت أمال نصف مغمى عليها • فصفعتها على وجهها صفعتين قويتين ورشتها بالماء • فعادت الى صوابها •• وعاجلتها بالسؤال • ما بك ، أي مصاب حل بنا •

آ •• آ •• ب ، بي ، آ •• آ •• أبي ، وأشارت بيدها ناحية والدها تقدمت رفقة من زوجها ملهوفة جازعة• وقدمت له بعض المنعشات ، فثاب الى رشده •• وكانت أول كلمة نطق بها •

أين وسام •• وكان عقله الباطن مع الحنان الابوي قد أظهرا له وسام بوضع خطر شديد • تقابلت الوجوه مع بعضها •• وكان تساؤل مبهم •

حقا •• أين وسام • ولو عرفوا ان وساما اقرب من الموت أكثر من قرب بياض العين الى سوادها • لكانوا فدوه بمهجهم • لكن اني لهم ان يعرفوا وهم ليسوا أنبياء•

اختلط في الخارج عواء ذئب جائع مع ولولة الرياح ومع صوت خنقه الضعف والفزع • وتسلل الى الداخل نذير شؤم وجزع •

قالت أمال لوالدتها •• ان قلبي يحدثني بحلول مصيبة، ان شيئا ما يحدث حولنا في الخارج •

دعينا من الافكار السيئة • يكفينا ما نحن به •• لكن ماذا اسمع ، ان قلبي تغمره الدموع ، ولداه أين أنت •• واندفعتا مع توارد أفكارهما الى الخارج •• وشاهدتاه•• لكن يا لهول ما شاهدتا •

شلو قعيد يفترش الارض وعيناه مسمرتان في عيني ذئب مفترس يحاور فريسته ليتأكد من عدم قدرتها على الدفاع وندت على صدريهما صرخة لم تتعد الشفاه •• وانـدفعت الام نحو وحيدها •• علها تفديه بنفسها •

لكن أمال كان عليها ان تقدر وتعمل بثوان معدودة • وكل خطرة فكر كان لها ثمنها •• انها لا تبعد عن الباب سوى خطوتين •• ان بندقية وسام معلقة على قاب قوسين منها •• انها تجيد الرماية ، واحتمال آخر، ربما لا تصب طريدتها ، لكن صوت الطلق سيرهب الذئب ويفر • وكلا الامرين لصالحها ، واذا اندفعت نحو الذئب مع والدتها، ربما لم يرهبنه • وربما انقض على وسام قبل ان تدفعاعنه أذاه •• اذا الى البندقية •• وكان تنفيذها لعملها أسرع من تفكيرها • اذ أنزلت البندقية من علاقتها وحشتهـــا بقذيفتين مع خروجها من الباب وبدأ الذئب يتحرك نحو فريسته لينقض عليها • لانه اغتاظ من تدخل غرباء فــي أمــره •

وأم وسام أقعدها الرعب قبل ان تصل الى وحيدها ..
وأصبحت بين الذئب ووسام وبين أمال .

ووسام عيناه مسمرتان بعيني مطارده ، فلم ينتبه لما كان يجري من حوله .

وكان على أمال أن تسدد الطلقة على الذئب بحذق ودون ان تصب أمها وشقيقها .

وهجم الوحش على فريسته ، ومع هجومه خرجت من بندقية أمال طلقة أردته قتيلا .

وكان هذا بقدرة قادر .. أم لبراعة أمال في الرماية، لا احد يعرف ، فلنقل انه القدر .

وبعد خروج الطلقة من البندقية دارت امال على نفسها دورتين وهوت على الارض مغشيا عليها .

حكم القدر

وأبى القدر الا أن يتم فصول هذه المأساة • فأعـــاد عفيف تامر الى حلبة صراعه الدموي متضافرا مع القوى الغير منظورة •

وكان عفيف قد توارى عن مسرح حياة آل جابر منذ فرت منه آمال في الغابة ، ومع فرارها فسخت خطوبتهما ، وقطعت كل صلة بينهما لكن أفكارهما كانت تحوم حول محور أقوى من ان يتجاهلاه • وهذا الرباط الخفي كان يسيطر على ارادتهما ويطوق قلبيهما بسوار من أمل •

هي كانت تحن الى عفيف وتغفر له رعونته احيانا • لكن في سرها • وكان في جوهرها صراع بين أنانيتهـــا وعفافها ، وبين حبها •

وهو في انغماسه في حمأة الرذيلـة ، ومع تقلبه بين احضان الملذات في أحضان الغواني • كان حنينه الى حبه العذري السابق يشده الى الرابية الخضراء •• الــى السنديانة العجوز ملعب طفولتهما ، وحاضنة هذا الحب •

وكان في قلبه خوف •• وفي نفسه حياء •• وفي خلده

رجاء ، خوف من ان يفقد أمال الى الابد ، وحياء من مواجهتها بعد الذي سببه لها من اهانة وآلام •• ورجاء بأن يراها ولو من بعيد •• وهذا الرجاء حمله على ارتياد جميع الاماكن التي يحتمل ان ترتادها فاتنة لبه ، قرب العين ، عند بعض صديقاتها •• في البستان •• من نافذة المنزل في الغابـة •

وفي بعض الامسيات كان يتحقق رجاؤه لكنه كان يتجنب مقابلتها ، ويكتفي بمشاهدتها فقط من بعيد •

وها هو الان يقترب من منزل من أحب • على أمل أن يتمتع برؤية الوجه الصبوح • لكنه رأى ويا لهول ما رأى • وصعق لاول وهلة ولم يصدق عينيه • ففركهما أولا وثانيا وثالثا • وفي كل مرة كان يفتحها على اتساعها ليتأكد من صدق ما رآه •

لكن دوي البارود أكد له الواقع • وشاهد كل شيء بالعين المجردة•فصرخ من أعماق قلبه رباه هذا لا يصدق• وانطبعت في نفسه صورة خاطفة لما رأى •

أمال مغمى عليها وأم وسام أقعدها الخوف فتكومت على نفسها وتجسدت أطرافها • ولم يبق منها سوى صوت مبحوح يحشرج في حنجرتها • ولدي ، وسام ، أنقذوا ولـدي •

ووسام كتلة من دماء ، لا شيء يدل على الحياة فيه سوى بعض أنفاس متقطعة • وبجانبه جثة ذئب تنبجس

الدماء منهافتختلج وتختلج دليلاعلى قرب توديعها للحياة.

وأمام هذه الفاجعة أصابه الذهول ، وتسمر في مكانه لا يبدي ولا يعيد . ووقف من امره على حيرة . لمن يقدم المساعدة اولا .. وكلهم بالاولية أولى . وعدا دوافع الوضع الذي يدفعه الى التردد : كانت عوامل تجيش في فؤاده فتزيده ارتباكا على ارتباك كل بحاجة اليه .. وكل عزيز على نفسه . أم وسام ، وسام . وأمال حبه الابدي .

مرت هذه الخواطر في رأسه مرورا خاطفا . في ثوان معدودة حسبها دهرا لكن حيرته لم تدم طويلا ، فنادى بأعلى صوته طالبا مساعدة أهل النخوة والمروءة . ومن أبناء هذه الربوع لا يفدي نفسه في سبيل عمل الخير .

وقادته خطاه من غير ارادة ، فحمل وسام ونقله الى داخل الدار . لا لغاية في نفسه بل لانه كان الاقرب اليه. وعاد ثم وقف كالصنم حيال الجسد البض اللون .. هذه أمال معبودة خياله وزوجة روحه .. وها الجسد الذي تمنى احتضانه حياة وقوة .. فتوة وبهاء ملقى أمامه دون حراك .. هل سأحمله .. هل يحمله ويفر به الى آخر أصقاع الدنيا في الغابات، في الادغال حيث لا حسيب ولا رقيب . تبا للطبيعة ما أقساها . لقد أوجدتنا بها ضعاف الجسد .. كذرة من ذراها ، لكن نفوسنا أكبر منها وأوسع وأرحب وطموحنا أبعد من حدود اللانهاية .. لكن تبا لهذا الجسد الذرة لانه سجن لهذه النفس القوية

الكبيرة لهذا الطموح المجنح الخالد •• وأنحني فوقها يريد احتضانها ، لكنه تهيب الموقف •• هذا كفر ، هذا أجرام •• انها قالت لي لقد فررت منك الى الابد وملعون أنت ان لمست جسدي ثانية •• أأحترم ارادتها ، وخاف اللعنة • وأتجه نحو أم وسام •• وكان يجر جسده جرا وكأن بقدميه سلاسل هائلة من قيود نفسه الثقيلة •

احتضن الجسد الهرم بين يديه ونقله الى المنزل سريعا • وكانت طلائع النجدة قد بدأت تطل عليه •• فحقد على نفسه •• وحقد على الجميع ، ونهشت الغيرة كيانه •• ان أمال لي ، ولي حدي ، لماذا أتوا يشاركونني نجدتها •• وخطا نحوها ثانية ، خطا مندفعا كزوبعة هوجاء •• وعندما وصل اليها هدأ وكأن عصا سحرية لمسته • وكانت الغيرة قد أعمته عن كل محذور •• فانحنى عليها واحتضنها بكل جلال ورفق •• وتسارعت نبضات فؤاده المكلوم • وتمنى أن يهب هذا الراعش الخفاق الى من فارقتها الحركة وكان نداء يملأ كيانه •• فدتك روحي يا أمال وارتعش الجسد الساكن بين يديه فتزاوجت الخفقات مع الرعشات وامتزجت الروحان وأصبحتا روحا واحدة •

ومع شلال الرجاء المتدفق من عيني عفيف • التقت نظرة خاطفة انتزعتها أمال من مخالب الابدية انتزاعا • لكنها عادت وغطت في سبات عميق وهذه النظرة العابرة كانت بمثابة الوقود لعاطفة العاشق الملتاع • فصرخ من أعماقه •

ارحمني يا رب •• أعد الي الثقة بنفسي •• أعد الي رقة حبيبتي وحنانها ، وشعر بناب الحرمان يغرز فـي قلبه • حرمانه من جسد اقرب اليه من الموت الى الحياة • لكنه بعد قليل سيصبح بعيدا عنه بعد الارض عن السماء •• وتمنى أن تقف حركة الكون لتبقى له هذه البضعةيردات التي تفصله عن دار أمال ، ويبقى هـو مثقلا بحمله حتى انقضاء الدهر •

لكن حركة الكون لم تتوقف •• وهذه اليردات المتبقية قطعها بثوان معدودة •• وحمله سلخه عن جسده سلخا •• وفر من الجميع • من نفسه ، مـن أمال ، مـن الفضول والدهشة ، والاستغراب ، وهام في الغابة نصف مجنون •

موطن سن كن يتن

ها هي سيارة السيدة هناء تمر في بكفيا حاضنة أعياد الزهور ، ثم بالجوار • ومنه الى الخنشارة مقلع الرجال الافذاذ ، ثم الى بتغرين البلدة الباسلة الرابضة على كتف وادي الجماجم •• ومن بتغرين ظهرت بسكنتا موطن سن كن يتن أول مؤرخ عرفه التاريخ القديم وحصن المردة الاشداء • ظهرت بعظمتها وجلالها • منثورة بين البساتين كحبات بر بذرتها يد الله في حقول الجنة • ومما زادها رونقا وروعة قرميد دورها الاحمر الذي أضفى على سحرها سحرا ، وعلى جمالها جمالا • نعم ان بسكنتا لوحة خالدة في متحف الزمن قل ان جادت بمثلها ريشة الخالق •

وها المنظر يصافح بتنقله صنين الجبل الاشيب •• الجبل الاله • ويقف في محراب رهبته وقفة خشوع • ليسبح رب الارباب ويشكره على ما أبدعت يداه •

انحدرت السيارة بركابها الى قعر الوادي السحيق التي شابت بعمقها عمق تفكير هناء •• حيث كانت لاهية عن كل ما يحيط بها من جمال • وسابحة في بحر من الهواجس السوداء •• وفي رأسها ألف سؤال وسؤال ••

هل توفق في مهمتها •• هل وسام بعده على عهدها ••
وهل •، وهل ••

ولم تفق الى نفسها الا والسيارة تقف أمام دار السيد نديم جابر ؛ فترجلت منها وتقدمت خائفة وجلة •• وتهيبت الموقف • بأي حجة ستبرر قدومها الى عندهم •• لماذا خصت سمها لاهل هذه الدار الذين احاطوها بكل حفاوة واكرام طوال مدة اقامتها بين ظهرانيهم••ولماذا هم وحدهم من دون الناس ••

وهذا التساؤل أحيا في خلدها موات الضمير••فخجلت من نفسها وهمت بأن تعود أدراجها من حيث أتت •

لكن ترددها لم يدم طويلا • ألأن القدر حليفها •• أم هي كانت حليفته • الامر سيان •

وفتح الباب • وأطلت منه أمال •• ووقفت الاثنتان دون حراك وعقدت الدهشة لسانهما لكن أمال كانت السباقة في استرجاع وعيها • ففتحت ذراعيها واندفعت نحو هناء •• وصرخت •

أهلا •• أهلا •• يا للحظ السعيد ، أية صدفة قادتك الينا ، وهذه البادرة أخرجت هناء من تحفظها فتجاوزت الصراع الداخلي مع شخصياتها المتعددة وجاوبت نفسها بنفسها نعم انه القدر ، هذا ما كتب لي •• والمكتوب ما منو مهروب •

وبين قيل وعتاب وأشواق دخلت هناء الى دار من

فتحوا لها قلوبهم قبل دورهم دخلت وفي جعبتها هدية غامضة .. لكننا سنسميها نحن لعبة المجهول .

دهش القوم لهذه الزيارة الغير منتظرة . وشعروا بانقباض في نفوسهم لا كرها بالضيوف ولا لبخلهم وهم من عرف عنهم بأهل الكرم والسخاء بل لاندفاعهم مع ما يسمونه الحاسة السادسة . ولانهم استبقوا الاحداث وشعروا بأن جميع هذه المصائب التي حلت بهم يجوز ان تكون مسببتها هناء ولم يكن خوفهم من الماضي ومآسيه لان الماضي مع هوله يمكن ان يكون عسلا لانه عرف . بل كان خوفهم من المستقبل . لانه رهيب بمفاجأته . ومجهول ، وغامض .

شعرت هناء بأن جو اليوم غير جو الامس . وان الذين كانوا يستقبلونها بالبهجة والترحاب .. يستقبلونها اليوم وبسمة مصطنعة تعلو ثغورهم . وهذه الظاهرة لا تخفى على المجربين أمثالها . ومع شعورها بانقباض جو المنزل أحبت ان تسير باللعبة حتى نهايتها .

فتقدمت من السيد نديم وقبلت يده المعروفة الراجفة . وطلبت رضاه . ورد عليها بصوت حنون يشوبه الاسى : الله يرضى عليك يا ابنتي .

ورددت مع نفسها . الله يرضى عليك يا ابنتي . وهل أنا ممن يستحقون رضى الله .

ومع ترديدها لهذا الهاجس كان قلبها يبكي وثغرها يبتسم لام وسام التي تحاملت على نفسها وتقدمت منها مرحبة . وفي ضميرها تساؤل .

عدوتي •• لا •• ان حاملة هذا الظرف وهذا القلب الطيب لا يمكن ان تكن عدوتي وكان شكلها قد سبقها ووقف حائلا بينهما • تسانده الغيرة حاسة المرأة التي لا تخطيء •• هذه خاطفة ولدي • لكن الواجب واللياقة دفعا الشك وحلا محله • فاحتضنتها وقبلتها في جبينها وبادلتها هناء القبل ، لكن على فتور •• وكان نداء خفيا يجذبها •

هذه هي القابضةعلى مفتاح سعادتك • هذه هي الحارسة الامينة لكنزك •• اكسبي ثقتها •• وبعدها كل شيءيهون وتساءلت •• بماذا ، وجاءها جواب سريع ، البكاء •• وأي سلاح أمضى من البكاء في يد المرأة • وبكتبدموع التماسيح • وتلونت بألف لون ولون • بكت من فرحتها بلقاء من دعتهم والديها • بكت متوسلة رضاهم •• لانها في نظر نفسها لا تستحق هذا الرضي •• وبكت لانها وحيدة •• لطيمة ، لا أم لها ولا اب وطلبت من أم وسام أن تمنحها بركة بنوتها •• لتشعر بروعة الحياة من جديد•

احتارت ربة الدار في أمرها • واسقط في يدها •• اتصدق ظنها وتندفع وراء شكوكها •• أم تصدق هذا الكلام المعسول • وهذه الدموع الهاتنة • دموع هناء •

نعم ان لها قلب امرأة يغار ويحقد • ويحب الانتقام ، لكن ايضا لها قلب أم يحب •• ويحنو •• ويغفر اذا كان هناك ما يستحق الغفران ، وهناء عرفت من اين توكل الكتف • فضربتها على الوتر الحساس وتر البنوة ••

والامومـة •• والحنان فملكت ثقتها مع العطف والتقدير والاحترام •

لكن هذا النصر على من ظنتهم اعداء لم يسكرهـا بخمرته • لانها ليست من اجل هذا وحده تجشمت مشقات السفر من بيروت الى بسكنتا وفي فصل الشتاء فصـل الزمهرير والصقيع •

وفي فترة سلامها على أهل الدار كانت انظارها تتجه يمينا وشمالا باحثة عن وسام •

أين هو •• لماذا لم يأت لاستقبالها ، ورجف فؤادها • هل أصبح يتجنبها • ولماذا ، هل منعوه عنها ، هل دروا بعلاقتهما •• تجنبت السؤال عنه لاول وهلة منعا للشكوك •

لكن بعد فترة وجيزة حسبتها دهرا سمعته يتكلم فـي المربع الاخر مع بعض زائريه • وكان صوته يصل اليها ضعيفا واهنا • فأثار الريبة في نفسها والخوف في قلبها • وجاءها رد مشؤوم على سؤال خفي •• هل أقعده المرض ومنعه عن الرجوع اليها •• وهل فقدته الى الابد •• وهل يصمد جسده الضعيف أمام المرض •• لا •• وتخيلته على قاب قوسين من الموت ، وهل يهدم الموت في لحظة عابرة ما بنته هي في عدة ليال ، ورددت انه القدر •• ما أظلمه •

وعند هذا الحد من التفكير المشوش المضني • لم تعد تقوى على السكوت فتقدمت من أمال وسألتها متصنعـة عدم المبالات •

أين وسام •• انني لم أشاهده في الدار •

أبلغ رد على سؤالها •

وسقطت دمعة على خد أمال الليموني الاصفر • فكانت فصعقت وبلغت بها المفاجأة ان شاركت أمال في بكائها • دون ان تدري لماذا • وتساءلت • هل بلغت بهم المصيبة الى هذا الحـــد •

ولجت أمال الى المربع الذي يرقد به وسام دون ان تنبث ببنت شفة وأومأت لهناء ان تتبعها • وتبعتها • لكن أقدامها تسمرت في الارض • وتملكها الرعب ممذوجـــا بالشفقة • اذ طالعها وسام بلونه الترابي •• بعظم وجهه البارز • بمسحة الموت التي تهيمن عليه •

عندئذ ندت عن صدرها آهة هائلة خرجت وكأنهـــا فحيح ماذا •• ماذا ألم به •• أية نازلة حلت بالطودفهدمته واستفسرت عن حالته بلهفة الملتاع ، وكأنها لم تشاهده مطلقا منذ فارقتهم في أواخر الصيف •

وكان صوتها بمثابة روح جديدة دخلت في جسد وسام المتهالك • فرفع رأسه عند سماعها • وجال نظره فيأرجاء المربع باحثا عنها • وعندما التقت نظراتهما سبقت عينـــاه شفتيه بالافصاح عما يجول في خلده • فاستجار من هناء بها • وأراد ان يدعم نظره بالكلام لكنهـــا زجرته بنظرة خفية • وسر حالها يقول ، أتريد ان تفضحنا •• أتريد أن تهدم في ثانية ما بنيناه في عدة شهور •

واستكان هو الى نظرتها الزاجرة • وعرف من الاشارة ما أرادت افهامه اياه بصريح العبارة •

جرى كل هذا في ثوان معدودة خفية عن الجميع •

وأكملت هناء في الحاح عجول .

أي حكيم يشرف على حالته .. ولماذا لم يأمر بادخاله الى المستشفى .. وكانت تحيك في رأسها خيوط مؤامرة تركت اتمام فصولها الى الظروف .

قالت هذا وتقدمت من وسام . وكشفت الغطـاء عنه قليلا . تقدمت ودموع الرياء تهطل هاتنة من عينيهـــا . تقدمت وتقدمت معها شخصية اخرى .. شخصية رهيبة.. مجرمـــة ، اتجهت بنظرها نحو أمال الصيد الثمين الدسم ولحست دم فريستها اللذج القاني قبل اصطيادها .

انطلت حيلة هناء على أهل الدار ، وأخذوا يلومـــون نفوسهم على تسرعهم بحكمهم عليها .. وبأنها مصدر آلامهم وسبب تهدم شخصية وسام أدبيا وخلقيا وصحيا .واحتاروا في أمرهم . أيصدقون ظنونهم ويندفعون وراء شكوك لم تؤيدها شواهد حسية .. شكوك لا تستند سوى علـــى استنتاجات خيالية أوحتها اليهم أوهام باطلة .

وها هنا تضحد الشكوك والظنون برمتها . بحنوها. بلهفتها بعدم اظهار ولو بادرة صغيرة كانت ام كبيرة تدل على صلة سابقة به . لانها ممثلة بارعة .. ولانها مقدرة مركزها حق قدره .. ولانها عالمة مسبقا بأن ست عيون تراقبها .. وثلاثة قلوب محطات لاقطة تسجل أقل هفـــوة تصدر عنها .. لتقذف بها الى الجحيم . لذا حشدت لاداء دورها جميع امكانياتها الفكرية والعاطفية والجسدية .. فنجحت في تمثيلها أيما نجاح .. وملكت على أهل الدار

عطفهم وتقديرهم •• وثقتهم ايضا •• ويا ليتها فشلت، بعد فترة التلاقي التي غسلت القلوب من أدران الشك والريبة ، جلست هناء قرب السيد نديم وأخذت تهون عليه الامر ؛ وهو يقص عليها كل ما مر بهم من أحداث • من اليوم الذي فارقتهم به الى الساعة الانية • فهالها الامر• وأخذت سحنتها تتبدل وتتكيف بحسب الظرف أو الحالة التي يصل اليها أبو وسام •• بسرده لمؤاساتهم التي لو حلت على طود شامخ لهدمته •• فتارة تتأوه وطورا تبكي وأخرى تعود الى محكمة ضميرها • فتقول :

ألست أنا مسببة جميع هذه المآسي والمظالم •• ويحتدم في جوهرها عراك بين الخير والشر• بين الرذيلة والفضيلة• وتعود الى نفسها •• يجب ان أتوب • يجب ان أكفر عن ذنوبي السابقة • وذلك بمد يد المساعدة الى هؤلاء القوم الذين أحاطوني بكل عطف وحنان •

وأنا •• ؟• وشددت على هذه الآنا ، أنا الجانية ، أنا الجاحدة التي قابلت كل معاملاتهم الحسنة بالعقوق ونكران الجميل •

نعم يجب أن اعترف الى والد ضحيتي •• بل الى جميع ضحاياي بما فعلته بهم •• بما جنيته عليهم •

وعلقت كلمة أنا الجانة على فمها • وكادت تخرج الى حيز السمعيات • لكن اله الشر أوقفها مع النفس الاخير• وصرخ بها ، ماذا تفعلين أيتها المخبولة ، أتكتبين وثيقة

اعدامك بيدك،أتوقعين على قرار جلدك بدمك، أتقوضين في ثانية ما بنيته في ثلاثين حولا ؟

ويحك أية جريمة نكراء ترتكبين بحق نفسك ..

وصرخت نفسها ، وصاحت أنا ، نعم أنا ، أنا ومن بعدي الطوفان .

في هذه الاثناء كان ابو وسام يروي لها بقية الحديث . وهي لاهية عنه ، تحلل واقعا على ضوء مصلحتها .وكانت مشكلتها كيف تبدأ الحديث مع مضيفها بخصوص أمال صبوتها الضائعة .. وكيف تصل الى غرضها دون ان تشعرهم بما ترمي اليه . لكن اله الشر كان معها على موعد لان اله الخير كان في اجازة على ما يبدو اذ دخلت أمال ووراءها طبيب البلدة ، الذي دخل بأعوامه الستين . بجده ووقاره . بشنتته الجلدية القاتمة اللون . فقطع على الجميع حبل كلامهم ، وران عليهم صمت ثقيل فرضته جلالة المهنة ، ورهبة الخوف من نتيجة يراد ان تعرف أو لا تعرف .وكلا الحالين مرهق مضن .

بعد جولة مع جسم الجريح دامت ما يقارب الربع ساعة ظهر العبوس على وجه الطبيب . فكان خير دليل على تأزم حالة المريض .

وسبقت العيون الشفاه ــ ماذا .. ماذا يا حكيم .، أحالته خطرة ؟

لا ، لا ، الامر بسيط ، وسيشفى عما قريب باذن الله .

أمال ..

وانتحى بها جانبا ، لانه توسم بها الاعتدال ورباطة الجأش •

أمال ، يا ابنتي ، انني لا اكتمك الامر ، ان حالة وسام تدرج من سيء الى أسوأ ، وهي لا تخلو من الخطر •

ظهر الهلع على وجه أمال وفي مقلتيها ، وقالت :

ماذا نستطيع ان نفعل • أهدنا • انجدنا بربك •

رويدك ، هدئي روعك ، أنا لم أخبرك الا بعد ان توسمت فيك رباطة الجأش ، ان أملنا بالله كبير ، ولم يفتنا القطار بعد ••

والنعم من الله يا سيدي ، لكن ، ماذا جد عليه ،• أأستطيع أن أعرف مصدر الخطر •

نعم وحقك ان تعرفي ، ان أخاك وسام ضعيف الجسد وهذا الجرح البليغ الذي أصابه استنزف ثلثي دمائه ، وبما ان جسده لضعفه لا يعوض ما فقد منه بسرعة ، لذا وجب علينا أن نعوض هذا النقص بالطرق العلمية • وهذا لا يتم هنا لفقدان الوسائل اللازمة لذلك •

وماذا علينا ان نفعل ؟•

المستشفى ، المستشفى خير وسيلة يا بنيتي ، قال ذلك وخرج •

عادت أمال عابسة متجهمة الوجه والدمعة تجول في مقلتيها المقرحتين •• أرادت أن تنطق ، ان تتكلم ، لكن ارادتها خانتها ، فطفق الدمع من عينيها مدرارا •

بكت ام وسام ، وبكى أبو وسام ايضا ، • وكانت

وسيلة التفاهم فيما بينهم الدموع ، لا شيء غير الدموع لانهما شعرا بفداحة الامر من خلال دموع أمال .

وقفت هناء حيال هذا المشهد كالمخبولة لا تبدي ولا تعيد ، وقد أفقدتها الصدمة كل مبادرة . وظهر عليها الارتباك جليا ، واحتارت في امرها، أتترك القوم في بليتهم وتنسحب في حال سبيلها ، أم تعاونهم على بلواهم لكن ترددها لم يدم طويلا لان القوى الغير منظورة قد أوجدتها بين ظهرانيهم لتبقى وتعاونهم وأعطتها دورا فعالا يجب عليها تمثيله مهما كلفهما الامر . ثم دفعها الى ذلك دفعا .

تقدمت من أمال ومسحت دموعها بمنديلها الحريري المعطر وأجلستها بجانب والدتها ، ثم تقدمت من أبو وسام ومسحت دموعه الواقفة في محجريه ايضا فامتزج سم الافعى بدمع البنوة الحنون ليؤلف مع دموع أمال ووالدتها أغرب مركب لاغرب متناقضات وكان ابو وسام قد عاد الى نفسه وسأل أمال .

ماذا قال لك الطبيب ؟ قالها والحرقة تكوي فؤاده .

لا عليك يا أبي ، الامر بسيط ، انها أيام معدودة ويعود وسام الى صحته التامة .

أمال ، أترمين والدك بالغباء ، أتضعين غشاء على عين بصيرتي ..

لا سمح الله ان أغشك ، ان الامر بسيط كما قلت لك لكن ..

لكن ماذا . صرحي ان قلبي ينبئني بخطورة المصاب قبل أن تنطق ، ان وسام في خطر . أليس كذلك ..

لا ، لا ، قالتها في حدود الهمس ، أخفض صوتك كي لا يسمعك ، أنظر اليه . قد أزاح الغطاء عن وجهه ، عله سمع ما قلت .

أمال ، وسام ، ولدي ، ارحمني يا الله . نطق السيد نديم بهذه الكلمات وكأنه يهذي ، ثم أجهش في بكـاء صامت .

تحاملت أم وسام على نفسها ، وكانت الى هذا الحد لم تشترك بالحديث .

ثم نهضت باعياء وتقدمت من أبووسام، وتقدمت معها هناء وعاونتاه على النهوض ، وخرج الجميع الى المربـع المجاور .

حز الامر في نفس وسام ، وكان قد سمع بعض الحديث، وانه في خطر ، فلم يصدق ما سمع لاول وهلة . لكنه عاد بذاكرته الى أسابيع خلت ، يوم كان في الغابة واصيب بهذا الجرح المميت . واخذ يستعرض حالته يوما فيوم ، بل ساعة فساعة . فلم يلمس في صحته أي تقدم ، والجرح قد تقيح ، وهذا الاعياء ، وهذا الانحطاط الكلي بجسده، ما معناه، ما مدلوله، ونظره قد شح، وعندما يصاب بالدوار أحيانا تتماذج أمامه الاشياء ، فلا يستطيع تمييز بعضهـا عن البعض الاخر . ما معنى كـل ذلك ، وجاءه جواب سريع ، أنه الموت .

وعندما وصل بتفكيره الى هذا الحد دفن رأسه في الوسادة وبكى شبابه الضائع .

تعجبت هناء من صمود أم وسام أمام هذه النازلة ، . الكل انهار ، أبو وسام ، أمال ، وهي ،. لكنها أخذت بالمظهر الخارجي للامور ولو استطاعت ان تلج الى داخل الجسد المكلوم الهرم لوقفت على ما تقشعر له الابدان .

قلب الام تمزقه الاحزان، لكن عطف الزوجية كان يلف الاشلاء المبعثر بشال التحامل والصبر .. وحيدها بين أشداق الموت ،. تستنجد الله بالصلوات والنذورات ليشفيه ،. لكن بعلها من القبر على قاب قوسين ،. وهو بحاجة الى رعاية وتشجيع،.في رأسها الان آلاف الهواجس وآلاف الافكار ،. ووجها تسربله هالة من الحزن المهيب.

أمال ،. قالتها ربة الدار بلهجة حنونة آمرة ، افصحي يا ابنتي ، قولي ، ماذا قال لك الطبيب ..

طأطأت أمال رأسها تهيبا ولم ترد جوابا . فزجرتها والدتها .

تكلمي ،. أي خطب دهاك ،. أأنت خرساء ؟.

دفنت الاخت المصابة بفؤادها رأسها بصدر والدتها خوفا من رؤية أهلها عند وقوع النبأ عليهم . أم هربا من نفسها ،. انها لا تدري وقالت :

ان وسام في خطر ،. وهو في أمس الحاجة الى دماء ومستشفى .

وجم السيد نديم وردد .. مستشفى ، مستشفى ، وسام في خطر اعني يا رب ، هذا ما كنت اخشاه .

أما الست رفقه فقد كان خوفها أقوى من صبرهـــا ومن نفسها ، فلم تقو على تحمل الصدمة ، وتلعثمت .. و ، و ، وســا ، سا ، ســام ، ف .. ف .. دودور و ــ و ــ وسا ــ سا ــ سام ــ ف ــ ف ــ في ــ خـ خا ــ خطر .. وأغمي عليها .

احتضنت أمال جسد والدتها المتراخي ، فشعرت بالبرودة تتسرب اليه . وكانت برودة شديدة تميل الى الصقيع . فهالها الامر ، وحزمت شجاعتها ، الى العمل ، وبسرعة . ان الكل بحاجة ماسة اليها ، والدتها ، وسام ، وعاونتهــا هناء ، واستعادت ام وسام وعيها .

ماذا .. ماذا يا سيدة هناء ، انجدينا ، ماذا نستطيع ان نفعــل ..

أفعمت الغبطة قلب هناء .. وقالت في سرها .. ها الحمل قد أحب الارتماء بين أشداق الذئب خوفا من الوقوع في مجرى الغدير .

ان الامور تســاق الي دون جهد ، ودون ان أجري وراءها . وردت على أم وسام ببرودة يشوبها نوع مــن الاهتمام .

من جهة الخطر على وسام ، وأخذت نفسا طويلا .. هذا أنا لا أسلم به . وأما من جهة دخوله الى المستشفى فهذا

عين الصواب • وكنت سأشير عليكم به قبل ان يأمـــر الطبيب لان في المستشفى وسائل عديدة تساعـد المريض على الشفاء • وعناية أكثر ،• وأطباء فطناء يقهرون أقوى الامراض وأفتكها ،• وخصوصا الجراحون منهم • ووسام الحمد لله لا يشكو من أي مرض وبيل ، وهذا الجرح اللعين الذي تخافون منه سيشفى بمدة أسبوع فقط ان شاء الله •

دخل الامل الى قلوب العائلة المنكودة • وبلسم كلام هناء جراحها • وهدأ من غلوائها • وشخص اليها الجميع بأبصارهم • وهذا مما شجع هناء على الاسترسال بحديثها فوجهت كلامها الى السيد نديم •

أبي،• اسمح لي ان احتمي تحت جناح بنوتك،•ومسحت دمعة كانت قد سقطت على خدها ثم أكملت • لنرفع الكلفة فيما بيننا وكأني فرد منكم •

أخذ السيد نديم بعاطفة هناء المتلونة وقاطعها قائلا : اقتربي ،• اقتربي يا ابنتي لاطبع على جبينك قبلة البنوة الصادقة ، اقرار بعظيم نبلك • وشهامة نفسك • ان الله قد أرسلك الينا رسول سلام من السماء •

واقتربت هناء ، وقبلت يد ابي وسام • فاحتضن رأسها بين يديه ، وطبع على جبينها قبلته المتنــة الحنون ،• وارتعشت ،• ومسها سلك خفي ، سلك الرهبة والخوف، وأفاق في داخلها موات الضمير ثانية ، وأرادت ان تفر

أن تهرب ، ممن • من ماذا ؟ وعرفت ، مـن نفسهـا ،•
من أنانيتها ، من الجميع ، لكن وتوقفت ساعـة هـذا
الضمير ، وجاءها نداء من البعيد البعيد ، من غور الحياة ،
مـن اعماق اللامحسوس ، أبقي حيث انت ، هكذا كتب
لك ،• وهكذا سيكون ،• وتقدمت من ام وسام ، وطبعت
على يدها الملائكية المعروفة قبلة رياء سبقتها دمعة زائفـة
التقطتها شفتاها الكاذبتان ، فطوقتها الست رفقة بذراعيها
الامومیتين وضمتها الى حضن حنون دافيء • فشعـرت
بطوق من حديد يسور جيدها ويشدها الى أتون مـن
النار لظي •

احترق ضميرها بنار خداعها وتعودت هذا الاحتراق،
وقال لها عودي الى صوابك ،• ان طريق الخير أمامـك
مشرعة أبوابها ، ادخليها دون خوف ،• دون وجل، ادخليها
نادمة ، موتي نفسك لان النواة التي لا تموت لا تثمر ثانية•

وكان صوت آخر يقول أ ان الحياة اثمن ما في الوجود
والجسد دليل حسي على جمال الحياة ،• وما الموت سوى
وسيلة لتشويه هذا الجمال ، اذا عبي من بحر الجمال حتى
النشوة ، قدسي جسدك في بخور الموت ولو على حساب
أجساد الاخرين ، ان موت ثمرة على غصن حياة ثانية لاختها •

ومع طواف هذا الشلال العاطفي تقدمت أمال من هناء
مدفوعة بعامل خفي لم تدر كنهه ، واحتمت بهـا خوفا من
مجهول ترقبه • وكأن المستقبل استبق الاحداث ونبهها قائلا:
ان مصيرك بين يدي هـذه اللاعبة مـع الابـالسة •

ورضخت ،. ثم قالت برجاء :

هناء ،. اختي ، ساعدينا ، ساعدينا يساعدك الله .

وضعت هناء يدها على كتفها وفي عينيها بريق النصر .

لا عليك يا أمال ، ان الله يساعد الجميع .

ووجهت حديثها الى أبي وسام .

على ماذا عولت يا أبي ..

لا أدري ،. لا أدري ،. ان هـذا فوق ما استطيع تصوره ،. اذا أرسلنا وسام الى المستشفى فمن سيطل عليه هناك ،. وأنا كما ترين مريض لا استطيع ان أعيل نفسي ، وأم وسام كذلك ، وجارى خياله في تصوراته ، واغمض عينيه ،. ثم يبق الا أمال ،. ونطق دون وعي ،. ودون تفكير ، لا ، لا ، ان هذا سوف لا يكون .

وأجابته بخبث ،. وكأنها قرأت أفكاره ،. و ..

وأنا يا أبي ، ألم تمنحني حقوق بنوتك ،. هل اسقطتني من حسابك ..

لا سمح الله با ابنتي ،. لكن يكفينا مشاركتك لنا في أحزاننا ،. ان هذا الجميل منك سنذكره ما حيينا ..

ونظر الى زوجته يستنجدها فيما يفعل ،. بنظراته ،. بلهفته ،. ب ،. وأجابته .

لا مفر من الواقع ،. ان وسام سيذهب الى المستشفى بصحبة أ ،. وأرادت ان تكمل ،. لكن شيئا غامضا كان يعصر فؤادها ،. فتجلدت ،. وأردفت بصحبة أمال .

بوغتت هناء وظهرت عليها دهشة مصطنعة ..
بصحبةأمال ،، ولماذا ،. لا ،. انها ستبقى هنا ،. واعدكم بأن سأكون له بمثابة أب وأم وأخت .
شكراً يا ابنتي ،. لكنني أظن أن وجود أمال بقربه سيلطف عليه وقع الأمر .
مثلما تريدون يا امي ،. واحبت أن تختصر الحديث لئلا يغير القوم ما في افكارهم . أن أمال ستنزل عندي ،. ان بيتي وبيتكم واحد ،. ومستشفى الدكتور رزق قريب منا جداً ،. انه اشهر واحدث مستشفى في بيروت .
ابنتي هناء ،. أمال ،. اقتربا ،. وضمها إلى صدره ،. ان وسام وديعتكما ،. فليحفظكما الرب .

في بيروت

أخذت أمال بعظمة بيروت وجمالها . إذ طالعتها المدينة بروعة بنائها واتساع شوارعها وفخامة محلاتها التجارية ،. ورددت في سرها ،. حقاً انها لمدينة بديعة ،. وغبطت نفسها بنفسها ،. نعم انني في بيروت مدينة الأحلام ،. بيروت ،. بيروت ..

مدينتي الحبيبة ،. كم تمنيت أن ازورك بعد أن سمعت عنك الكثير الكثير ،. وكم كان ما سمعت من وصفك الشائق قليلاً بالنسبة لما فيك من رونق وبهاء .

وبينما كانت السيارة تمر في ساحة الشهداء ، طالعها تمثال كبير ينتصب فوق قاعدة من الحجر المقصوب جميل الهندسة ، ذو جلال ومهابة ،. واشكل عليها الأمر ،. لأي شيء يرمز يا ترى ..

هناء ،. هناء ،. ما هذا يا اختي ،. هذه المرأة الشابة ،. وهذا الفتى الجميل و ..

انتفضت هناء كمن أخذ على حين غفلة لأنها كانت مندمجة مع افكارها ، تحبك في رأسها خيوط مؤامرة جديدة .

ماذا ،. ماذا تقصدين ؟

هذا التمثال يا اختي . وأشارت بيدها نحو نصب الشهداء.

انه تمثال الشهداء يا حبيبتي .

الشهداء ،. وأي شهداء يا ترى ،. وشهداء مـــاذا ،. لم اسمع بهم من قبل . وأردفت بتأفف ،. تباً لمحيط القريـة ،. كم هو ضيق ،. ومكوم على ذاته ،. شجر ،. وغنم ،.وأبقار وثرثرة فتيات على العين ،. و .. و ..

وضحكت هناء ملء فيها ،. وتكلمت بضمير فيلسوف .

لا تنقمي على محيطك يا اختاه ،. انه هادىء ،. وجميل،. وقريب من الله هنيئاً لكم به . انه صومعـة جميلة مزهوهرة الجنبات . ورددت في سرهـا ،. ليتك لم تتعرفي على مجتمعنا هذا انه فسق ،. وشرور ،. ومادة ،. انه ظل الشيطان على الارض .

هناء ،. لم افهم من جوابك اي شيء .

حقاً ،. انك تودين ان تعلمي اي شهداء . أليس كذلك ؟.

نعم .

انهم شهداء الحرية الذين ارتفعوا على اعواد المشانق عندما طالبوا بحق استقلال لبنانهم ، على عهد جمال باشا السفـــاح الحاكم التركي .

نعم ،. نعم ،. ما اغباني ،. ووضعت يدها على رأسها . وبحثت ضمن خلايا افكارها ،. لقد حدثتني جدتي عنهم . وكم كانت فخورة .

وتمثلت لها جدتها بمهابتها ووقارهـــا ،. وأوداج الجدة تنتفخ بعظمة .

انهم ابطال ،. انهم جبابرة ،. انهم عين قاومت مخرز ،. لكن الدمعات التي ذرفتها العـــين قد صادفت أرضاً خصبة زرعت بها بذور التضحية والحرية والفداء . فانبتتت شجرة الاستقلال التي نستظلها الآن . وتدحرجت على خدها المغضن دمعات التحسر واللهفة .

على مذبح العفاف

دقت الساعة تمام الثامنة مساء في المنزل الفخم الذي يقع في وسط شارع ساسين في حي الأشرفية ومع دقاتها استقبلت هناء وأمال بعد أن وضعا وساماً في المستشفى وقد بان البشر على محياهما بعد أن طمنها الطبيب عليه وبشرهما بقرب شفائه.

دخلت أمال الى فناء الدار وتسمرت في مكانها كالمأخوذة. وبقي نظرها وحده يجول هنا وهناك متفحصاً ما يحيط بها من أثاث فاخر ورياش ثمينة. وقارنت بين موجودات بيتهم في القرية وبين الروائع التي امامها. فوجدت البون شاسعاً بين الاثنين.

عندئذ شعرت بحقارة وضعها؛ وبانها دون هنـــاء مكانة ومقاماً. وبان خجلها على محياهـــا فتورد وجهها بهالة من الاحمرار. انتبهت هناء لوضعها فساعدتها على الخروج من الجو الذي أوجدت نفسها به. وذلك بنكاتها اللطيفة، بظرفها ومودتها ومحبتها. ثم دخلتا سوية الى غرفة الاستقبـــال، وبدأت هناء في الحديث.

كيف وجدت منزلي، هل راق لك.

ضحكت أمال ضحكة ناعمة فيها بعض المرارة. وقالت انه

منزل جميل ، ذو أثاث فـاخر . انك ذواقة فن . لكن كرمك يا اختي وحسن ضيافتك اجمل من كل ذلك .

كرمي ،. وهل أبقيتم لنا أنتم اهل الجبـل أي مجال للكرم بعد الذي احطتموني به من عناية واكرام .

يا اختاه ،. مهما كان كرم اهل الجبل كبيراً ،. انه لا يبدو شيئاً امام حياة البذخ والرفاه التي تعيشونها في قصوركم .

قهقهت هناء ملء فيها وقالت :

قصور ،. حياة بذخ ورفاه ،. لا ،. انك غلطانة يا أمال ان حسن الضيافة وكرم الاخلاق اللذان تتحلون بهما اجمل من قصور الدنيا قاطبة . وهذه الحياة التي تبدو لك جميلة المظهر . اذا تعمقت بها ،. في جوهرها ،. تجدينها سراباً خادعاً نعيشه على اعصابنـا ،. ندفع ثمن لهونا وملذاتنا من راحتنا ،. من صحتنا ان حياتنـا مادية مئة في المئة ،. اذا وجد معك ليرة فانت تساوي ليرة . واذا وجد معك الف فانت تساوي الف واذا لم يوجد معك شيئاً فانك لا شيء ،. اذا اشتغلت تأكلي ، وان لم تشتغلي لا تأكلي ،. هـذه هي الحياة في المدينة ورددت سراً ،. انت رأسمالي يا أمـال ،. اذا خسرتك فربما لا اعود اجد ما أسد به رمقي .

وبينما هما في الحديث بدأت وفـود الزائرين تقبل عليهما وهناء تقدمهم لها .

هـذا ابن عمي وهذه شقيقته ،. هـذا ابن خالي ، هذه صديقته ،. هذه رفيقتي وهذه صاحبتها ،. الى ما هنالك من

صلاة الصداقة والقرابة. وقد دعوتهم جميعاً للاحتفال بقدومك ولكي اعرفهم عليك .

لفت أمال بهالة من الخفر والحياء ، وتوردت وجنتاهـــا فبدت آية في الجمال والفتنة وقالت لهناء في همس ملائكي :

من أنا كي تتكبدي من اجلي كل هذا العناء ؟

انت ،. وربتت على كتفهـــا ثم قبلتها في جبينها . انت الأخت الحنون والملاك الطاهر ،. و ،. وجاوبت نفسها انت يا حبيبتي أكثر من أخت ، . أنت ، . وقهقهت الفرحـــة في داخلها أنت إكرامك واجب عليّ .

أتجهت الأنظار نحو أمال بشره ونهم . وكل من أصحاب هذه النظرات الغريزية يبتغيها لنفسه ، لأنهم قد عرفوا بأنهـــا صيد جديد ،. مادة خام ،. ولاحظت هناء نظراتهم وخافت على صيدها . لأنها رأت الشك في عيني أمال. فزجرتهم بنظرة حادة ولسان حالها يقول انتظروا قليلاً . . وكل آت قريب .

تحركت غرائز الأنثى في نفس أمـــال . وشعرت بالخطر يحيق بها . لكنها كتمت كل ذلك خوفاً من أن تجرح شعور مضيفتها ،. وسرحت مع خيالها ، . وراجعت الفكرة التي كونتها سابقاً عن حياة المدينة ، . عفاف ، . سرقة ، . إبن المدينة أزعر .

العفاف يسرق وسارقه المدنجي بحسب قول أم عساف وأم جميل ،. وأعتصر قلبها سر غامض ،. وجرحت كرامتها ، . لا ،. لا ،. إنني لا أريـــد إنه كابوس ثقيـــل . .

لكنها عادت إلى صوابها ». إن كل ما يجول في مخيلتي أوهام بأوهام .

لكن بعد قليل تجسدت أوهامها حقيقة إذ بدأ الجو يتبدل شيئاً فشيئاً من تحفظ مقصود إلى إباحية فاضحة أخرجت أمال عن هدوءها وثارت لكرامتها الذبيح . وبقيت ثورتها ضمن جدران أربعة » . وسدت في وجهها جميع منافذ الخلاص .

فاستنجدت » . ونادت » . وصرخت » . استنجدت بشباب ممتلىء الأجساد عديم الشرف. فكانت كضحية تسترحم جلاديها . ونادت ربها لينتشلها من وهدة الخطيئة فصم آذانه عن ندائها ودفعها إلى الهاوية دفعاً .

قهقه الحضور ملء أفواههم لأنهم تعودوا مثل هذه المشاهد من المبتدئين أمثالها . إن هذا لا يعنيهم » . إن الثمرة عجراء وقريباً ستنضج ». هذا كل ما كانوا يفكرون به .

والثمرة الفجة بحاجة إلى جو حار ليبكر في إيناعها .. وهذا الجو من صنع أيديهم . إذن إلى العمل » . وتقدم منها أحدهم ». وكان من المكلفين بترويض المشاكسين أمثالها . تقدم وأخذها بين أحضانه واضعاً يديه على برعميها الخفاقين». انتفضت كمن لدغتها أفعى ». وحاولت الإفلات » . لكن أنى لها ذلك وذراعاه الفولاذيتان يصهرانها بقوة . وفمه المخمور يطبق على فمها بنهم .

ثارت كلبوة حبست في قفص من حديد » وأشبالها في الخارج تعذبهم أيادي مروضيهم». إنها تندفع رغبة في خلاصهم

لكنها ترتد خائبة بعد أن تكون قد دفعت ثمن جهادهـا من فؤادها ، . من أظافرها التي تكون قد ذهبت طعاماً للقضبان الحديدية .

وتقدمت هناء من الوحش القابض على أمـــال وصفعته صفعة أطارت الشرر من عينيه . فارتد إلى الوراء وعيناه تروغان ككلب زجره صاحبه .

وباستكشاف أسرار الغيب علمت أمال بواسطة غرائزها الأنوثية أي مصير ينتظرها فجاهدت وكافحت كفاح المستميت لتحافظ على عفافها . ثم ارتمت على اقـدام هناء واستحلفتهـا بقدسية صداقتها كي تقيها عثرة الذل .

ووقعت هناء بين حجري رحى ، ما ذنب هذه المسكينة. ما جرم هذا الحمل الوديـع ،. حرام علي ،. يجب ان انقذها ،. يجب ان انقذها ،. وجاوبها صـــدى ماضيها ،. ماضي صداقتها في القرية . انك مثلها ،. فتاة ،. وأي معنى لفتاة دون عفاف ،. لقد مررت بنفس حالتها ،. لكن بفارق الوقائع .

لكن واقعها ردد . انقذيها إذ وجدت الجرأة على ذلك ،. انك ستدفعين استقرار مستقبلك ثمناً لاستعجالك .

انت مديونة وكل ما تملكين لا يسد جزءاً يسيراً من دينك الكبير . وأمامك الحبس ،. والتشريد ،. والحرمان ،. وهي املك الوحيد في هذه الحياة الدنيا ،. انها رأس مالك ،. انها كنز لك ،، هل تحكين على نفسك بنفسك ،. لا ،. لا ،.

إذن الى العمل وعونك الشيطان في كل ما تفعلين .

بكى قلبها واختلطت دموعه بدماء ضميرها الذي طعن بحربة الأنانية الزائفة . وعادت نغمة الانتقام من المجتمع تتجاوب في جوهرها .

وعادلتها رغبة الانقاذ ،. لأنقذها ولي الله فيما اعمل ،. الله ،. والشيطان ،. الخير ،. والشر ،. مصلحتي ،. خلاصي في يدي ،. وامتزجت الافكار ،. ووضعت رأسها بين يديها رباه انجدني ،. انقذني ،. من هذه الحيرة القاتلة .

انتقلت هناء متقمصة شخصية الجلاد ومعها الضحية إلى الغرفة المجاورة وكانت أمال بحالة يرثى لها من الاجهاد والاعياء. لكن قبساً من نور رجاء كان ينير نفسها ،. ان هناء ستساعدها وهي ستفر إلى البلدة باقرب سانحة ،. وتميزت وضعها ،. إنها قريبة من الباب الخارجي لا يفصلها عنه سوى فسحة الصالون ثم الممر الضيق ،. انها ستفر دون استئذان .

أما هناء فكانت تعد لها شيئاً آخر بعد ان حكمت على نفسيها حكمين مختلفين . فقد حكمت على نفسها بموت ضميرها نهائياً وعلى أمال بسلب عفافها ونادت خادمتها :

عبلة .. عبلة ..

نعم يا ستي ،. ماذا تريدين ..

احضري كوباً من عصير الليمون كي يساعد أمال على تهدئة اعصابها .

حاضر ،. وهل ،. ثم غمزت بعينها .

نعم ،. وبسرعة ،. وجاوبت نفسها أيضاً أن اعصابي لم تعد تتحمل اكثر من هذا وبكت .

ابتسمت الخادمة ابتسامة ذات مغزى وخرجت ثم عادت والكوب في يدها .

أخذت هناء الكوب من يد الخادمة وادنته من فم أمال فرشفت منه قليلا . لكن رائحة ما قززت نفسها ، فأبعدت الكوب ،. وقالت لجلادها ،. شكراً يا أختي ،. ان هذا يكفي ..

لا ،. خذي ،. وزادت في الالحاح أشربي يا روحي ،. ان الشراب يساعدك على الهدوء ويزيل الصداع من رأسك .

لا ،. شكراً ،. انني أشعر بغثيان ،. و ..

ولو ،. كرمالي ،. متكسريش بخاطري .

اتت أمال على آخر محتويات الكوب وكان هذا آخر عهدها باليقظة . وشعرت بهدوء يغمر كيانها . وبارتخاء في جميع مفاصلها .

خي ،. وارتمت الى الوراء ،. خي يا اختاه ،. ان ،. ا ،. ا،. ولم تستطع الافصاح أكثر من ذلك . لان المخدر الذي مزج بالشراب كان قد فعل فعله في الجسد الفتي وغابت في سبات عميق :

عند ذلك ابتسمت هناء ابتسام المنتصر وخرجت لتشبع فضول الحضور وبدأت المساومة على ثمن العفاف البكر . ورست الصفقة على كاهل شيخ متهدم حاك ببياض لمته ثلج

صنين . ودبت الغيرة في قلوب الشباب المتوثب ،. وحسدوا الشيخ الهرم على قطف الزهرة اليانعة لكنهم غلبوا على أمرهم،. فاستنجدوا بهناء ،. فقلبت شفتيها بقلة اكتراث ،. وقالت :

انه المال ،. المال يا سادة ،. المال الذي يذلل الصعاب ويفعل المستحيل ،. فقد دفع أكثر ..

أفاقت أمال على حقيقتها المرة . لقد فقدت أعز ما تملك ،. وأصيبت بموجة من جنون وشعرت كأن جسدها بكامله جرح مكلوم ،. ثم تضخم ذلك الشعور ،. وتخيلت كل ما يحيط بها بحر من دم ،. وهي غريق على وشك الاختناق،. ولوحت بيديها في الهواء ناشدة الخلاص . لكن ثورتها لم تدم طويلا لان هناء أتتها بكوب آخر من أكوابها المشؤومة ،. فتخدرت ثانية ،. ثم أفاقت بعد وقت طويل ، وكان قد نظف عن جسدها كل أثر للجريمة ،. أفاقت مشتتة الأفكار،. وبحثت عن حقيقتها من خلال ضباب كثيف اكتنف جميع تصرفاتها السابقة وتصفحت كل ما مر بها مقطعاً مقطعاًمن حين صحبتها هناء الى المدينة حتى الساعة التي تحياها . وظهرت لها الحقيقة الهائلة ،. وعلمت الى أي درك انحدرت،. وقارنت حاضرها بماضيها وتساءلت أي حاضر ،. وأي مستقبل ،. وأي ماض ،. وانحدرت دمعة على وردها الذابل وتبعتها دمعات ،. وصحبت خيالها بعيداً ،. الى أجواء القرية ،. وقد علم بعارها الجميع،.وأصبحت محط استهزائهم وسخريتهم، وتمثلتهم يشيرون اليها بالبنان ، ولسان حالهم يقول : ابتعدوا

عن الزانية لئلا تفسد أخلاق بنيكم ». ابتعـــدوا عن العاهرة لأنها وباء سيتفشى باجساد شبابكم وشاباتكم ». ولاحقتهـــا مهاترات العجائز تدق أصداغها بمطارق التنديد والتأنيب ». وصرخت ضمن حدود اللاوعي وكأنها تعيش تخيلاتها حقيقة .

اني بريئة .. اني بريئة .. وهم .. هم المجرمـــون الذين أعمت أعينهم المادة .. لان المادة في عرفهم كل شيء .. هم الذين لا يهمهم انتهاك الاعراض أو هدم البيوت التي بنيت على أعصاب ساكنيها الودعاء .. وارتد اليها الصدى مردداً .. هم .. هم المجرمون ..

واختلط ذلك الترديد بقهقهات مصدرها الخارج.. مصدرها هناء وهي تراقب تأثير فعلتها على ضحيتها البريئة . وفجأة تسمر نظرها على أمال . إذ رأتها تحطم زجاج النافذة وتنتقي منه قطعة بشكل سكين وتهم بان تطعن صدرها .. وفكرت بسرعة .. هذه الدقيقة الفاصلة ستقرر مقدار انتفاعها من بقاء أمال على قيـد الحياة .. ومـع سرعة تفكيرها صحت من ذهولها .. الى العمل وبسرعة .. ان جميع أتعابها ستذهب أدراج الرياح ان هي توانت .. وانقضت على أمال.. ودفعتها دفعة قوية ألقت بها على الحضيض فضعضعت قوتها..وتحطمت قطعة الزجاج في يدها .. وهشمتها شر تهشيم وساعدها على بلوغ غايتها تردد أمال بالقضاء على نفسها لانها عندما قررت الانتحار كانت تحت سيطرة الشعور بعار الفضيحة.. وأرادت الموت لتتخلص من الذل والامتهان لكنها عندما وصلت الى

الثانية الحاسمة عاودها الشعور بلذة حب البقاء . وتصارع بداخلها عاملان جباران كانا المحرك الرئيسي ليدها . فعندما كان يقوى عليها الشعور بالذل تنحدر يدها لجهة قلبها . لكنها كانت تصطدم بالتعلق بحب الحياة فتصعد متمهلة والانفعال يهزها هزاً . وبقيت هكذا بين صعود وهبوط حتى أدركتها هناء وحطمت أداة الجريمة في يدها .. ثم انهضتها وأرادت أن تضمد جراحها فصرخت في وجهها :

ابتعدي عني أيتها الأفعى الشريرة لأن عواطفك سم زعاف يتغلغل في أجساد الذين يؤمنون بحبائلك الجهنمية . ابتعدي عني لانك معول صنع خصيصاً من الغدر والانحطاط . لكي يهدم صرح القيم الأخلاقية . لكن سيأتي يوم يوضع به حداً لغوايتك . وتنالين جزاء أفعالك المنحطة .. وكل آت قريب .

قهقهت هناء ملء شدقيها وأجابتها بتشف :

ان القدر بجانبي كما ترين ،. والاجدر بك ان تنصاعي الى أوامري فتحيين حياة سعيدة مقرونة بالرفاه واللذة .

انصاع الى أوامرك ،. وبصقت في وجهها . انت يا احط خلق الله ،. كلا ،. والف كلا ،. انني أفضل الموت مراراً على ان أرى وجهك المشؤوم .

رويدك ،. رويدك ،. لم هذا التجني يا حبيبتي ،. وان لم تبقي عندي أين ستذهبين قالت ذلك ومسحت ما علق على وجهها من بصاق آمال .

ان بلاد الله واسعة ،. انني لا اعدم وسيلة احصل بها على

قوتي . وذلك ان بقيت على قيد الحياة .

انتحار ؟ لا ،. هذا آخر ما ستقدمين عليه . ان الحياة شيقة ، ولذيذة ،. وحب ،. وجمال ،. وانت لا تزالين في بداية عمرك ،. لنسلم بما تقولين ايتها القروية المتعجرفة فبأية وسيلة ستحصلين قوتك ،. أبعلمك ،. ام بصناعتك ،. ام بماذا .

ا ،. ا ،. انني سا ،. ثم خنقتها العبرات ولم تستطع الافصاح عما ارادت ،. وأكملت عنها هناء ..

انني قد رسمت لك سبيلا لا تستطيعين الانحراف عنه . لأن شبحي سيلاحقك اينما اتجهت . وسيتسبب باذلالك . انك ستأكلين طعامك مغموساً بماء الدعارة والرذيلة . وكانت أمال تستمع الى كلامها وتتساءل .. الى اين ستذهب .. وماذا سيكون مصيرها .. أتذهب الى البلدة ، كلا .. ان هذا مستحيل ، اتذهب الى الشارع .. وماذا ستلاقي ..

تراكمت كل هذه الأفكار في رأسها ولم تجد لها جواباً . وكان كلام هناء يدوي في صدغها كالرعد القاصف . ورددته أولاً .. وثانياً .. وثالثاً .

ان شبحي سيلاحقك اينما اتجهت . وسيتسبب في اذلالك. وقارنت بين شرودها في الشوارع وبين .. لكن هناء لم تتركها في استرسالها اذ قالت ..

على ماذا عولت ..

وراجعت في سرها نفس السؤال .. على ماذا عولت .. وعندما لم تجد جواباً أحنت رأسها بذلة المكسور .

رضوخ

مر الوقت متثاقلا وأصبحت أمـــال من افراد الأسرة الزندقية ، لكنها كانت تختلف عن المجموعة بانفرادها وانطوائها على نفسها ضمن جدران اربعة لا تتعداها إلا حين الضروريات نعم انها قد باعت جسدها الى الشيطان لا حباً بالمال وبما يجلبه لها من رفاهية وسعادة ، بل باعته تمشياً مع شريعة حب البقاء. ولكي تحتفظ بتلك الشعلة التي وهبتها إياها العزة الإلهية . لأن فراق هذه الحياة هو آخر شيء يمر بمخيلة الانسان ، وآخر شيء يضحي بالعزيز الغالي لأجله . وكانت في البـــداية تهاب السير على طريق رسمتها يد القدر مخافة من وسام ومن سخطه عليها . لكنه شجعها على فعلتها بعد رجوعه من المستشفى وإبلاله من جرحه ، وذلك بمغازلاته لأحد المومسات امامها وبنطقه بكلام بذيء يتطاول لأحط ما في المرأة والرجل . واستنتجت . . نعم استنتجت بانه على علم بالمؤامرة التي حيكت لإذلالها وبأنه كان ربيب هناء ، طوال مـــدة غيابه عنهم . وكانت جميع أفعال وسام بإيحاء من هناء . لأنه عندما علم بما حل بشقيقته ثار غاضباً لدوس كرامته وتلويث شرفه بهـذا

الشكل الفاضح . لكن هناء هددته بالطرد وبالقائه في الشارع ان هو أقدم على أي أمر ينفر أمال ويقصيها عنها فأنقاد لها صاغرا ونفذ كل ما أمرته به وبين الحين والحين كان يبعث لاهله برسائل تطمنهم عليه وعلى شقيقته ، وذلك تغطية لبقائهما في المدينة أطول مدة ممكنة .

الفراشة الذابلة

لم يكن حظ عفيف تامر أقوى من حظ وسام فانجرف مع التيار الغادر الى المدينة يدفن شبابه ضمن خماراتها ومواخيرها وتنقل من بار الى بار ومن ملهى الى ملهى الى أن قذفت به التقادير الى حجر هناء على أيادي بعض سماسرتها الاشاوس حيث التقى به أحدهم في الشارع وهو في أشد حالات السكر .

اذ تبين له من مظهره انه صيد ثمين فاقترب منه وهمس في أذنه .

هل تريد بضاعة جيدة يا سيدي .

نظر اليه عفيف، باستغراب .. كلا .. انني لست بتاجر،

انك قد اسأت فهمي يا سيدي ، لان بضاعتي ليست للمتاجرة . بل لتحتفظ بها لنفسك ، وتمضي بقربها اطيب أيام لهوك . فهل تريدها شقراء . أم سمراء . أم بيضاء .

تنبه عفيف، لما يرمي اليه محدثه ، وكان آنذاك في حالة سكر ظاهر تقود خطاه بعض ثورات جسده البهيمية ، فأجابه فورا وبدون أي تفكير .

أنني أريد أجمل وأحلى ما عندك • ثم تحسس جيب سترته فوجد ما قبضه من ثمن فاكهته لم يزل منتفخا •

لكن سمسارنا العزيز فاجأه • الرعبون •• الرعبـون يا سيدي •

أخرج عفيف محفظته ونقده ورقة لم يتبين ارقامهـــا ودسها في يد صاحبنا لكن قيمتها كانت مرتفعة على مـــا يظهر لانها أسالت لعاب محدثه النهم •

تقدمت هناء عندما نظرت ورقة الخمسين تتراقص بيد سعيد ثم سألته •

مـــا هذا ••

قهقه سعيد ملء شدقيه وعلامـــات الغبطة تشد قامتـــه الى فوق •

أنها عربون أثمن ما عندك •

عقدت الدهشة لسان سيدته وتساءلت •• أهذا عربون فقط ••

نعم انها عربون •• وهل فيها ما يدهش •• قالها بخبث وعيناه تسترقا النظر الى هاتكة الاعراض •• ونفسه تتمنى المكافأة الجزيلة •

لا •• قالتها هناء بقلة اكتراث ، لكنني أحببت انأتأكد بأنها ليست الا عربونا وكانت افكارها تحوم حول مـــن ستكون سيدة هذا المليونير المهووس ، عدلا •• كلا • جمالا •• لا •• جليلة ؟ لا تصلح ايضا ، من اذن ؟ أمال ؟

نعم أمال • ومن غير الفراشة الذابلة لهذا الدور الخطير••
والفراشة الذبلة لقب لامال أطلقه عليها أحد الزبائن الظرفاء
لانه أحب ان يدخل السرور والبهجة الى قلبها الحزين •
فباء بالفشل وذهبت جميع محاولته ادراج الرياح ولاقى
هذا اللقب الاستحسان عند الجميع فأصبحوا لا ينادونها
الا بــه •

أمال •• حضري نفسك •• دعد رتبي الغرفة جيدا كي
تليق بمقام الضيف الكبير •• ألقت هناء بكلامها الـى
مخدوميها وكأنها قائد يصدر أوامره الى ضباط فرقتـــه
ليخوضوا غمار حرب ضروس • وبدت الغرفة كأنها لاحد
الاميرات لفخامة أثاثها ولكثرة ما تضوع بها من عطور •
وأفرغ على جسد أمال غلالة شفافة بلون السماء • فتلألأ
من خلالها كتلؤلؤ الدر في بحيرة صافية الاديم وسطـع
نور الكهرباء أحمر فزادها روعة على روعة وفتنة على فتنة
وصدحت الموسيقى خافتة حالمة شاعرية كجسد فراشتنـــا
وذبولهـــا •

وفي هذا الجو المشبع بالروائح العطرية وعلى الانغام
الموسيقية ولج عفيف الى داخل الغرفة ليبذل آخر ما تبقى
من قواه ، وكان الخمر قد غطى عينيه بغلالة هيولية كالتي
ترتديها صبوته • لذا لم يستطع تمييز ما أمامه لاول وهلة
لكن أمال أقعدتها الصدمة •• وشلت حركتها لانها شاهدت
من طردته بالامس شامخة مرفوعة الرأس ، يداهمها الان

وهي متسربلة بثوب الدعارة والرذيلة • فتمنت أن تنشق الارض وتبتلعها • لكن كل ما تمنته كان سرابا • وها هو عفيف يقترب منها ليروي قلبه من معينها الفياض • وخرجت من شفتها جملة تستفيض استرحاما في حدود اللاوعي •

عفيف • ارحمني يا عفيف • انني بريئة •

فعلت هذه الجملة بعفيف فعل السحر ، وصحا من سكرته ، ثم رأى •• ويا لهول ما رأى ، أمال خطيبته ترتعد امامه كورقة خريفية في مهب الرياح •• وجسدها الراعش مكموم أمامه ، كالطرد الفارغ • فلم يصدق عينيه لاول وهلة ، وظن ما يتخايله أوهاما مصدرها الخمرة •

وانه في حلم •• وان هذا كابوس خانق مصدره كثرة تفكيره بأمال •• وان عقله الباطن يصورها له بشكل مومس ، هينة المنال ، وان •• وان •• وفرك عينيه بكلتا يديه ليتحقق من ظنونه ، لكن صدى صوتها تردد في أذنيه •• عفيف •• ارحمني يا عفيف ، انني بريئة ، ولفها نظره برهبة الواقع •• وأعادته حركاتها الى العالم الحسي الملموس •• وزحفت اليه •• وتعلقت بثوبه ، وطلبت منه الصفح والغفران •• وتسمر في مكانه •• وشد وعظم كأبي الهول •• وتعومد جسده بين الارض والسماء • وأفكاره حامت حول الماضي القريب •• أمال معبودته الجميلة التي تمنعت عليه بالامس فخر ساجدا في محرابها تسرق منه الى الابد •• ان هذا هائل •• لا يصدق ،

وخيانتها الان لماذا ، ان المرأة شر ، لا يركن لها •• انها كالحرباء تلونا •• حينا تكون بمصاف الآلهة ، وحينا قرينة ابليس ، واحتقرها ورفسها •• ثم بصق عليها وخرج كلامه مع رذاذ لعابــه •

ابتعدي عني يا أحط خلق الله •• ابتعدي عني يا بؤرة الموبقات •

لا •• لا •• وبكت بلوعة ، لا تحتقرني ، وحبت اليه زاحفة تارة على صدرها وطورا على ركبتيها • انني بريئة وخنقت صوتها الفاجعة •

وكانت قوة الصدمة أقوى من ان يتحملها انسان • لان قلبه مشدود اليها بقيود لا تكسر وكان يأمل ان يصلــح نفسه ويعود اليها • لكنه طبق قول المثل (اننا نريد ان نتوب ، لكننا لا نتوب حتى نموت) • وكان في قرارة نفسه ينشد هذا الاصلاح • ينشد بتوق وحنين • لكن أمله في المستقبل ومفاسد هذه الحياة أقعداه عن ذلك • وعندما شاهدها ذليلة بين يديه • داخله الرحمة وشعــر ببعض الغفران نحوها •• وكاد يصفح • ثم قابل • ألست بجانح •• ومتهور ، لماذا أجيز هذا لنفسي ، ولماذا أحرمه عليها •• لقد تمرغت بين أحضان عدة نساء •• زوجات محصنات وبنات بغاء ، وفتيات أبكار سليلات أعرق الأسر وأشرفها فقيرات •• غنيات •• ربات قصور ، ساكنــات أكواخ •• وهي • لقد اصبحت قانصة رجال ، وكلانا في

الجرم سواء •• وسقطت دمعة على وجنتيه •• لكن أنا رجل ، وما يجيزه الشرع للرجل لا يجيزه للمرأة • ولماذا • ألأن الرجل قوي ومتعجرف•• يبسط ظله على هذا المخلوق الضعيف الذي يسمونه المرأة • والمرأة التي تسعى لتتحرر من تبعية الرجل ، وقد أقرها على فعلتها نخبة من رجـال اليوم ، وأعطوها كامل حقوقها • ألا يحق لها ان تتصرف بجسدها على هواها •• وأن تنتقم من الرجل بواسطة هذا الجسد •• سلاحها الوحيد ضد عدوها المتمرد العاتي •• وحبي ، وغيرتي ، وأناي ، و •• وشعر بقلبه يتمزق وبثورة تجتاح كيانه •• انه ريح عاصف ، انه رجل • انه قوي ، الشرف العفة الطهارة ، الاخلاق ، جميع هذه القيم دفنتها في رمس الخلاعات المستوردة من الخارج وكفنتها بعبادات حب التقليد المهووس الذي يعبده شباب مخضرم ضائع •• شبـاب سيتزوج ويلد ويشيخ •• والاولاد سيشيبون ويتزوجون ويلدون •• وستندثر عادات مع شيوخ سيموتون تقوم مقامها عادات أخرى •• ستترعرع •• وتشب ، وتشيخ مع كل جيل ، عندها سينقلب قول المثل (الويل لمن لـه مرقد عنزة في جبل لبنان) وتقدمت منه أمال • تقدمت مستعطفة أياه ، فلم تجد الا صخرا صلدا لا يلين •• وروت له الحقيقة فنعتها بالكذب •• وبكت فقال دموع تماسيح • ولان قليلا • لكن نداء الشرف كان أقوى من قلبـه •• ومن ارادتـه • فخرج ضائعا نصف مجنون •

وثارت الفراشة الذابلة •• ونقمت على الحياة ، وقررت ان تهرب •• ان تنتحر ، لكن عيون الرقباء كانت لهــا بالمرصاد •• تحصي عليها تحركاتها •• وتمنعها عن كل ما تريد ، لان هنا، قرأت افكارها مسبقا فاحتاطت للامر ، وبثت حولها العيون لتصدها عن جميع رغباتها ، وذلــك لحين خمود العاصفة •

واحتج وسام •• ورغب بمغادرتها مع ضحيتها ••لكن دهاءها كان أقوى منه ، فعض على جرحه • واستكان ذليلا مغلوبا على أمره •

جنون عفيف

جن عفيف جنونا مطبقا واصبح لا يعي ما يقول ولا يميز ما يفعل ، يسير اناء الليل وأطراف النهار •• اشعث الشعر حافي القدمين • ممزق الثياب • ويحوم حول السنديانة مهد غرامه ويناجي النجوم ، ويهدد القمر ، ويصيح ، ويصيح ، وضجيج قاتل يهدر في رأسه • محور واحد افكاره في نطقه ، ومع صخب الضجيج كان صوت يتردد في داخله•

ارحمني يا عفيف •• ارحمني • انني بريئة ، انني بريئة ويقوى عليه هذا الصوت • ويخرج على لسانه صراخا ملء فيه ، انني بريئة ، انني بريئة ، لا ، لا انت مومس ، انت عاهرة ، لقد رأيتك بأم عيني ، أنت زانية •• والزانية ترجم •• ايها القوم ، تعالوا اقتربوا •• ان ملاك الامس قد اصبح الان يدعى الفرشة لذابلة ، هناء ، أمال ، دعارة فسق ، اقتربوا ، ساعدوني ، على رجمها ، لا •• لا •• تقتربي مني ، لا تدنسي محراب حبنا ، لا •• انك •• هذا لا يصدق ، وتدوم ثورته وتدوم الى ان ينهار كليا •• وتتلقفه أيادي أصحاب الغيرة والمحبين من الذين يصادفونه وسرى نبأ جنون عفيف تامر في بسكنتا سريان النار في الهشيم •• وتناقلته الالسن الفضولية •• ان عفيفا قد

جن لانه قبض على خطيئته بالجرم المشهود وهي تتعاطى الرذيلة في احد مواخير المدينة المشبوهة .

وباتت البلدة على وجوم .. لا تصدق ما يقال لانماضي أمال الشريف الطاهر كان خير شفيع لها عند غالبية القوم. فباتوا بين مصدق ومكذب للخبر . لكن القرائن كانت ضدها . فمن تغيبها مع وسام .. الى جنون عفيف ، الى بقاء الغموض محيطا بقضيتهم . كل هذه الامور مجتمعة أسقطت في يد الاحباء والمقربين والاصحاب .. فبكوا شباب بلدتهم النضير وهو يذوي على مذبح الفحشاء . ويبذر في الرياح ليلطخ جبين تاريخها المجيد .

وكثر اللغط والهمس حول هذه الفاجعة .. والتقطته آذان الوالدين التعيسين .. فهالهم الامر .. ونزل على رأسيهما نزول الصاعقة ، وكانا في أثناء غياب ولديهما في المدينة يتعزيا بالرسائل التي تصلهما من وسام تباعا .وناما على حرير أملا باللقاء القريب .. وانهارت الام وانهار الاب .. لكن دوس شرفهما وتمريغ سمعتهما بالوحل أعاد الى الاب بعض القوة .. وقرر ان يغسل عاره بالدم .. ان يقتل أمال ووسام اذا صدق الخبر .. وحكم عليهما بالاعدام .

وتطوع حنا ابن صديقه وصاحب أبو وسام لمرافقته . وكان قد استقى بعض الاخبار من عفيف وذلك في بعض حالات وعيه .. واندفعا الى المدينة . وأبو وسام يجر

خلفه ذكرى ثمانين عاما ، عاشهما شامخ الانف •• عالي الجبين •• وشرفه الاثيل لا تشوبه اية شائبة • وكانت أفكاره تتأرجح بين الشك واليقين •• بين مصدق لما يقال ومكذب له •• وعندما استعاد بمخيلته صور الماضي ، شاهد ولديه كالملاكين •• ترفرف فوق رأسيهما اعلام التقوى والفضيلة • فتشع نفسه بنور السلام والاطمئنان وتبلور جسده المغضن المتهالك وينبثق من عينيه أشعاع عاطفي خالص • وعندما ينتقل الى وضع وسام وتبدله في الاونة الاخيرة •• ثم غيابه هو وأمال طوال هذه المدة دون مبرر • وتشويش أخبارهما • والاشاعات التي تلوك سمعتهما •• وتتناول شرفهما تطغى عليه موجة من سويداء داكنة ، وتسطو على الانوار المشعة في نفسه كسطو الليل على النهار •

وعاش وقته في حرب داخلية بين تلك القوتين الجبارتين حتى ولج دار السيدة هناء •• وشاهد •• ويا لهول ما شاهد ، فضيلة الامس تتمرغ على أقدام ابتذال اليوم •• وولده في وضع مريب بين احضان احدى الموسات •• اذن كل ما قيل له صحيح •• وتعامى عن كل ذلك وانتقل بخاطره الى أمال ، وصرخ بصوت سليط كالقدر • عميق كالمجهول •• وسام •• أين شقيقتك يا وسام ، ماذا صنعت باختك يا قايين •

وصم صوته آذان وسام •• وتبين حراجة موقفه فعقدت لسانه الدهشة •• ولم ينبث ببنت شفة •• وتسمرت انظاره على باب يواجهه •• وكان اشعاع الجريمة التي تجري وراءه

قد نفذ الى قرارة نفسه ، فانجذبت اليه انجابا كليا .وكانت نظراته بمثابة ناقوس الخطر عند الاب .. فاندفع نحوالباب ليستجلي حقيقة ما خامره من شكوك .. وأراد فتحه ، لكن زبانية البيت حالوا بينه وبين ما أراد . وقبضوا عليه وقذفوا به بعيدا فقبل الارض بوجهه ، ولون بلاطهـــا بدماء أنفه .

واستجمع شتات قوته ثانية .. وشعر بأن شبابه قد عاد اليه .. فنهض وصدم الباب بكتفه صدمة جبارة ، وأتبعها بثانية وثالثة . وكان رفيقه ضاهر أشد منه ثورة ، فلطم أحد الحضور لطمة قوية ألقته بعيدا ، ولكم آخر، ورفس غيره ، فتهيبوا الموقف وارتدوا الى الوراء ، ثم أمر أحدهم قائلا :

افتح الباب والا ..

وتهيب صاحبنا الموقف .. ونظر الى هنـــاء مستفسرا اياها ماذا يفعل .

وانهارت هناء .. وأسقط في يدها . ان أب الامس قد أصبح جلاد اليوم ، وأرادت ان تهرب ، لكن لا ، يجب ان تعمل .. وبسرعة .. وأعيتها الحيلة ، عندما رأت عنق رجلها يكاد يكسر بين ذراعي ضاهر الحديديتين ، وخافت على نفسها فأستنجدت بآخر لكن الجميع في هذه الساعة الحرجة أصابهم الذهول . فتفرقوا من حولها الواحد تلو الاخر وبقيت وحيدة .. وشعرت بذلها . وبأن نهايتها قد دنت .

والرجـــل المغلوب على أمره لم ينتظر أوامرها ثـــانية

فتقدم من الباب وفتحه .

وولج السيد نديم الى الداخل ، لكنه تسمر في مكانه. اذ طالعه مشهد تقشعر لهوله الابدان .. الانسان فـي حيوانيته وقد تجرد من كل معالم انسانيته .. الانسان في عريه الكامل ،. حتى من ورقة التين .. ومع من ،. مع حشيشة قلبه ، مع أمال البريئة .. مع العفاف .. مـع الطهارة،ووضع رأسه بين يديه وجأر ثانية ان هذا لا يصدق زهرته النضرة تتمرغ في الاوحال ، صرح أمانيه ينهار أمام ناظريه في ومضة عين . ما بناه طوال ثمانين حولا أمضاهم بالعناء والتعب يتحول في أقل من لحظة الى هباء .. نفسه التعيسة تداس بأقدام الشذاذ الدخلاء .

ابنته أمال تباع سلعة رخيصة في سوق النخاس .. وجسدها .. جسدها .. شرفها ، تراثها الخالد بدريهمات تافهـات .

لا ، لا ، ان هـذا لايطاق ، انه حلم .. انه كابوس أعدني الى الحقيقة يا الله ، الى الواقع ..

وصرخت أمال . أبي ، صرخت نصف مشمولة وصراخها أعاده الى الواقـع .

ان ما رآه حقيقة ، وحقيقة مجردة . وجأر منددا .

تبا لك ايها القدر ، بماذا باديتك حتى قصمت ظهري وحرمتني نشوة الحياة ؟. ماذا جنيت حتى حكمت علي هذا الحكم القاسي ، وقضيت على كل آمالي ، وكأنني مجرم دنس ، وكوريده ، وهدد الفضاء ، . وخرج كلامه

فحيحا تغذيه الضراوة الناقمة والحقد الناهش •

أنت ملعون ابن ملعون ايها الكون ، لان كل ما عليك زائل ، فلا حقيقة ترجى ولا عدل ينتصر ،• بل شرور وفساد ، وانحطاط ورذيلة ،• دناءة وخسة ، تلك هي شرائعك السافلة ، شرائعك المنبثقة من قرارة نفسك الموبوءة بداء الفتك والاجرام ، نفسك التي تسيطر عليها المادة ،• الطريق المفضلة لدوس الكرامات والقيم الاخلاقية، وتسرب الموت الى صوته ، وتلاشى رويدا ،• رويدا ، واحتضنه ضاهر ليحجب عنه المنظر البشع •

وهز دوي الصراخ أمال هزا • وملأ الرعب فؤادها، وتحسست المصيبة قبل حدوثها ،• وأرادت النهوض لتستر عريها • لكن الوحش الرابض على صدرها لم يمكنها من الافلات لانه كان في ،• وكان وجودي النزعة •فاسترحمته والدموع في قلبها وفي عينيها •

انه أبي ،• ارحمني ،• ان ابي في الخارج • ولم تعلم بان أباها قد شاهدها • وهي على حالتها هذه ، لان وجه فارسها كان يحجب عنها كل ما دونه ،• دعني استر عرضي واختفي من أمامه • لكنه أجابها والدك ،• هه ، هه • ها وماذا يهمني ان كان والدك او شخصا آخر ،• ألم أدفع فلوسي ثمنا لجسدك ،• وللذتي ،• وان شاهدنا العالم أجمع ، فأي ضير في ذلك • ونقم على المتطفل الدعي الذي أفسد عليه نشوته ،• فليذهبا الى الشيطان ،• انني لكن ،• لا يجب أن اتركها • رحماك ، رحماك ، يا هذا ، أشفق على

محنتي ، اشفق على شقائي ، تصور أية بلية تنتظرني •

ورق قلبه •، ونهض •، لكن الاب كان في باب الغرفة يتشاحن مع دليله •، وتسمر الجميع في مواضعهم •، وصرخت أمال صرخة مكبوتة ، اذ رأت تلك الشعلة النيرة في جسد والدها تخبو شيئا فشيئا • وصوته الذي كان منذ لحظات يشق عنان السماء يتحول الى حشرجيات تحمل بين لهاتها روحا تعيسة آلمها البقاء في مجتمع موبوء وآثرت الصعود الى عالم افضل ؛ حيث لا اجرام ولا فساد •

وذابت المسكينة ذلا •، وضاق عليها جسدها ، وشعرت باختناق قاتل ، وحضنت عنقها بيديها الراجفتين •، انها تريد القضاء على نفسها ، لكن حنينا الى البقاء راودها •• ولو لفترة وجيزة •، أحبت أن تموت •، وتمنت لو انتحرت عندما قضي على شرفها في المرة الاولى والان •• انها تريد الحياة لا حباء بالحياة نفسها •• بل لتوضح لوالدها ما مر بها •• انها بريئة من دنسها ، بريئة من عارها ، وكان لسان حالها يقول •• هم ، هم المجرمون •

ومع أفكارها المشوشة تقدمت نحو والدها • زحفا على ركبتيها ، لان قواها خذلتها ولم تستطع النهوض • لكن الاب المفجوع حدجها بنظرة احتقار سمرتها في مكانها • وكان منظرها وهي تحبو اليه في عريها الكامل قد أعاد اليه القوة ثانية فنهرها قائلا :

أغربي عن وجهي ايتها الملعونة ، لانك لطختي صفحات

شيخوختي بعارك الرجس •• بعارك الذي سيلبسك ثوب المذلة قاتما كالحا •• بعارك الذي كفن عاطر ماضيك بكفن حبكت خيوطه من ارجاس المجتمع المجلل بحلل المدنية الدنسة •• المدنية المقتبسة •• المدنية المستوردة من وراء البحار •• المدنية التي لا تطبق قوانينها الا على البيئات التي ترعرعت فيها وسبقه خياله الى الجبل موطن النسور ومشتل العادات الشريفة،والقيم الاخلاقية السامية •وتنبأ• ان الجبل وعاداته في خطر •• ان المدنية السافلة قد زحفت اليه بقضها وقضيضها لتزرع في تربته البكر الخصبة، بذور الرذيلة والخطيئة • وصرخ فؤاده ضمن كيانه المتداعي اه •• وحسرتاه عليك يا جبلي الحبيب •• وجسد له الخيال ما رأته عين بصيرته •• وشاهد الجبل ينهار على ذاته •• واشلاء مثله العليا تلملم بقاياها وتتجه الى المجهول حيث لا موطن لها •• وصرخ في حدود اللاوعي، ان هذا عار •• على المدنية، عار على العالم اجمع •

عار، عار، في أي واقع أنا •

وعاد الى الواقع على بحة صوت أمال المتقطع •

أ – أ •• اب •• اب، أبي

لا •• ابتعدي عني••ووضع يده على عينيه ليحجب عنهما المشهد المريع، ان عارك سينحدر معي الى القبر لانك ألبستني ثوب الذل محاكا من خيوط أنفاسك الشريرة••من

دعارتك الفاضحة .

وركعت بين يديه .. ورددت ، رحماك يا ابي .. رحماك .. لا تتسرع بحكمك علي .. انني ضحية .. والله ضحية .

ضحية ماذا .. أضحية شهواتك وملذاتك .. ام ضحية نفسك الفاضلة .. والجملة الأخيرة قالها بقرف وترفع .

كلا .. كلا .. لا تسمني بميسم الشهوة واللذة ... انني ضحية القدر .

ضحية المجتمع .. ضحية المادة .

أخرسي يا عاهرة .. أتقري بأنك ضحية المادة .. وأي شيء بخلت به عليك وأنت في القرية .. ألم تكوني وحيدتي المدللة .. والمادة التي انت بسبيلها هل منعتها عنك يوماً ..

وهزت أمال برأسها .. وأرادت أن تصدم به الحائط .. انها تريد أن تفهم والدها بأن المادة لم تكن غايتها هي بل غاية الموتورين أمثال هناء ..

ان المادة .. المادة .. المادة .. سبيلك الوحيد .. واختلط عليه الكلام .. ضحية المادة .. الجشع .. الطمع .. الشرف .. الدم .. الموت ..

وعندما وصل الى حدود الموت كانت روحه تستعد لمقابلة خالقها ، كأنه استدرك ما سيحل به مسبقاً وأصبح كلامه غير واضح تقطعه فترات هدوء .. ثم تحول بعد حين الى حشرجات مستديمة .. اخخ .. اخخ .. خلخ .. خر .. خر .. اخخ .. خر .. ووصلت روحه الى شفتيه .. بوق بوفف .. بوف ، ف ، ف ، وصعدت الى باريها .

فرار وسام

بينما كانت الستارة في داخـــل الغرفة تسدل على آخر فصول الرواية . كان وسام يفر بعيداً مخافة من توبيخ والده ومن تقريع ضميره الذي استفاق فجأة ووعى ما جناه .لكن بعد فوات الأوان .

ودار رأسه كحجر الرحى ،. وهام على وجهه دون وعى ولا إدراك . واختلطت عليه الأمور وبدأ يفقد ذاكرته شيئاً فشيئاً ،. ومشى بعيداً ،. وكانت سيارة مسرعة قادمـــة باتجاهه ،. وكادت تدهسه لكن فطنة السائق أنقذته في اللحظة الاخيرة ،. فانحرف عنـه بعد ان استعمل ضابط سيارته ،. وصدمه في مؤخرة السيارة صدمة خفيفة ألقته أرضاً ،وخاف مغبة العاقبة فسار هارباً لا يلوي على شيء ،. وتحلق حـوله بعض المارة وانهضوه ثم فحصوا جسده فلم يجدوا به أي ضرر من جراء الحادث .

وجلس بينهم كالمخبـول ، وفرك عينيه بيديه الاثنين ،. وقال : أين أنا ؟. من انتم ؟. ماذا حل بي ؟ .

وأجابه بعض الحضور بعد أن وضع يده على فم آخر كاد يخبره عن حادث السيارة وكان نبيهاً فطيناً . أراد أن

يخفي عنه الحادث . كي لا يصدمه في عقله عندمـا يعرف خطورة ما مر به . ولأنه رآه مشوش الأفكار .

لاشيء ،. انك كنت في حالة غير طبيعية ملقى في وسط الشارع . وكانت بعض الجارات قد احضرت كوب مـاء فسقينه وتفرقن عنه بعد ان عاد الى حالته الطبيعية . وشكر مسعفه على ما ابداه نحـــوه من مساعدة وعطف ،. وأكمل طريقه ،. لكنه سأل نفسه الى أين أنا ذاهب ،. نعم إلى أين. أين أنا ،. أين كنت ،. وبدأت الأمـــور تتسلسل في رأسه كأنها شريط سينمائي . وظهرت له الحقيقة عـــارية كجسد شقيقته الذى تركه منذ حين مكشوفاً امام أنظار والده ،. وتمنى لو لم يولد.

وشعر بنفسه تتناثر كالهبـــاء وبكلمات والدته تتردد في تجاويف فؤاده .

وسام ،. ولدي ،. ابتعد عن مسببات الرسوب في هـذه الحياة . ابتعد عن معاقرة الخمرة لأنها تفقدك عقلـــك الذي يميزك عن الحيوان . ولأنك اذا فقدت هـذه الجوهرة تصبح انت والحيوان صنوان .

ابتعد عن المقامرة لأنها تنحدر بك الى الدرك الأسفل . فتفقد شرفك وتداس كرامتك . ومن يفقد شرفـــه وتداس كرامته خـــير له لو لم يولد . لأن السيد المسيح قد قال : (الشجرة التي لا تعطي ثمراً تقطع وتلقى في النار).والانسان بلا شرف ولا كرامة كالشجر بلا ثمر تماماً .

ابتعد عن النساء الشريرات لأنهن علة العلل .

وكانت بكلامها هذا كمن تدفعه الى الشر دفعاً . بعد أن فتحت له باب الفساد على مصراعيه . فسكر . وعربد . وقامر ،. وشرب كأس الفحشاء ، حتى الثمالة . وكان في حياته أكثر من امرأة . لكن هناء كانت له بمثابة الجميع .

عندما وصل بتفكيره الى هذا الحد وتحقق .. ان كل ما مر به من حوادث مؤلمة كانت هناء سببها غلا الحقد في نفسه كالمرجل . ونظر اليها بمنظار حاضره المفجع .. وانقشعت الغشاوة عن عين بصيرته .. ووعى حقيقتها .. شهوة.. أنانية.. جشع .. طمع .. شر .. فساد ..مادة.. وتجاوب في كيانه صوت قادم من البعيد البعيد .

وسام .. اقتلها يا وسام .. اغسل عارك بدماء الفاجرة.. انتقم لعرضك من الحرباء .. اثأر لشرفك .. لكرامتك ممن كانت السبب في اذلالك .

وساعده وضعه الشاذ الذي كان يعيشه على تجسيم هذه الافكار . وسيطر على ارادته .. ثم انتقل من حيز التفكير الى التصميم .. الى العمل .. وتحولت جميع المرئيات أمامه الى بركان من الدم .. ونكص على عقبه .. وعاد لينفذ ما قرر .. وعاد ذاك الجبلي الأبي .

الانتقام

تفرق القوم على وجل . وفروا من امام النمر الجريح .
وكان وسام بانقلاب سحنته واحمرار مقلتيه أشد هــولاً من الأسد وأشرس من اللبوة . وزاد الخنجر اللامــع في قبضته المشهد رهبة على رهبة فتقدم وغايتــه تبحث بغيته . لكن قدمه تعثرت بنموذجه فهوى فوق جثة ابيه .

من ،. ماذا أرى ،. لا ،. ان هذا لا يصدق وخرّ أمام الجثة لهفة ولوعــة ،. وجأر بصوت ضارع ، أبي ،. أبي ،. روحي فداك يا أبي .. وترجى به بقيــة من روح .. خــذ خنجري .. اقتلني .. الموت لي .. وارتد الخنجر الى صدره. وكاد يزهق روحه .. لكن لا .. الموت للعاهرة .

واغتنمت هناء فرصة انشغاله بوالده .. وحاولت الفرار. لكن عين العدالة الساهرة وقفت لها بالمرصاد . لتنتقم للضحايا التي أصابتها بسهام شرورها ومكائدها .. وفي اللحظـة الـتي كادت تفر بها . كان وسام يردد : الموت للعاهرة . ومع ترديد شفتيه لكلمة الموت كانت عيناه تبحث عن طريدتــه أيضاً وشاهدهــا تنطلق بأقصى سرعتها نحو باب الغرفــة الذي هو بجانبه وسد الباب بجسده النحيل وبسمة الانتقــام تعلو شفتيه

ثم ناداها الى اين ..

وسام .. وسام .. ماذا تريد أن تفعل .. هل جننت .

واصطكت ركبتاها .. وزجف صوتها .. وحجبت عينيها بيديها لترد عنهما بريق الخنجر .. لا .. لا .. انك تمزح قل بربك أليس كذلك .. وأرادت أن تضفي على كلامها مسحة من الاطمئنان لتوهم وسام بأنها لا تخشاه .. وبأنها سيدة الموقف كما كانت دائما .. وقهقه وسام ملء شدقيه . لكن الحقد القاتل كان يتجاوب مع تموجات قهقهاته ليرتد الى نفس هناء سما بطيئا يتغلغل في روحها ويسلبها جوهرها رويداً رويدا .. وتجلت الحقيقة لعينيها ساطعة كوجودها وأحست برعشة الموت تدب في أوصالها دبيبا .. ووهنت أمام الامر الواقع .. ورأت التصميم على قتلها في نظرات جلادها .. والعزم من خلال قهقهاته فتكومت أمامه كما تتكوم الذبيحة امام جزارها . ونطق الرجاء في نظراتها وفي فمها ..وسام.. وسام .. ارحمني يا حبيبي .. ارحم ضعفي .. ارحم .

وقهقه وسام ثانية .

ارحمك .. وما معنى الرحمة في قاموسك .. هل رحمتني انت يا ترى .. هل رحمتني في صحتي .. في مالي .. في شرفي وعرضي .. هل رحمتي العفاف في اختي .. هل رحمت الحياة في والدي .. لا .. اذن بالكيل الذي تكيلون به يكال لكم .. خذيها طعنة نجلاء تذهب بروحك الى الجحيم لتريح الآمنين من فجورك وآثامك .. وهوى الخنجر على

الجسد المكوم .. لكن حب الحياة وهب هناء بعض القوة فانحرفت عن الطعنة القاتلة . وحبت على يديها نحو الباب بقصد الفرار منه . وكان لها ما أرادت . لكن عماء بصيرتها ادخلها في باب آخر فتبعها وسام وتبعته جلبة قوية من الخارج. استسلموا باسم القانون .

وسمعت هناء مثلما سمع هو صوت رجال الأمن .. وقوى الرجاء في قلبها .. وصرخت الي .. انقذوني من القاتل .. النجدة .. النجدة .. لكن قرب المسافة بينهما حال دون بغيتها فأدركها وسام وقفل الباب وراءه لكن مفاجأة أخرى ضعضعت صوابه وشلت حركته فتسمر في مكانه كالمأخوذ .

أمال الجسد العاري فاقدة العقل تزوغ ببصرها يميناً وشمالاً وهناء تحتمي بها .. جسدان .. جسد من لحمه ودمه .. شرفه وعرضه .. وجسد أحبه واشتهاه .. جسد قذف به بثوره وتعاميه في حمأة الرذيلة . وجسد غرف من معينه أروع معاني اللذة .

هل يغفر .. هل يعفو .. هل يرحم .. واذا عفا فماذا سيكون حكم كرامته عليه ..

لحظات خاطفة كادت تقرر مصير حياة .. لا .. يجب أن انتقم .. وقوي القرع في الخارج وتحول الى آلة قوية تحطم الخشب الواقف سداً بين الروح والمادة .

ومع تحطيم الباب كان الخنجر يخترق قلب هناء فخرجت أنفاسها من فمها دماً .

وخرج رجال الأمن ومعهم مجرم قاتـــل . وفي محفظتهم تقريراً شامل عن جريمة مثلثة .

أب مفجوع .. جثة هامدة .. وضحية مجنونة ومومس رعناء قتيل .

(تمــت)



نايف ابو فرح

ثمة فعاليات يبدعها

الزمن العتيق في كل

رحلة نحو النفس

والعزله ، يوم نستفيق على انساننا الضائع في متاهاة اعماقنا فيدب في وجداننا الحنان والانطواء .

الشعور الدافىء والاحساس الحزين . . . والجبل المنهار ... قصة ... الانسان المنهار ... قصة الضياع والجبين الملطخ بالقلق .

الثمن ٤٠٠ ق . ل .


Princeton University Library
32101 073833855